

عزت أمين

رواية

الفرار في الصاعقة

الفار في المصاعِد

تأليف
عزت أمين





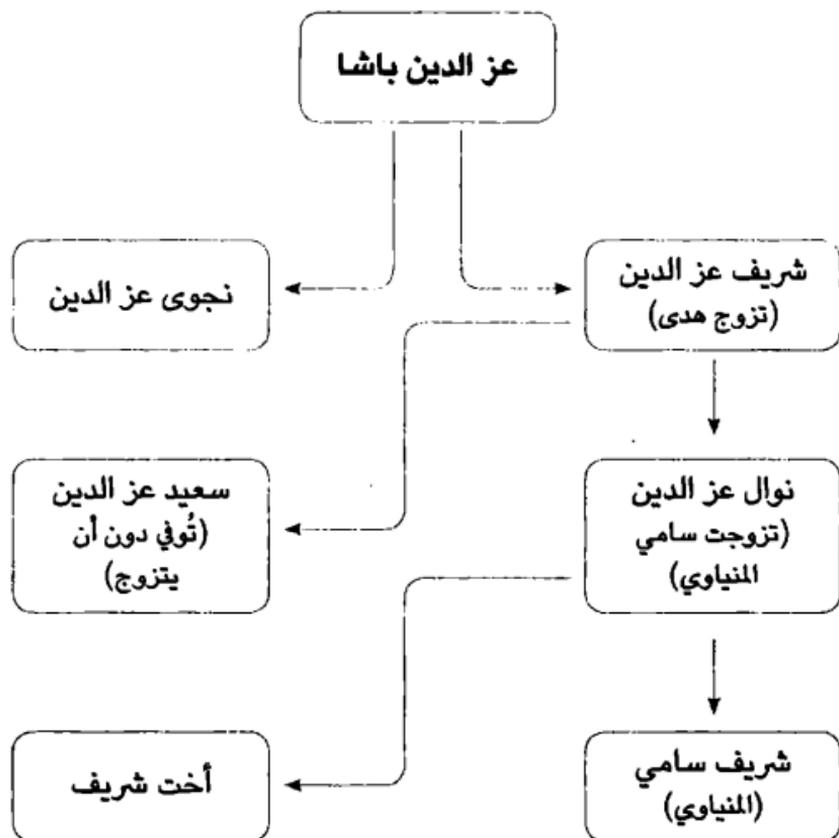
إلى سعاد..
لنكتبُ كي لا يُمحي اسمك..



شكر

رضوى رضا، ماهيتاب الطوبجي،
رضوى أبو العزم، محمد علام، إيهاب
يوسف، زياد العليمي، أحمد صالح،
محمد جلال حسني، هالة الهواري، داليا
القويسني.

شجرة عائلة عز الدين باشا



العمارة

شقة رقم 8 شقة هُدم سقف إحدى غرفها ومغلقة منذ 1992	شقة رقم 7 شقة تؤجر «مفروش»	
شقة رقم 6 منصور جاد الله	شقة رقم 5 منير عبد العال ووالدته	
شقة رقم 4 أميمة ومحمود زوجها	شقة رقم 3 مس لبنى	
شقة رقم 2 نجوى عز الدين	شقة رقم 1 هدى	
مكتبة المصري وتديرها الآن سلمى المصري		
فاطمة وأولادها ومحمد لوتو ودادة عزيزة		

مقدمة

هذه الرواية مستوحاة من أحداث حقيقية حكاها لي صديقي محمد جهاد سلامة والذي قدر له أن يكون شاهد عيان على بعض هذه الأحداث لظروف عمله واقترابه من بطل الرواية.

وفي إحدى عطلات نهاية الأسبوع وفي شاليه فايد والذي يملكه صديقنا العزيز محمد جلال حسني حيث اعتدنا الهروب إليه من القاهرة وزوجاتنا، بدأ محمد جهاد في سرد بعض أحداث الرواية التي بين أيديكم الآن.

قمت - لدواعٍ فنية وأدبية وأحياناً أمنية - بالإضافة لما حكاه تارة وبالحذف مما قاله تارة أخرى. فإذا أردت معرفة أي القصص حدثت وأي منها من خيال المؤلف فالأمر بسيط. القصة الأكثر غرابة هي الحقيقية.

الفصل الأول

- 1 -

«ولماذا أخرجُ على المعاش وأنا ما زلتُ قادرًا على العطاء؟».

تردد هذا السؤال في عقل الدكتور سامي المياوي الشارد أمام شباك مكتبه بوزارة الصحة. بدا له المنظر مختلفاً رغم أنه يطالعه منذ أكثر من ثلاثين عامًا. لم يفهم سامي لماذا تبدو كل الأشياء أصغر والمسافات أبعد في آخر يوم في العمل. فنجان القهوة الواحد الذي سمح له طبيبه بشربه بدا له طعمه بلا ملامح، فلم يشعر بمرارة القهوة ولا بحيوية الكافيين.

لن يتطلع إلى مستقبله بعد اليوم، فلقد وصل إلى أفقه الخاص.

لن يقاتل أو يجبط بعد أن يخرج من هذا المكان، فلقد أعلنت النتيجة بالفعل وأمامه بعض الوقت كي يفسرها كيفما شاء.

طالبته قدماه اللتان عاشرتا ستين عامًا بأن يرحمها قليلاً، فجلس على مقعد حمله أكثر مما حملته والدته رحمها الله. تحسس خدشاً بسيطاً على سطح

مكتبه بسبب احتكاكه على مر سنوات مع مسند المقعد المخدوش بدوره في مكان التلامس فيما بينهما.

الخدوش على الأثاث كتجاعيد الوجه آثار تشهد على الحياة.

على الحائط المجاور لمكتبه والذي يفصل بين المكتب والحمام الخاص به رَسَمَ نَشْعُ المِياه عبر السنوات شكلاً ما تابع نموه سامي عبر السنين، ربما أكثر مما تابع ابنه وابنته وهما يكبران. على الحائط المقابل لمكتبه تغفو ساعة عليها شعار إحدى شركات الأدوية تتحرك عقاربها في كسل في تلك الأيام التي لا يوجد بها جديد، ويدب فيها النشاط وتتقافز في جنون ملتزمة الوقت إن كان هناك بعض الأعمال التي لم ينجزها وقد اقترب موعد تسليمها.

عدم وجود خدوش على الأثاث دليل على عدم الاحتياج إليه.. أصحاب الوجوه التي بلا تجاعيد لم يَحْتَجِهَا أحد ولم يعتمد عليها.

فوق المكتبة هناك «مصلية» مثبت بها بوصلة لتحديد القبلة، أحضرها سامي معه من السعودية عندما أدى مناسك الحج هو وزوجته نوال في رحلة حج سياحي فاخر أعدتها الوزارة لكبار موظفيها. رغم أن سامي لم ينشأ نشأة دينية بل كان يسخر دوماً من المتدينين ويوبخ الموظفين الذين يتركون مكاتبتهم ليصلوا جماعة في المصلى الخاص بالوزارة، فإنه لم يستطع تجاهل نداء الأراضي المقدسة خاصة أن من ناداه هو الوزير شخصياً.

وبعد العودة والترقية وازدحام سامي على الصلاة جماعة يؤمه الوزير شخصياً لبضعة شهور حتى شاء الله أن يطير الوزير في تعديلات «الفكر الجديد» للحزب الوطني المشجعة لوزراء أكثر شباباً، فبقي سامي في مكانه

لا يبرحه بعد أن كان قاب قوسين أو أدنى من كرسي الوزارة. بقيت «المصلية» على أحد المقاعد الأربعة التي تحيط بهيئة الاجتماعات الصغيرة. وبعد أن فقد سامي الأمل تمامًا في التقرب للوزير الجديد انتقلت «المصلية» إلى فوق المكتبة لتدفن نفسها بنفسها تحت غبار الأيام.

ابتسم سامي ابتسامة لا معنى لها وهو يرى بقعة ما في السجادة؛ ليتذكر يومها حين دخل عليه بعض من زملائه وهم يزفونه كعادتهم في كل مرة بهزم فيها النادي الزمالك. قام يومها ليدافع عن فريقه إلا أن يده اصطدمت بفنجان القهوة ليترك البن ذكرى لم تُحَ حتى الآن على أطراف السجادة. في قرارة نفسه كان يتمنى أن يكلمه ابنه في كرة القدم، أو أن يذهب معه إلى الاستاد، أو أن يصارحه بحبه لفتاة أو يعترف له بأنه يدخن السجائر سرًا.

كان يستمتع دومًا لقصص زملائه وما يعانونه مع أبنائهم ويحسدهم على وجود علاقة ما قوية كانت أو فاترة مع أبنائهم. لقد تغير شريف كثيرًا في فترة المراهقة وخاصة بعد أن انتقلت العائلة من منزل هدى (حماة سامي ووالدة زوجته نوال) بالجيزة إلى منزلهم الجديد بحي المهندسين. فترت العلاقة فيما بينهما رويدًا رويدًا حتى اقتضرت الآن على مكالمات أو لقاءات شبه رسمية، ويدور الحديث فيها عن الأعمال المشتركة بين شركة الأدوية التي يعمل بها شريف وبين الوزارة.

اتجه سامي للحائط ليخلع عنه بروازًا به شهادة البكالوريوس ليتذكر آخر يوم له في الجامعة وأحلامه ووعده لزملاء الدراسة في كلية الطب أن يتلاقوا

أسبوعياً بعد التخرج. مضى العمر ولم يلتق بمن يسميهم أصدقاء العمر إلا فيما ندر.

في آخر مرة قابل فيها أحد أصدقائه القدامى صدفة في الشارع، تبادلوا العناق وأعقباه بسؤال عن الأحوال لمدة دقيقتين، وعشر دقائق أخرى بأحاديث تبدأ بجمل مثل «فاكر لما...» ليعقباها بضحكات لفتت أنظار المارة إليهما، لينحرف الحديث إلى أحاديث تبدأ بجمل مثل «هو فين فلان» فيعقبه حزن مصطنع على حاله أو حسد دفين على نجاحه ليهبط عليهما بعدها صمت ثقيل صم آذانها رغم ضجيج الشارع. صمت صرخ فيهما بوقاحة أن هذا هو كل شيء يربطهما ببعضهما البعض. وبعد أكثر من محاولة يائسة من قبلهما لافتعال الأحاديث، اقتنعا أن عليهما المضي قدماً في حياتهما. وافترق صديقا العمر على وعد باللقاء في سرادق عزاء لأحدهما أو فرح أحد أبنائهما، أيهما أقرب.

في تمام الساعة الرابعة احتفل العاملون والموظفون والوزير بسامي. بدأ الحفل بكلمات مبتذلة مكررة أعقبت بتقديم ساعة ذهبية مقلدة، وانتهت رحلة كفاح دكتور سامي المنياوي في وزارة الصحة بتقطيعه لتورته تعيسة وسط تصفيق فاتر وأحضان أكثر برودة من ثلاجات الموتى في شهر ديسمبر. غادر حياته..

عاد إلى منزله بحي المهندسين مُحَبَطاً وهو الذي كان يشواق لهذه اللحظة فيما مضى حين كانوا يقطنون في منزل حماته ليحتضن ابنه وابنته، فتخرج نوال زوجته الشابة وقتها من المطبخ لتلوم الطفلين على شيء ما. وتتناول بعدها عائلته الصغيرة الطعام على السفرة مع حماته صاحبة المنزل. وقتها

كانت للذكريات نفسها شذى الإرهاق وصوت الضحكات المختلط برائحة الأطباق التي يتبارى كل من الأم والجدة في إعدادها طوال اليوم للأب والطفلين.

على تلك المائدة الضخمة كموائد الطعام التي تجدها غالبًا في البيوت القديمة اعتاد سامي أن يحكي بكل فخر عن كشفه للمؤامرات التي تُحاك ضده في الوزارة خوفًا من ذكائه وصعوده السريع على السلم الوظيفي. وعلى نفس المائدة استمع لمغامرات شريف الطفل في المدرسة وسخرية أخته الصغيرة منه ونهر الجدة للبت وحكايات زوجته نوال عن تقليد الجارات لتسريحة شعرها.

أولج سامي المفتاح في شقة طالما حلم بها ليستقبله الصمت الذي يغلف المنزل الواسع المقدس بأثاث غالي الثمن بلا أي خدش عدا الصالون الأزرق والذي كسرت ذراع أحد مقاعده. نظر إلى الساعة الذهبية الرخيصة المهداة إليه ورمها داخل فائزة فابتلعتها في جب أمين لن تبرحه أبدًا.

تأمل ساعة الحائط العتيقة والتي اعتاد أن يخرج منها عصفور فيما مضى كل ساعة.

تأمل الساعة التي مات عصفورها في حادث غامض لم يفسره حتى الآن.
تأمل الساعة التي اشتراها بأول مرتب بعد أن ترقى.
ابتاعها وعلقها فرحًا.

نظرة السعادة في عيون شريف وأخته بالعصفور لا توصف.

رأى نفسه بطلاً لابنه ومثلاً أعلى لابنته ورجلاً يعود إلى المنزل محملاً بالهدايا في عيون زوجته.

اعترضت هدى وذكرته أنها صاحبة الدار، ولا بد أن يستأذن منها قبل أن يعلّق الساعة. اعترضت هدى؛ لأن العصفور يوقظها من النوم في منزلها.. في منزلها.

أعاد الساعة إلى كرتونها وقد صمم على أن يبتاع منزلاً سيتصدر عصفورها أحد حوائطه.

سيرك لحماته المنزل ولتهناً هي بحوائطه النظيفة الخالية من المسامير، وليستمع هو بصياح أطفاله على أنغام تغريدات عصفوره. اليوم هو في منزله يتأمل عمره.

لديه ابنة سافرت خارج البلاد مع زوجها وعادت مؤخرًا إليه طالبةً للطلاق، وابن هاجر إلى فيلا استأجرها بأحد المجتمعات المسورة المعروفة باسم الكومباوند بمدينة السادس من أكتوبر.

أما عن زوجته فهو لا يعلم إن كان لا يزال يحبها أم لا. لم يخنها ولم تخنه، ولكنه يرتاح إلى سلبيتها وضعف شخصيتها. ربتها أمها على أن الرجال آلهة تمشي على الأرض، وحين اختارت نوال سامي كإلهها حاولت هدى أن تقنعها بأن هذا ينطبق على الرجال من نفس مستواها إلا أنه سبق السيف العذل.

تخرج وتزوج وأنجب وترقى ودفن والديه وأخواته وخرج إلى المعاش.

المحصلة النهائية لحياته هي جلوسه وحيداً في منزله ليأكل ما تجود به الخادمة الآسيوية والتي يزين ثغرها ابتسامة تتسع بمقدار ما يدفعه لها من راتب شهري بالعملة الصعبة.

أخبرته الخادمة بإنجليزية ركيكة أن مدام نوال - زوجته - في زيارة لوالدها وأن ابنته تزور صديقة لها.

سألته هل يريد أن يتناول الطعام الآن، فhez رأسه موافقاً دون أن ينطق. وبعد دقائق حضر طعام صامت قد تم تسخينه في المايكروويف. مضغ سؤالاً يورقه. ماذا بعد خروجه إلى المعاش؟

- 2 -

تسمّر رجل الدليفري عندما فتحت له باب الفيلا الخارجي، فتاة هي تصوير لخور العين كما وصفها شيخ الزاوية القريبة من منزله.

ناولها الرجل كيساً مملوءاً بالطعام البلاستيكي، فرمت إليه الحساب مضافاً إليه بضعة جنيهات لتتقي بها شر فقره. تسمّر الرجل في مكانه للحظات بعد أن أغلقت الحورية باب الجنة. لمح شجرة جواقة تنبت من الداخل وتتن غصونها من كثرة الخير الذي تحمله. اقتنص الثمرة واغتصبها بأسنانه فسال ماؤها على شفّيته. قذف الجنيهات المعدنية لأعلى وركل حصاة وابتسم.

مشت دينا عبر الحديقة الصغيرة حاملة كيس الطعام لتمر من أمام شريف سامي المنياوي وأكرم الجالسين حول حمام السباحة الصغير الملحق بحديقة

الفيلا. نظر شريف إلى دينا والطعام فاطمأنت بعض غرائزه مؤقتاً. دخلت دينا إلى داخل الفيلا وأغلقت باب الألوميتال الأبيض والذي يفصل بين الحديقة الصغيرة والصالة الداخلية.

سكب شريف نصف زجاجة المايستر ماكس⁽¹⁾ داخل جوفه، وتجشأ بصوت قد يوقظ نصف سكان «الكومباوند»، وهز رأسه مع أغنية أجنبية لا يعرفها تنساب من السماعات. نادى شريف على دينا بصوت عال كأسد يعلن منطقة نفوذه كي تحضر له زجاجة أخرى، واستدار إلى أكرم ذي الشعر المنكوش تراي اللون الذي لا يبتل أبداً قائلاً: «وهي شيري هتفضل مستنيك؟ مشيت من ساعة يا خرونش⁽²⁾».

- طب أنا ها حكيك اللي حصل وانت احكم.

قذف شريف الزجاجة الفارغة داخل حمام السباحة قائلاً «مانفصلنيش يا أكرم بقصصك انت وشيري، يا تسيبو بعض يا تتصاحبوا زي البني آدمين». وقبل أن ينتظر الرد من أكرم بدا وكأن لعبة قذف الزجاجات قد استولت على اهتمام شريف فاتجه إلى ثلاث زجاجات بيرة فارغة ملقاة داخل حوض من الزهور وقذفها إلى داخل حمام السباحة، في حين اتجه أكرم إلى علبة سجائر دينا وأخذ منها لفافة وأشعلها بطريقة تبدو خطراً ثم قال لمضيفه الذي خرج من تحت الماء:

(1) بيرة بنسبة كحول أكثر من ضعف المعدل الطبيعي.

(2) غالباً هي سبة ما.

- شريف! أنا امبارح جيتلكم الفيلا وانا شارب كاسين في تاماري⁽¹⁾
وشربت معاكم من الويسكي في «الجاز كلوب»⁽²⁾ وجيت هنا وانا
متكحمش⁽³⁾.. كويس قوي إني جمعت إنها شيري.

فتح باب الألوميتال ليقطع حديتها خروج دينا إلى الحديقة لتلمع عينا أكرم
وهو يتسم لها ابتسامة مصطنعة، بينما نظر شريف لجسدها في شبع عامل تأجير
الشماسي من أجساد النساء على أحد شواطئ الساحل في آخر أيام الصيف.

- دينا.. اعملي لي أنا وأكرم درينكين.. هتلاقي إزازة الأبسولوت⁽⁴⁾ فاضل
فيها شوية.

قالها من داخل حمام السباحة ليغوص بعدها ويتبعه شعره الفاحم الناعم.
عادت الفتاة إلى الفيلا تتبعها نظرات أكرم الذي ما إن دخل إلى داخل الفيلا
حتى تأكد من إغلاق باب الألوميتال واتجه إليها.

- إنتِ مسافرة إمتى؟

- طيارة الفجر..

- هتوحشيني قوي.

- إيه اللي هيو حشك في بالضبط؟

(1) بار شهر بالقاهرة.

(2) بار شهر بالجيزة.

(3) سكران.

(4) نوع فودكا.

- شريف بيشيل الحشيش. فين؟

- اسأله.

خرجت دينا من الفيلا لتجد أن القلق قد نُجِت على ملامح وجهه شريف الذي وقف في الحديقة مبتلاً بعد خروجه من المسبح؛ فبدأ بجسده المشوق وعضلات بطنه المرسومة كأحد التماثيل الرومانية بعد سقوط الأمطار. أشار إليها بحركة من يده أن تصمت تلك الحركة التي تكرهها، وأنهى المكالمة بكلمات مقتضبة ليندفع بعدها إلى داخل الفيلا ولم يلحظ حتى وجود أكرم الذي يلتهم نصف ساندوتش مجهول المصدر.

دخلت دينا إلى الفيلا وتجاهلت أكرم وصعدت إلى الدور العلوي حيث توجد غرفتا النوم؛ لتجد شريف وقد انزلق برشاقة داخل بنطلون جينز ويبحث عن تي شيرت في كومة من الملابس الملقاة على كرسي ما.

- فين الهدوم النظيفة؟

- التي شيرتات في الدراي كلين.

- وماجيتهاش ليه؟

أخبرته دينا أكثر من مرة أنها تستاء عندما يتحدث إليها بهذه الطريقة. تكره عندما يطرقع بأصابعه كي تناوله كأسه البعيد عن تناول يديه. لم تشأ أن تواجهه اليوم خاصة أنها ستركه هو وعالمه المحشور داخل أسوار الفيلا لتعود للإمارات حيث يعمل والدها ويكد ليجمع ثروة لا تستطيع هي وأمها تبديدها.

- إيه اللي حصل؟ مين اللي كلمك؟

- أبويا طلع على المعاش.

- طب وفيها إيه؟ إنت انتظرت كأنه بعد الشر جراه حاجة.

أمسك بتي شيرت ملقَى على أحد المقاعد وارتداه سريعاً وهو يضع مزيلاً لرائحة العرق عليه من الخارج ممتطيًا صندله إلى خارج الغرفة. أوقفته دينا صارخة فيه أن ينتظر. تسمّر شريف على بداية الدرج ناظرًا إليها بملل.

- مش هتأخر.. اطلبوا أكل على ما آجي.. أنا عازم.... خدي فلوس من درج الكومدينو.

وعندما نزلت دينا إلى الدور الأرضي سمعت صوت موتور سيارة شريف خارج الفيلا. جلست بجوار أكرم عند حمام السباحة الذي تساءل عما حدث. تجاهلت سؤاله واختطفت زجاجة البيرة من يده قائلة:

- شريف بيثيل الحشيش في درج التراييزة اللي جوة.

- 3 -

تسلل إلى شريف شعور غريب عندما فتحت له الخادمة الآسيوية الباب. خطأ خطوتين إلى الداخل ليتسلل إليه شعور غريب بالغريبة في مكان كان يصل ويحول فيه فيما مضى عاري الصدر عالي الصوت يأمر فيطاع.

تركته الخادمة لتبلغ أهل الدار بمجيئه، فتسمّر شريف في مكانه وهو في حيرة بين أن يدخل لتحية والديه في غرفة نومهما، أو أن يذهب إلى

غرفته القديمة، أو أن يتجه إلى الصالون ويقيد قدميه إلى الطاولة الرخامية كالضيوف ثقلاء الظل.

- طب اسأل على أختك أول ما تيجي.

- إيه ده؟ إنت في مصر؟ جوزك المتخلف طلقك ولا لسه؟

سلم على أخته وقبلها على وجنتيها بحكم اشتراكها في اسم عائلة واحد في الأوراق الثبوتية الخاصة بهما. تركت له وجنتيها يقبلها كما ترك باقي الجنيه عند شرائها شيئاً ما ثمنه ثمانية وتسعون قرشاً. أرشدته أخته إلى الصالون الأزرق، وما إن جلس شريف حتى أمسكت بعلبة من الشيكولاتة الخاصة بالضيوف عارضة إياها أمامه فلم ترق له الدعابة، فبصق في وجهها ابتسامة ساخرة قائلاً:

- مش كل ماتشوفيني تستخفي دمك؟ هتعزميني في بيتنا؟

- كل ماتشوفيني؟! شريف! إنت آخر مرة شفتني كان إمتي؟ إنت

ماحضرتش فرحي يا زبالة.

- كنت مسافر برة مصر.

- ناس شافوك يوم فرحي في الجونة.

عيون سمكة بوري سنجاري كانت ستحمل مشاعر ومعاني أعمق من

تلك النظرة الباهتة التي حدج بها شريف أخته وهو يهز كتفيه بمعنى أنه لا

يكثرث بها قالته.

ظلت أخته تنظر إليه بنظرات هي خليط من الشفقة بنكهة الشجاعة والاشمئزاز والإحباط.

هي تراه شاباً فاشلاً ومدللاً لم يحضر حفل زفافها، ولكنه هرع إلى هنا بعد أقل من ساعة بعد علمه بخروج والده إلى المعاش.

هي على يقين أن الخوف على مصالحه الخاصة ومستقبل الصفقات ما بين شركته وبين والدهما هو ما جاء به إلى منزل لم يخطُ فيه خطوة منذ سنوات.

لقد فضّل والداها وجدتها المولود الذكر الأول عليها كما هي عادة المصريين منذ فجر التاريخ. لم تكن ذات جمال صارخ أو عقل نابه. لا يمكن وصفها بثقيلة الظل أو خفيفة الدم. كانت عادية؛ لذا كان يشار إليها دومًا كأخت شريف.

أما شريف فلم يكن يهتم أصلاً بنظرات الشجاعة الموجهة من أخته إليه. كان يفكر في صفقة توريد الأدوية والمستحضرات الطبية لمستشفيات الواحات. لقد تحدّد موعد فتح مظاريف العروض الفنية والمالية بعد أسبوع. ترى ما الذي سيترتب عليه خروج والده على المعاش وهو الوسيط ما بين الحكومة والشركة؟

تساءل شريف للحظة إن كان هناك مغزى من إصرار أخته على أن يجلسا معاً في الصالون الأزرق بالذات. لو لم يكن يثق في أنها ورثت سذاجة وبساطة والدتها، لظن أنها تعمدت أن يجلس على المقعد ذي المسند المكسور، ذاك المقعد الذي يحمل علامة اللحم بالغراء في موضع الكسر. الجروح على الأثاث كالندوب على الوجوه تخلد حادثة ما.

جاءت نوال واستنكرت جلوس ابنها في الصالون كالأغراب، ولا مت الأخت على كل شيء كالعادة. كتبت الابنة اعتراضها، فهي تعلم أنه لا يمكن في نظرها أن يخطئ شريف مهما حدث.

أخته لم تجره إلى الصالون كي تشعره بالغرابة. هي تشعر أنها ضيفة. عادت من لندن لتتقنع أهلها بطلبها للانفصال عن زوجها. رفضت العائلة إنهاء زيجة لا يمكن أن ترفضها فتاة عاقلة كما يقولون، وما أكثرهم وما أقوامهم وما أضعف حججهم.

قام شريف من مكانه واحتضن أمه بنفس الدفء الذي يحتضن به ديلر الحشيش في «أول ويك إند» في الساحل الشمالي؛ فهو يحب والدته حقًا. جلس الجميع امتثالاً لأوامر الأم في الصلاة التي لا تبعد عن الصالون الأزرق سوى أمتار قليلة، ولا يفصل بينهما أي فاصل سوى بروز صغيرة من العمود الملصق بالحائط.

مرت دقائق كثيرة لا مفر منها في محاولات عبثية لبدء أي حديث ما بين الأم وولديها أعقبها صمت ثقيل الظل.

نظر شريف إلى ساعة الحائط المعلقة على الجدار والتي كان يخرج منها عصفور فيما مضى ليعلن الوقت. تذكر حماسه يوم ابتاع والده هذه الساعة حين كانوا في شقة الجيزة. حينها أطلق على هذا العصفور اسمًا لا يذكره الآن.

لم يستوعب شريف - الطفل وقتها - أن الساعة كانت رمزًا للصراع القوى الجديد بين جدته ووالده الذي تحسن وضعه المادي بعد أن ترقى وأراد أن يضع لمسات لعله يشعر أنه بيته.

وحين انتقلت العائلة إلى هذا المنزل ظل العصفور يؤدي عمله بحرية دون خوف من لوم اللائمين. حتى كان اليوم الذي انتهز فيه شريف المراهق فرصة سفر والديه لمدة يومين فدعا أصدقاءه من مدرسة الأورمان التجريبية مدرسته في ذلك الوقت - إلى منزله الجديد ليتباهى به أمامهم.

هددته أخته يومها بأنها ستخبر والديها، إلا أن شريف أخبرها بأنه رجل البيت الآن وعليها سماع كلامه. بكت الأخت في غرفتها التي حُبست فيها. وفي الخارج أقنع أحد الصبية شريف باختلاس بعض الكئوس من زجاجات الخمر الخاصة بوالده.

اعترض في بادئ الأمر، ولكنه اقتنع تحت إلحاح الأصدقاء وهرمون التستسترون الذي لم يكن قد اكتسب حكمة السيطرة عليه. بدأ هو وأصداؤه في هتك عرض إحدى زجاجات الويسكي الفاخر الخاصة بالحاج سامي المنياوي. وبعد عدة كئوس لعبت الخمر برءوس الجميع وخرجوا من غرفة المكتب - حيث الزجاجات - ليجلسوا في الصالون الأزرق. وما هي إلا دقائق حتى خرج العصفور من داخل الساعة ليعلن عن الساعة بتسع صيحات. هنا تحدهم أحدهم بأن يقوم باصطياده. صعد شريف - المخمور تمامًا - فوق مقعد الصالون الأوبيسون الذي كانت تمنعه والدته حتى من الجلوس عليه لأنه مخصص للضيوف. وما إن وصلت يده إلى باب العصفور حتى تهشمت يد الكرسي عندما تسلقها، فسقط هو والساعة على الأرض وسط ضحكات أصحابه. أفاق شريف وهو يرى ما جنته يده حتى وصلت إلى مسامعه صرخات أخته التي اقتحم أحد الأصدقاء غرفتها.

صحيح أنه لم يتم الاعتداء عليها، ولكن يومها اكتشف أن من كان يعتبرهم أقرب أصدقائه كانوا يسخرون منه ويلقبونه «الفرفور بتاع المهندسين».

رغم أنه قد تم احتواء الموقف فإن العلاقة بين شريف وأخته لم تعد كما كانت. الشعور المرير بالعجز وإن كان للحظات اختلط بشعور أشد مرارة بالخيانة. لم تكن خيانة صديقه هي المعنية، بل خيانة ذكائه له. كان يعتبر نفسه الأذكى بين أقرانه، فلم يستطع استيعاب أن هناك من قام بخداعه. ربما لم يستوعب هذا الأمر حتى الآن. ومن يومها وهو يكره هذه النظرة في عيني أخته. تلك العيون التي رأته ضعيفاً عاجزاً والجميع يسخرون منه. تم إصلاح المقعد والساعة، ولكن العصفور كان قد نفق متحطماً.

- مين بيطبخ لك في الفيلا يا حبيبي؟

أفاقته كلمات نوال من الاسترسال في ذكريات هذا اليوم المشؤم، واسترق شريف النظر ليد المقعد التي تمت إعادة لحامها بالغراء. سرح في تلك الندبة التي تسبب فيها في ذلك اليوم ليجد أن أخته تنظر ليد المقعد هي الأخرى.

لثوانٍ تلاقى أعينهما.

لقد تذكر ما حدث في ذلك اليوم، وقبل أن يشيحا بأعينهما عن بعضهما البعض - كما اعتادا من وقتها - انقطع التيار الكهربائي ليرتطم الجميع في ذلك الحائط الأسود. سبوا الحكومة كطقس اجتماعي مقبول في هذه المناسبة، وانضم إليهم سامي الذي اضطر لإنهاء المكالمة بعد أن فارق تليفون المنزل اللاسلكي الحياة.

على ضوء الكشافات والشموع التي أحضرتها الخادمة الآسيوية تحدثت العائلة في أمور أقل حميمية من تلك التي تتناقش فيها مع غريب في عربة البوفيه بالقطار.

في الظلام - وحيث لا يوجد تلفاز يقوم بعمل المزلق الاجتماعي بين أفراد العائلة - احتكوا باغترابهم عن بعض حتى وإن سجتهم نفس الحوائط.

مد موبايل شريف طوق النجاة له لينشغل بمتابعة تعليقات الأصدقاء على صورة شيري وهي نائمة في البار بعد أن أفرطت في الشراب ليلة أمس وبجوارها أكرم يصدر إشارات بذئته بيديه. سرعان ما حذت الأخت حذوه وهي ترد على صديقها القديم الذي كان يشجعها طوال الفترة السابقة على أن تطلب الطلاق.

أما الأب والأم فلقد انشغلا بالحديث عن الخادمة ومشاكلها مع زوجها وعن فرحتها لسفر ابنها إلى أمريكا ليعمل هناك بائعًا في محل لقريب لها.

عشر دقائق فقط من الظلام فضحت الروابط الهشة لهذه العائلة. عشر دقائق كانت كافية لإرباك الوالد الذي لم يفهم لماذا لا يطيق ابنه أن يُجري معه حوارًا يمتد لبضع دقائق في أمور لا تتعلق بالعمل، رغم أنه كان يومًا ما طفلًا يتبعه في كل مكان في المنزل، ولا يقبل أن ينشغل عنه للحظات يقرأ فيها الجريدة أو يتابع مباراة لكرة القدم.

هل أفسدت نوال ابنها بتدليله؟ هل كان يجب أن يعترض على بعض القرارات، ومنها تغيير المدرسة التجريبية إلى أخرى أجنبية بعد أن انتقلوا من منزل حماته إلى منزله بحي المهندسين؟

كان سامي على يقين أن التحاق ابنه بتلك المدرسة قد أفسده تمامًا. في قرارة نفسه يحمد الله على إصراره على التحاق شريف بكلية الصيدلة أو الطب واعتراضه بشدة على التحاقه بالجامعة الأمريكية، وإلا كان - من وجهة نظره - سيفقد ابنه تمامًا.

شرد سامي للحظات في ضوء الشمعة المتراقص ونظر ليلمح عائلته في الظلام.. هل يعامله ابنه بجفاء حتى اليوم بسبب إجباره على هذه الكلية؟ أم بسبب تركهم منزل الجدة والتي كان شريف مرتبطاً بها بشدة؟ هز سامي رأسه نفيًا وكأنه يؤكد لنفسه خطأ هذا التصور؛ فشريف بعد انتقاله إلى المنزل الجديد ومن بعدها إلى فيلته بالسادس من أكتوبر لم يزر جدته إلا فيما ندر.

- إنت طلعت معاش ليه؟

انتهدكت كلمات شريف الصمت فانشغلت الأم بالنظر إلى الشموع وتصنعت الأخت عدم الاهتمام. وضع الأب ساقاً فوق الأخرى وهو يمد يده إلى طبق من المكسرات موضوع على المائدة..

- حاولت يمدوا لي بس فيه ناس من مصلحتها إني أمشي... طمني عليك يا شريف.. حد عندك في الشغل قال لك حاجة؟.. ما تجيبوا حاجة ياكلها.. الواد خاسس.

- النهارده مارحتش الشغل، كنت في ميتينج⁽¹⁾ برة..

(1) اجتماع: meeting.

- تصدق إن الناس عندك في الشركة كانوا عارفين إني هاطلع معاش من
هل أنا ما اعرف... المهم إنت تبتي تروح الشغل كل يوم وتعامل مديرك
أويس. بلاش القنطرة عليه... ما حدش عارف بعد ما طلعت على المعاش
هيعاملوك ازاي.

-- وانت عرفت منين أنا باعامله ازاي؟

صمت الأب للحظات كي يزن كلامه في محاولة لتجنب الصدام المعتاد
بعد أي نقاش بينهما.

- زي ما ليهم عيون عندي أنا كمان ليًا عيون عندكم.. بس هُم همهم على
الشغل وأنا عيوني بظمن بيها على ابني.

- ما تخافش... ما يقدروش يستغنوا عني..

- لأ يقدروا. إنت دلوقتي مالكش ضهر..

- أنا مسنود على شغلي مش على حد.. ما تقلقش انت.

- فاكر آخر كلمة قلتها لي قبل ما يرفدوك من البحرين؟ ما تقلقش يا بابا..

- أنا ما اترفتش... إنت اللي بعنتي لناس أغيبا ومديري الهندي ده كان

حمار.

- مديرك اللي بتقول عليه حمار ده، كان ماسك أهم أربع أدوية في ست

دول لوحده.. إنت اللي متدلج وما استحملتش تصحى بدري شهرين.. إنت

اللي ما تقدرش تعيش من غير «بابا الحقني وكلم لي حد يزبطني».

قام شريف متفصلاً فخرج رأسه من دائرة ضوء الشموع، فبدا صوته من وراء ساتر الظلام مقبضاً تخشى الجدران أن تردد صدى كلماته وهو يقول ببطء:

- أنا ماشي.. أنا غلطان إني جيت لك.

قالها واتجه بالفعل ناحية الباب، فقام الأب واقفاً ليخرج رأسه بدوره من دائرة أضواء الشموع والشرر المتطاير من عينيه يكاد يفتك بحرم الظلام ليهدر صوته صارخاً:

- غور في ستين داهية.

حاولت الأم أن تنهي النقاش إلا أن سامي - رغم الظلام - أسكتها بنظرة من عينيه أخرستها. قامت الأخت لتلحق بأخيها كي لا يترك المنزل وهو بهذه الحالة. لم تستطع الابنة أن تستمر في تصنع اللامبالاة، فقامت لتلحق بأخيها فهي تعلم أنه لن يستطيع الصمود في الحياة يوماً واحداً دون والده. رغم أنها تصغره بعامين فإن الحياة في الغربية ومع زوج لا تحبه قد جعلتها تنضج أسرع من أخيها بعدما رأت كيف يمكن للبشر أن يكونوا منعدمي الضمير كزوجها.

أسكته من ذراعه، إلا أنه دفعها لتسقط على الأرض وهي تتأوه من شدة الحزن. اتجهت الأم إلى ابنها - تاركة ابنتها على الأرض - وهي تنهه وكأنها تتحدث إلى طفل صغير «تؤ.. تؤ.. تؤ.. عيب كده يا حبيبي.. ما حدش يضرب اخته كده».

اندفع الأب ناحية ابنته ليساعدها على النهوض، وهدج شريف بنظرة
أضفى إليها الظلام وتراقص ضوء الشموع مهابةً، متقدمًا ببطء ناحية ابنه
الذي لم ير والده بهذه الحالة من قبل.

لقد سكت سامي كثيرًا والليله أيقن أنه قد سكت زيادة عن اللزوم. هذه
هي النتيجة الحتمية لعدم تحمل ابنه لأي مسئولية، وتفنن أمه وجدته وكل
من حوله في تدليله وإلقاء اللوم في فشله في أي شيء على الآخرين والظروف.
صفع سامي شريف..

صفع سنوات سكوته على طريق تربيته..

خرج مع الصفعة طوفان المشاعر الحبيسة التي شرخت تصرفات شريف
الوقحة، سدود الصبر عند سامي الذي صرخ في ابنه والرذاذ يتناثر من شفثيه
من الانفعال:

- بتضرب اختك يا فاشل، وانتي رايحة تطبطني عليه؟ امشِ اطلع بره
وماشوفكش تاني.. إنت ماسألتش عليّ لما عملت دعامة في القلب ولا جيت
فرح اختك علشان تتفسح مع الصيع بتوعك.. إنت عارف إن امك شالت
الرحم من سنه؟ إنت جيت النهارده لما قلقت على شغلك.. امشِ اطلع بره.
حاولت الأم أن تتدخل، إلا أن سامي صرخ فيها أن تصمت فتراجعت
إلى الوراء. دفع سامي شريف - الذي تسمر في مكانه من الصدمة - إلى
خارج المنزل، وصفق الباب تاركًا ابنه وحده خارج الشقة في الظلام. وقف
شريف في مكانه لدقيقة كاملة قبل أن يدرك أنه يبكي.

- 4 -

عندما عاد شريف إلى الفيلا وجد أن أكرم قد رحل ودينا قد ارتدت بنظوننا كتانياً أبيض. قبلها شريف بألية واتجه إلى الثلاثة باحثاً عن ذاته، ثم أغلقها بعد أن اقتنص قطعة بيتزا مجمدة. أخرج أدوات الحشيش من درج المائدة ليعلن بداية فترة المساء والسهرة.

- ها وحشك يا شريف؟

لم يرد عليها وانتهى من لف السيجارة وأشعلها فاختطفتها من يده ووضعت إياها داخل فمها من الجهة المشتعلة، ونفثت الدخان ليستنشقه شريف منها ويعود برأسه إلى الوراء هارثاً بيديه على جمجمته ربما ليوظ المستقبلات العصبية (receptors) في المخ لتستقبل ما تجود به الطبيعة على الإنسان الذي يستطيع دفع ثمن المخدرات الجيدة. انتهت لوجود علامات على وجنتيه وأن عينيه حمراوان. اعتدلت في جلستها ولمست علامات الصفع فلم يحرك شريف ساكناً.

- باباك مكتتب؟

-

- هياثر على شغلك؟

- ليه بتقولي كده؟

لم تشأ أن تخوض أكثر في مستنقع الحديث عن والده، رغم أنها متأكدة أن هناك شيئاً جليلاً قد حدث. تأملت الصالة لآخر مرة وهي تدرك أنها لن تعود إليها مرة أخرى.

قامت من مكانها بعد أن أعطت الجوينت لصاحبه، وصعدت لتستكمل اعداد حقائبها؛ فطائرتها ستقلع بعد خمس ساعات من الآن. شغلها سؤال من الفتاة التي سيصاحبها شريف بعد أن تعود إلى الإمارات. كانت تخمن أنها ستكون رانيا بعدما رأت العديد من اللايكات والتعليقات المتبادلة بينهما على الفيسبوك.

بدأت في تحضير حقيبة وداعها، ومع كل قطعة ملابس تخرجها من الدولاب وتضعها في حقيبتها تشعر بالاغتراب أكثر وأكثر. نفس الشعور الذي ينتاب المرء عند تركه لغرفة الفندق التي كانت لفترة - طالت أو قصرت - وطناً ومنزلاً. عند تركنا لغرفة الفندق تبدو الأشياء أصغر والغرفة أكبر والفرش أبرد.

وبعد أن انتهت من انتزاع أغراضها من الغرفة التي شاركتها شريف، خلعت قرطبيها ووضعتها في أحد الأدراج كتذكارة موجهة للأنثى التي ستحل محلها. رسالة مفادها: «لقد كنت هنا قبلك، وغداً ستأتي أخرى»..

خرجت دينا من الفيلا واتجهت إلى ليموزين طلبتها من المطار لأنها تعلم أن دورها قد انتهى، وشريف سيتحجج بألف حجة كي لا يوصلها. شتان ما بين الحماس حين يصل الطعام ونحن جوعى، وبين الشعور بعبء تنظيف الأطباق بعد الشبع.

وداع مزيف وقُبلة مفتعلة لتركب دينا السيارة ويغلق شريف بعدها باب الفيلا الخارجي ومعه صفحة دينا. خلع ملابسه تماماً وقفز إلى حمام السباحة محاولاً إغراق ما حدث اليوم.

وفي ماء حمام السباحة البارد شعر بآلام الصفعة وأدرك خطورة اللحظة. وبعد حوالي ساعة جاءت المكالمة التي كان ينتظرها من والدته. نظر إلى التليفون بانتصار وتشفّ غير مبرر قبل أن يرد على المكالمة فأناه صوت أمه متهدجاً فكاد يتحطم الحاجز الجليدي، فاختلج قلبه من صوت الأم، وداهمه شعور أن والده قد يكون قد أصابه مكروه. راعته الفكرة ولكنه حاول التماسك إلا أن نبرة الأم كان فيها من اللوم ما أراح ضميره لما فعله. هو شخصياً لا يعلم لماذا يعامل أهله بهذه الطريقة. لامته الأم كثيراً فلم يرد، وعندما أخبرته أجبها بأنه لن يعتذر لأحد، وطلب منها أن توصل لأخته رسالة مفادها ألا تتحدث معه مرة أخرى.

أخبرته الأم - بتماسك لم يعتده منها - بأن أمامه أسبوعاً ليعتذر فيه لوالده أو سيكون هناك تصرف آخر معه. جاء التهديد الأخير لضميره كالهيروين للملدمن.

لقد ارتاح.

هم البادئون.

نام ضميره في غرفة داخلية مكتوب على بابها «أنا الضحية، نرجو عدم الإزعاج». وأنهى الاتصال مع أمه وقد استرد جزءاً كبيراً من ثقته بنفسه. لقد قضى ساعات يعذبه ضميره فيرشييه بالخمور والحشيش، أما بعد هذه المكالمة فهو يستطيع تكيف القضية برمتها على أنه هو المجني عليه. تمشى إلى البار ورشف من زجاجة ويسكي مباشرة وزأ بعدها في سعادة أسد يستعد للبيوة جديدة.

مضى يومان وشريف وحده في الفيلا لا يبرح الأريكة. يقضي جُل وقته عليها يشاهد التلفاز أو يلعب على جهاز البلاي ستيشن ويأكل ويسكر ويحشش في مكانه، ولا ينقصه سوى أن يتبول ويتبرز في مكانه كي ينعم براحة الخلود والأبدية.

مضى يومان وهو يقاوم فكرة أن عليه الآن الانتظام في الذهاب إلى العمل. داهمه خاطر أفزعه عن مصيره في حالة فصله من العمل. طرد الفكرة سريعاً وهو يؤكد لنفسه أنهم لا يستطيعون الاستغناء عنه.

سمع صوت الجرس يدق، فتح الباب ليجد آخر شخص يتوقعه في هذه الدنيا.

أخته.

لشوان لم يفهم كيف يجب أن يكون رد فعله. وفي الصالة جلسا معاً. تأملت المكان من حولها ولم تتعرف على الحائط. فهذا بوستر لم تنتقه معه كما كانت عاداتها وهما طفلان. وذاك سيف لم تعرف من أي بلد أتى به. لقد افترقا وصار شريف يسافر بدونها إلى بلاد وعندما يعود لا يحكي لها عنها. لم يعد يطلب منها النصيحة عند تعرفه إلى فتاة جديدة. بهدوء أخذت من أمامه سيجارة وأشعلتها وقد قررت أن تتعرف أخيراً بأنها تدخن. نفثت دخان سيجارتها وقالت:

- أنا لا ماما ولا بابا عارفين إني جايه لك، أنا مش عايزه ارجع لندن يا شريف.. أنا متجوزه واحد معفن.

- معفن يعني بخيل ولا مايستحاش؟

- بليز متخلينيش ادخل في details

حكمت له أنها عادت إلى مصر منذ أسبوعين وأخبرت والديها بأن الحياة مع هذا الرجل أصبحت لا تطاق. شكت له من عدم تفهم نوال والديها وعدم اكتراث سامي وهو يعزو الأمر برمته إلى «دلع البنات».

أخبرته عن الاجتماع العائلي الطارئ الذي انعقد في منزل نجوى عمه والديها وبحضور هدى جدتها.

شريف لم يستطع إنقاذ أخته يوم عصفور الساعة.

شريف لم يستطع إنقاذ أخته والوقوف بجوارها حين رفضت العريس.

شريف لن يلوم نفسه بل لام الفتاة لأنها رضخت أخيراً للعائلة والزوج المنتمي للسلك الدبلوماسي بكل ما له من امتيازات.

شريف هرب من حفل زفافها وتلك الفرحة الصناعية لعائلته وعائلة العريس.

شريف لم يحضر ذلك الحفل الذي بدأ بترديد الساعات لأسماء الله الحسنی بصوت هشام عباس ووزعت بعدها قنينات ماء زمزم لتراق بعدها أجود أنواع الخمور.

فضّل أن يلهو في الجونة مع شلة هو زعيمها ليضع قواعد لا يجترمها مع فتيات وشباب في عالم خاص قبل أن يساق أحدهم أو إحداهن إلى حفل زفاف يبدأ بترديد أسماء الله الحسنی لتراق من بعده الخمور.

نظر شريف إلى أخته وهو يعلم أنه لن يستطيع إنقاذها الآن أو حتى بعد حين.
الحقيقة الآن هي أنه لا يملك مصيره ولا يستطيع حتى إنقاذ نفسه، وما
سلوكه المتمرد سوى محاولة يائسة للصراخ بعجزه.
لم تُجدِ الكلمات.

جلسا متجاورين صامتين حتى أزعجها ذلك السكون الذي لم يفض إلى شيء.
تركته وهي تتحسس تذكرة طائرتها وسيلة مواصلاتها لآيامها القادمة
المحتومة. عليها ألا تفكر في أن يساعدها أحد وأن تتقبل عالمها الجديد أو
تترك دنياها، أو لعل تحدث المعجزة، ولكن زمن المعجزات قد ولى. غادرت
الفيلا تاركة أخاها يجلس وسط خرائب عالمه.

- 6 -

بعد يومين من لقاء شريف بأخته عادت نوال إلى المنزل بعد أن ودعت
ابنتها إلى المطار وهي تشعر أن الأمور ستعود إلى مجاريها قريباً. بالنسبة لها
كان الأسبوع الماضي أسبوعاً صعباً للغاية. ابنتها ترغب في الانفصال عن
زوجها، وابنها الوحيد تشاجر مع أبيه، وزوجها خرج على المعاش وكان
حياتها المستقرة قد قامت بثورة مفاجئة عليها.

جلست نوال على مقعدها المفضل في غرفة المعيشة لتجد رجلاً يابانياً في
منتصف الخمسينيات يغادر غرفة مكتب سامي وحيّاه قبل أن يتجه إلى باب
الشقة يتبعه زوجها.

- مين ده يا سامي؟

- ده هورانشي ياكو.

حاولت أن تستفسر إلا أنها تراجعت عندما استشعرت الخطر من تكرار سؤالها؛ فزوجها يمر بظروف دقيقة للغاية، فاليوم هو الأول له وهو على المعاش.

لا يعلم سامي كم مر من الوقت حتى انتبه إلى أنه يشاهد برنامجًا عن جهود المسئولين بوزارة التموين في تحسين منظومة الخبز بقويسنا. حول القناة على فيلم قديم لإسماعيل يس ليسرح بخياله في خطته البسيطة التي تأخرت كثيرًا. لا ينكر أنه هو أيضًا له نصيب في إفساد ابنه. هل كانت الوظيفة والراتب الضخم لشريف رشوة غير مباشرة إليه هو شخصيًا؟

ينفي سامي ذلك الموضوع بشدة بينه وبين نفسه. لم يرتش أو يعط لابنه أسرار المنافسين لشركته، فكل ما سبق جرائم يُعاقب عليها القانون. الموضوع ببساطة أنه بحكم عمله في الوزارة كان يعلم ما هي المادة الفعالة في الأدوية والعقاقير الطبية التي تنتجها كل شركة متقدمة للمناقصة والمواد الفعالة المطلوب توريدها للمستشفيات الحكومية. فكان يشترط في المواصفات الفنية وجود المادة التي تنتجها الشركة التي يعمل بها ابنه. فكان من الطبيعي ألا تفوز أي من الشركات المنافسة بالمناقصة مهما كان عرضها المالي.

لا يعتبر سامي أن هذا نوع من التلاعب وإنما هذه هي قواعد بيزنس الدواء في مصر. فالتلاعب - كما يقول لنفسه - يحدث عندما يتأذى أحد الأشخاص. وأين هذا الأذى بينما المريض يستفيد من دواء بمواصفات عالمية، وشركة ابنه

نبيع وتربح، وتقل نسبة الوفيات في المستشفيات الحكومية؟ أما عن الهدايا والسفريات لأوروبا المدفوعة بالكامل فهو لم يشترطها على الشركات، كما أنه عرف ما بين أطباء مصر وشركات الدواء.

وفي كثير من الأحيان كان يستبعد شركة ابنه عن عمد ليفسح المجال لشركة أخرى كي تفوز بالمناقصة فلا يغضب أحدًا، مكتسبًا عبر السنوات سمعة لا يمكن أن يفرط فيها أبدًا، إنه رجل حقاني ودوغري.

انتفض فجأة من مكانه وأمر نوال أن تجهز كل شيء حتى لا يضيع الوقت. حاولت أن تناقش سامي أن ما يريد أن يفعله قاس بعض الشيء، إلا أن نظرة واحدة منه جعلتها تبتلع كلامها. لا مفر من تنفيذ ما يريده سامي، ولكن عليها أن تفهم أولاً من هو الرجل الياباني الذي كان يزورهما في الصباح الباكر.

- 7 -

ترن الملايين من أجراس المنبهات يوميًا لتعلن لعبيد العصر الحديث أن سبارتكوس قد مات وأنه قد حان موعد الذهاب إلى مقر أسيادهم وإلا فسيجلدون بسياط ضعفهم أمام الـ «life style» وديون بطاقتهم الائتمانية. طلب شريف الغفو من المنبه ولمدة خمس دقائق فقط فلبى الأخير طلبه وعقاربه تنهاس فيما بينها أن ترحم عزيز قوم ذل.

قضى في الحمام أضعاف الوقت الذي يقضيه عادة، وتأنق بشكل مبالغ فيه، وتحاشى النظر إلى انعكاس ظل الموظف الواقف أمامه في المرآة. ارتدى حذاء

جلديًا لأول مرة منذ شهور اعتاد فيها ارتداء الأحذية الخفيفة والصنادل فبدأ له الحذاء كالكرة الحديدية التي يقيد بها المساجين في أفلام الكارتون. حاول أن يتذكر متى كانت آخر مرة ذهب فيها إلى الشركة فلم تسعفه خلايا مخه المشغولة بالبحث عن قوت يومها من الكافيين. وصل أخيرًا إلى مقر الشركة وحاول أن يتذكر وهو في المصعد هل كان مكتبه بالدور الخامس أم السادس؟ وبعد حوالي نصف الساعة كان قد تم فصله من الشركة لأنه ببساطة لم يعد ذا نفع لهم. توعد مديره وهدد زملاءه وقام بركل ماكينة المياه فسقطت وهي تنزف الماء المعدني.

رافقه إلى خارج مقر الشركة رجال الأمن وقام أكبرهم حجمًا بانتزاع مفاتيح سيارة الشركة منه. رماها شريف في وجههم وهو يبصق كلمات حاول أن يداوي بها كرامته.

وقف شريف على الرصيف المقابل للشركة وثلاثة أفراد يفرغون السيارة من أغراضه الشخصية في الشارع. وبعد دقائق كانوا قد وضعوا على الأرض ثلاث زجاجات من الخمر وأربع خراطيش سجائر ومايوه رجاليًا أحمر ومضرب بيسبول ودفتر ورق بفرة ورواية بالإنجليزية لباولو كويلو ما زالت بالسلوفان وكريمًا للوقاية من الشمس وثلاث زجاجات بلاستيكية من المياه نصف مملوءة وجالون مياه زرقاء للردياتير.

شعر وكأن الدنيا تميد به في نفس الوقت الذي تقيأ ميكروباص بعضًا من ركابه على نفس الرصيف لتقترب سيدة مسنة متشحة بالسواد لتمسك

بإحدى زجاجات النيذ المرصودة على الأرض سائلة شريف عن سعر
زجاجة «زيت الزيتون» المستوردة هذه!

وعندما عاد إلى الفيلا ارتقى على الكنبة وهو يحاول استيعاب ما حدث.
بحسبة بسيطة تأكد شريف من أنه لن يستطيع دفع إيجار الفيلا التي يقطن
فيها الآن إلا لمدة شهرين فقط. استشاط غضباً وأرسل «إيميل» إلى مديره
يسبه ويرجوه أن يرسل إليه شيكاً براتبه عن الشهر الحالي بالإضافة إلى
شهرين مكافأة كما ينص العقد.

اتصل بصاحب الفيلا ليخبره بأنه لن يتمكن من تجديد العقد الذي ينتهي
بعد أربعة شهور ويسأله هل من الممكن أن يغادر الفيلا قبل هذه المدة دون أن
يطلبه الرجل بالشرط الجزائي ويعيد إليه مبلغ شهري التأمين؟ وافق الرجل
على الفور وتهللت أساريره، فسمعة الفيلا كادت تصل إلى العالمية من كثرة
ما يمارس فيها من فجور وإزعاج للجيران.

قام بإرسال رسالة على جروب الواتس آب الخاص بالثلة يطلب منهم
أن يستضيفه أحدهم أو إحداهن آخر الشهر الجاري حتى يجد مكاناً آخر.

دخل ليستحم من اليوم وهو يمني نفسه بحصاد دعوات أصدقائه،
ولكنه عاد ليجد موبايله كما تركه. نظر إليه بلوم وتأكد من تغطية شبكة
المحمول أكثر من مرة. وبعد ساعتين وصل إلى مرحلة قبول الأمر الواقع
فاتخذ قراره بأن يتصل بشيري أقرب البشر إليه.

- أنا آسفة يا شريف... أصل انا وأكرم رجعنا لبعض امبارح وهو حالف
على المصحف لو حد بات عندي غيره هيموتني.

- أكرم؟ مصحف؟ ده هو ملحد وانتي مسيحية!!

- بيغير عليّ..

- بيغير عليكى إني أبات عندك في شقتك في الزمالك.. بس عادي إنك

كنتي تباتي عندي باليومين في فيلتي في ستة أكتوبر؟

- مش قلت لك إن أكرم ده يموت في التراب اللي أنا بامشي عليه؟!

قاطعها شريف بعصية: «مش وقتك يا شيري خالص». أدرك أنه قد جرحها ولكن الوقت فعلاً غير مناسب للاستماع لإحدى حلقات المسلسل السخيف «أكرم وشيري» الذي يذاع يومياً على الشلة منذ ثلاث سنوات. وبعد فترة اقتنع بأن الحل الوحيد هو أن يعتذر لوالده. في داخله كانت كرامته تثن من جراحها بعد أن طعنها في مقتل الاحتياج البشري إلى مأوى ولا يلام في ذلك سوى هرم ماسلو للاحتياجات الإنسانية⁽¹⁾ والذي كان

(1) قام إبراهيم ماسلو بترتيب الاحتياجات الإنسانية في شكل هرمي:



يجلس شريف على قمته من الاحتياج إلى التقدير وتحقيق الذات حتى سقط إلى الاحتياج لماوى وقريبًا سيهوي إلى قاع الهرم عندما تنفذ نقوده وسيكون عليه حينها أن يبحث عما يقتات به.

قيل انتهاء الأسبوع الثاني بعد فصله من العمل تحول لشخص عصبي للغاية. اتصل بوالدته كي يستدرجها للاعتذار له ودعوته للعيش بغرفته القديمة، إلا أنه وجد محمولها مغلقًا. قام بقذف محموله بامتداد ذراعيه في الحديقة ليسقط في حوض الصبار.

بدأ الأسبوع الثالث بتعدى شريف بالضرب على الجنائني لأن أحد النباتات قد جف. وقام بشراء.. أول زجاجة ويسكي مصري الصنع.

قضى الأسبوع الأخير في وضع حياته في كراتين والبحث عن أصدقاء أقدم من مرحلة ما بعد تخرجه في الكلية وعودته من البحرين لعل يستضيفه أحدهم أو إحداهن.

أخرج أحشاء ذاكرته وذاكرة المحمول بحثًا عن هذا الصيد الثمين، ولكن كل محاولاته باءت بالفشل. لقد استمع إلى الكثير والكثير من الاعتذارات الواهية والحجج غير المقنعة.

لم يعد هناك مفر من العودة لمنزله بالمهندسين. صحيح أن عودته إلى منزل والده هو اعتراف ضمني بفشله ولكن غدد التبرير أفرزت له حجة أنهم فصلوه من العمل لأنهم يغارون منه وأن هناك مؤامرة عليه من زملائه لأنه أصغر مدير تسويق بالشركة. ابتلع المنطق بمسكنات الكرامة، فبعد غد

عليه أن يترك الفيلا وأثاثه سيكون محملاً على متن سيارة نقل وعليه أن يقول لسائقها عنوناً ما.

نظر شريف إلى عداد التاكسي الذي كان يعلن عن رقم يساوي ثروة صغيرة هي قيمة لمشوار من فيلته إلى المهندسين. دخل العمارة وهو يتساءل بينه وبين نفسه عن سر إغلاق أمه ووالده محموليهما اليوم.

رن جرس الباب. ثوان مرت كالدهر وهو ينتظر فيها لحظة فتح الباب. دموع أم شماته؟ من سيفتح الباب: والده أم والدته؟ اعتذار أم غضب؟

ماذا لو فتح له والده الباب وطرده مرة أخرى؟ حاول أن يطرد هذا الخاطر من عقله حتى فُتح الباب أخيراً بعد رنة الجرس الثانية. كان آخر ما يتوقعه شريف سامي المنياوي أن يفتح له الباب رجل ياباني يدعى هورانشي يako ويعمل في السفارة اليابانية.

- إنت مين؟ إنت قريب الشغالة اللي عندنا؟

- لقد استأجرت هذه الشقة من الدكتور سامي المنياوي.

نظر شريف بدهشة إلى هورانشي ولم يستطع التحدث. وخرج من البناية وهو كالمجذوب. أخذ نفساً عميقاً واتصل بأخته:

- أمي فين؟

- فلورانسا.

- ده كافي في الزمالك؟

- لا! دي مدينة في إيطاليا.

- إحنا هنهزر؟!

- أبوك أخذ فلوس الصيدلية اللي كان ناوي يجيبها لك وطلع الرحلة اللي كان نفسه فيها هو وماما.

- راجعين إمتى؟

- بعد شهر.

- هيقعدوا في إيطاليا شهر؟

- أبوك وأمك هيلفوا العالم يا شريف.

- بس الرجل قال إنه مأجر الشقة سنة.. هيجوا مصر يقعدوا فين؟

- ماعرفش.

أنهى المكالمة وأسقط في يده وشعر بالخوف يلكمه في معدته. اتجه بطريقة غريزية إلى إحدى ماكينات الصراف الآلي ليستعلم عن رصيده. دس بطاقة البنك في رحم الماكينة وهو يربت عليها عسى أن تحمل له أرقامًا رحيمة عن رصيده، ولكنها أخبرته أنه يمتلك من حطام الدنيا - علاوة على محموله وأثاث منزله - مبلغًا يزيد قليلاً على الثلاثين ألف جنيه.

عاد إلى الفيلا ودخل على الفيسبوك يبحث في نهم عن أصدقاء من أيام مدرسته التجريبية. تذكر أحدهم.. كان والداه يعملان في الخليج ويعيش وحده في شقة بالمعادي. أرسل له رسالة على الفيسبوك وهو يتمنى أن ينسى سخريته الدائمة منه وسبه.

أرسل إليه شريف رسالة مرفقة بنمرة تليفونه وهو يتمنى أن يسامحه زميل الدراسة على أنه أول من أطلق عليه لقب «بضانايكا» - تنطق على وزن «جامايكا» - والذي صار لقبه الرسمي حتى بعد تخرجه في المدرسة. وبعد ساعة رد عليه هذا «البضانايكا» على المحمول:

- شريف المنياوي.. إنت فين يا مان؟

- أنا كويس... وحشتني قلت أكلمك..

- سُمعتك وصلت لنا المعادي.. يقولوا إنك خارجها في ستة أكتوبر.

ركز شريف جيدًا أن يناديه باسمه بدلًا من بضانايكا وأخبره أنه سيرك الفيلا التي يستأجرها لأنه قد اشترى فيلا في كومباوند آخر سيتسلمها بعد شهر ولا يريد أن يعود لمنزل والديه بعد أن اعتاد على الحرية وعلى وجود البيرة في الثلاجة.

- يا معلم تيجي تنورني.. هاهاهاه طبعًا إنت وبيرتك.. هاهاهاه

- إنت لسة عايش لوحدك؟

- ولو أهلي جم أطردهم لك يا شريف... هاهاهاهاهاهاه.

- أصيل..

- طلب واحد يا شيكو..

قاوم شريف الرغبة في سب زميله ثقيل الظل وسأله عما يطلب. فصارحه أنه يتمنى رؤية فيلته الأسطورية. وافق شريف على مفضل وقبيل منتصف الليل حضر «بضانايكا» ومعه فتاة فرنسية ممتلئة للغاية.

دخل «بضانايكا» إلى الفيلا وهو يتأملها بانبهار. أشار إلى حمام السباحة وهو
سأل شريف عن عدد الفتيات اللاتي سبحن عرايا فيه. لمس المياه بأصابعه وكأنه
يعددها وهو يتسسم للفرنسية. استأذن شريف في أنه يريد الاختلاء بالفرنسية
في فيلته كي تحل عليه البركة. وافق شريف على مضمض وتركهما في غرفته وهو
يقسم أنه سيقوم بحرق الملاءة فيما بعد في احتفال مهيب.

نزل بعد قليل إلى الدور الأرضي ليجد شريف يقوم بلف سيجارة حشيش..

- إنت لحقت خلصت؟

- شيكو.. عندكش شوية خمرة؟.. على شوية تلج ساقع؟... أخذت
الك من تلج ساقع دي؟.. هاهاهاهاهاها.

أشار شريف إلى الزجاجاة التي أمامه فأخذها الشاب ومعها درج
الثلج. بعد نصف ساعة نزل مرة أخرى ليطلب المزيد من الخمر والطعام
والحشيش، وظل هكذا حتى اقترب الفجر فنزلا معًا ولم يتقص المشهد سوى
أن تزغرط الفرنسية وهي ترمي طشط مياه الاستحمام من البلكونة. وقبل أن
يغادر الزميل مع الباريسية قال:

- عربية النقل تطلع بيها بكرة على شارع 13 في المعادي جنب القسم..
أول ما توصل كلمني أوصف لك البيت.

وفي صباح اليوم التالي حمل أثاث شريف على سيارة نقل وودع الفيلا
وكانه يودع أحد أحبائه إلى مثواه الأخير. وما إن ركب في كابينة سيارة
النقل حتى اعتذر له السائق لأن التباع سيركب هنا وعليه أن يمشي وراءهما
بتاكسي. تذكر أنه قد دفع لسائقي التاكسي في الأيام الماضية مبالغ غير قليلة.

- يعني أعمل إيه؟ أجيب منين تاكسي الساعة دي؟

- خلاص اركب مع حاجتك ورا.. اقعد على كنبتك يا دكتور في صندوق العربية.

صعد شريف إلى صندوق السيارة النقل وهو يتمنى ألا يراه أي من جيرانه أو الجنائني الذي صرخ فيه. وفي صندوق السيارة النقل جلس على كنبته وأمامه مائدته ذات الدرج السري وكأنه في صالة فيلته مرتديًا نظارة شمسية وقبعة ليخفي هويته تمامًا.

وعلى المحور وقبل طلعة الدائري بنصف كيلو شلت حركة المحور تمامًا كما هي العادة. وقفت على يمينه سيارة نقل محملة بأثاث غرفة نوم وفوقها العديد من النساء وفتيات صغيرات يرقصن. ووقفت أمامه سيارة نقل أخرى عليها بوتاجاز ومروحة وسرير مفكوك وعليها رجال وسيدات. وعلى يساره سيارة ثالثة عليها دي جي متنقل وشباب يرقص بهيستريا على أنغام إحدى الأغاني.

استغل الشباب توقف موكب الفرح وبدءوا يرقصون على المحور بين السيارات وقفز أحدهم إلى صندوق سيارة النقل التي يستقلها شريف وأثائه وقام بإلقاء السلام عليه وسط زهول الأخير ليتخطاه عابرًا فوق ساقه حتى يصل إلى سيارة النقل الأخرى المحملة بالمراتب والنساء. قام الشاب بأخذ زجاجة من المياه من سيدة كبيرة سنًا وحجماً متشحة بالسواد. شرب الرجل وتجشأ ومد يده بالزجاجة كي يشرب شريف الذي كان في حالة زهول مما يراه.

هنا قفز رجل أربعيني يرتدي قميصًا أرجوانيًا يلمع تحت أشعة الشمس إلى سيارة شريف ونقر على مائدة الأخير وهو يسأله عن نوعية الخشب. وصلت السيارة أخيرًا إلى المعادي وبعد ساعة من محاولات الاتصال ببضانايكا أيقن شريف أنه إما أن يكون قد قتل وإما قد انتقم لنفسه من سنوات السخرية بطريقة قاسية.

وبعد ساعة أخرى من الانتظار نفذ رصيده من البهوية عند السائق والتباع وبدأ في التندر عليه همسًا في البداية ثم جهرًا ونعته بالتائه. وبدأ عليها التململ والشكوى من العطلة.

وبعد نصف ساعة أخرى أمر السائق التباع بإنزال «عفش الباشا» في الشارع. بعيون دامعة وصديق لا يرد وتهديد السائق جلس شريف على الرصيف لا يعرف ماذا يفعل وأين يذهب.

- 8 -

رن جرس الباب في شقة هدى، فقامت ببطء مقاومة سنوات عمرها التي تقترب بسرعة جنونية من السبعين. فتحت الباب لتجد أمامها أباجورة سماوية اللون تدخل إلى المنزل يحملها تباع السيارة النقل. وضعها الرجل في منتصف الصالة ووقف أمام هدى يتصبب عرقه. لحظات من الصمت ثم أشار إلى فمه أنه يريد أن يشرب. صرخت هدى ففزع التباع وهرب من أمامها، وعلى باب الشقة وجدت حفيدها فاتحًا ذراعيه في الهواء.

- تيتا! أنا جيت.

الفصل الثاني

- 1 -

في عام 1932 ابتاع الدكتور عز الدين الأستاذ بكلية الحقوق قطعة أرض في الجيزة وبما أنه كان أول مبنى يشيد في هذا الشارع فقد سمي الشارع باسمه. لذا كان عنوان العمارة المسجل في دواوين مملكة مصر والسودان «1 شارع عز الدين باشا».

في مدخل العمارة وتحت مستوى الشارع بست درجات تقبع مكتبة المصري منذ أن سُيدت العمارة. تغيرت لافتة مكتبة المصري أكثر من مرة عبر السنوات. عندما استأجر جد سلمى صاحبة المكتبة الحالية كانت اللافتة خشبية ومكتوبة بالخط الديواني؛ كي تتلاءم مع ذوق زبائنه في ذلك الوقت والذين كانوا يقصدون المكتبة لابتیاع الكتب الأجنبية وروایات نجیب محفوظ وآخر الأسطوانات الموسيقية المصرية والعالمية. ألحق بالمكتبة غرفة صغيرة للغاية تستخدم للاستماع للأسطوانات قبل شرائها.

بعد وفاة الجد في أواخر السبعينيات استلم ابنه زمام الأمور، وأراد أن يلحق بركب الحداثة فغير اللافتة إلى أخرى تضاء باللمبات النيون وتغير اسم المكتبة إلى «مكتبة يثرب» واشتهرت المكتبة ببيع كتب التراث وصارت قبلة لكل من يرغب في شراء الكتب المعنونة بـ«المباح في أحكام النكاح» و«رياض الصالحين». وتحولت الغرفة الصغيرة المعدة للاستماع للأسطوانات إلى حمام صغير للغاية يقضي فيه الأب حاجته ويتوضأ كي يلحق بالصلاة في موعدها في الجامع القريب.

ظلت اللافتة كما هي حتى منتصف الثمانينيات وبعد أول زيارة ودية من ملازم أول بأمن الدولة حلق والد سلمى لحيته وتغيرت اللافتة إلى «المصري فيديو فيلم» وتبوتت بوسترات أفلام نادي الجندي صدارة الواجهة واشتهر المكان ببيع أفلام هربت من مقص الرقيب، لما تحتويه من جرعة جنسية مفرطة وظل المكان على حاله حتى داهمته المصنفات الفنية وتم تسميع المكان.

وبعد عدة أشهر وبعض الوسائط والكثير من الرشاوى تم إعادة افتتاح المحل في أوائل التسعينيات مع تغيير اللافتة لتصبح بأكملها مكتوبة باللمبات النيون الحمراء والزرقاء وعليها جملة «بلياردو كالفورنيا». المكان لم يكن يتحمل أكثر من طاولتين للعب ومكان صغير لإعداد المشروبات. كثرت الشكاوى من الجيران وفاض الكيل بمنصور جاد الله أشهر مذيع نشرة أخبار في التلفزيون المصري في وقتها لتدهام شرطة المخدرات المكان بعد أن تحول إلى بؤرة تعاطي البانجو وتم إغلاق المكان.

وبعد وساطة أكبر ورشاوى أكبر وتعهدات بالمشي بجوار وداخل الحائط
مادت المكتبة مرة أخرى ولكن بلافتة «فينيل» عليها رسمة قبيحة ومشوهة
لبكي ماوس ومكتوب عليها «مكتبة المصري» وظل الوضع كما هو عليه
حتى توفي والد ووالدة سلمى وآلت الملكية إلى سلمى التي تقف حاليًا
بمفردها تبيع بعض الجرائد وتوك الشعر وكروت شحن المحمول والكتب
الدراسية الخارجية.

وضع في التصميم الأصلي للعمارة حديقة صغيرة خلفية لتكون متنفسًا
للسكان وبها غرفة صغيرة للبواب وبرجولة صغيرة. راعى المصمم أن يكون
ارتفاع السقف في المدخل الداخلي ذي الأرضية والحوائط الرخامية يتعدى
الأمطار السبعة بفتحات تهوية صغيرة في السقف ليتناسب مع طبيعة مصر
الحارة.

زين سقف هذا المدخل البارد دائماً بنجفة عملاقة بلجيكية الصنع، قطف
كريستالها بمرور السنوات فأصبح منظرها يثير الشفقة وهي مشنوقة من
سقف قدر أقرب إلى محمية طبيعية للعناكب والأبراص.

شيد سلم للطوارئ أو السلم الخدمي أو كما هو معروف بـ«سلم الخدم»
ليستخدم للهروب في حالة الحريق لا قدر الله؛ لذا كان لكل شقة بابان؛
الباب الرئيسي وباب صغير في المطبخ يطل على هذا السلم الخدمي وأمام كل
باب مطبخ وكانت هناك صفيحة للقمامة.

انهار جزء من هذا السلم في الزلزال الذي ضرب مصر عام 1992، فلم
يستطع جامع القمامة أن يجمعها من أمام السلم الخدمي فاضطر السكان

إلى وضع القمامة أمام الأبواب الرئيسية للشقق على الأرضية الرخامية التي كانت يوماً ما بيضاء مصقولة تلمع على ضوء الشمس الآتي من شباك المنور الذي غطى التراب الآن زجاجة المكسور في أكثر من موضع. وبانتقال صفائح القمامة إلى السلم الرئيسي، انتقلت معها القطط والحشرات والفئران. يرتفع المدخل عن الشارع بستة أمتار، يُصعد إليه عن طريق سلم رخامي أبيض اللون تتخلله تعريجات سوداء، قد انحنت درجاته في المنتصف من وطأة خطوات الزمن.

فإن وصلت لأعلى السلم ستجد على يمينك ويسارك فانوسين من الحديد الزهر المطلي باللون الأسود والزجاج البلجيكي الأصفر المصنفر لم يضاء منذ منتصف السبعينيات.

في الطريق إلى المصعد الذي يحتل صدارة المدخل الداخلي ستجد على الجدران من الملصقات ما يذكرك بعذاب القبر وأرقام شركات التخلص من الحشرات ومغسلة المدينة المنورة.

صناديق البريد غير مستخدمة وقد تحطمت أقفال معظمها عدا صندوقين مكتظين بفواتير ومراسلات أحد البنوك وكرات تبشر سكان منطقة الجيزة بافتتاح محل حضر موت الأصلي بقرهم. أما عن المصعد الخشبي العتيق الأشبه بتابوت رأسي متحرك فيوجد كالون بمفتاح على بابه الخارجي يجبرك بالكثير عن علاقة سكان هذا العقار بعضهم ببعض.

وكمعظم بنايات التي سُيدت في هذه الحقبة تميزت العمارة بوجود منور فسيح تطل عليه حمامات ومطابخ الشقق. إن منور أي عمارة هو حقيقة

سكانها بعيدًا عن أي ادعاء حضاري أو تصنع مجتمعي. المنور كالطبيب النفسي الذي يرى الناس على حقيقتهم ويسمع ما لا يستطيعون قوله في العلن، منور العمارة كقسيس الاعتراف الذي يُلقى الجميعُ عنده بقصصهم الروحية وفضلاتهم الإنسانية.

المنور هو الناس.

المنور غير مدعَى كالصالون وغير مريح كغرف النوم.

مع مرور الزمن تحول منور العمارة لفر دوس الفئران وجنة القطط ومنجم لأعقاب السجائر وفتل الشاي المستعملة.

ستستمع في المنور لهمس النائم وأصوات مكتومة لسكان يكتُمون الصرخات خوفًا من الشماتة ويثدّون الضحكات خشية الحسد.

في أوائل الثمانينيات شهد هذا المنور بداية عهد دخول مواتير المياه إلى العمارة ورددت صدى جدرانها أولى الصيحات عندما فتح الأستاذ منصور جاد الله موتور المياه الخاص بشقته قاطعًا المياه عن بقية سكان العقار.

لم ينصرم الشهر حتى اشترى سعيد عز الدين ابن هدى وخال شريف وأخو نوال عز الدين موتور مياه أسوة بجاره، ولكنه أوصى السباك أن يكون مدخل المياه إلى motore قبل مدخل موتور منصور.

وفي زيارتها السنوية في الصيف ابتاعت أميمة التي قضت جل حياتها في الخليج موتورًا أقوى من الموتورين السابقين ولكنها أوصت الكهربائي بأن يسرق وصلة كهرباء أحد الموتورين السابقين حتى لا تتحمل تكاليف

استهلاك الكهرباء. وأصبح صياح الجيران بعضها في بعض طقسًا يوميًا وتحولت جدران المنور لغابة من المواسير والمواتير وأسلاك الكهرباء.

في الدور الأخير من هذا المنور لن تسمع شيئًا من شبابيك أي من الشقتين المرقمتين بالرقمين «سبعة» و«ثمانية». فالشقة رقم سبعة مهجورة منذ السبعينيات وتؤجر حاليًا إيجار اليوم الواحد لأغراض معروفة عن طريق فاطمة زوجة البواب، فإن سمعت شيئًا فهي لن تخرج عن أحاديث عادية بين عاهرة وزبون.

أما إن سمعت شيئًا من شبابيك مطبخ أو حمام الشقة رقم ثمانية المطللة على المنور فاستعد بالله من الشيطان وانطلق مبتعدًا وتجنّب النظر وراءك؛ فالشقة رقم ثمانية مهجورة منذ أن سقط سقف غرفة النوم على أحدهم بسبب زلزال عام 1992 فلقى مصرعه على الفور.

تحت هاتين الشقتين وفي الدور الثالث ستجد شقة يخرج من شبابيكها خيط لا ينتهي من دخان السجائر والحشيش الرديء والبانجو. هنا يسكن منير عبد العال ووالدته في الشقة رقم خمسة وحدهما بعد أن تركها رب الأسرة وفرّ إلى الاتحاد السوفيتي ليتزوج امرأة روسية.

وفي نفس الدور ولكن في الشقة رقم ستة ستشم رائحة أخرى، هي رائحة كي شعر الباروكة بالسشوار، والتي يقطنها الأستاذ منصور جاد الله أول من ركب موتور مياه ومذيع نشرة الأخبار بالقناة الأولى بالتلفزيون المصري، وصوت الدولة فيما مضى.

وإن نزلنا إلى الدور الثاني وتتبَّعنا رائحة الكيك الشهية فهذا قطعاً شباك مطبخ لُبنى أو مس لُبنى كما يطلق عليها السكان. لبنى كانت مدرسة شريف ، اخته سلمى في المدرسة التجريبية. تعيش لبنى الآن وحدها ولم تتزوج قط ، نعم أن سنها تجاوزت الستين.

وفي الشقة المقابلة لها، أي الشقة رقم أربعة، فستسمع أصواتاً هي الحياة مسها. هذه شقة أميمة (التي سرقت كهرباء الموتور) وزوجها محمود وابنها ، زوجته وحفيدتها. ستسمع صرخات وضحكات وسباباً وأدعية دينية . من الشيخ نشأت الضيف الدائم على منزل أميمة. ستسمع صرخات من الطفلتين وضحكات وصخباً وأثاثاً يقع وصوت أحدهم يتألم. ستصل إليك ، انحة المأكولات من المطبخ الذي يعمل على مدار أربع وعشرين ساعة تقريباً . من الخادمة الآسيوية، ولكن للأسف ستختلط في أنفك بروائح كريهة؛ لأننا اقتربنا كثيراً من الدور الأرضي حيث منطقة نفوذ العطن.

فإن وصلنا للدور الأول واقتربنا من شباكي حمام ومطبخ الشقة رقم اثنين المثل على المنور فلن نسمع شيئاً؛ لأن هذه شقة مدام نجوى عز الدين درة عائلة عز الدين وابنة صاحب العمارة عز الدين باشا وأخت زوج هدى، رحمه الله، وعمة والدة شريف. نجوى تعيش وحيدة مع تحفها وأثاثها وذكرياتهما ونقمتها على يوليو 1952.

أما الشقة المقابلة لشقة نجوى فتسكنها منذ أكثر من أربعين عاماً هدى جدة شريف. من هذا الشباك لن نشم رائحة سوى القهوة، ولن نسمع سوى صوت سعال هدى وهمس واهن لإذاعة القرآن الكريم ينساب من راديو

لم يتوقف قط، ولم تتغير محطته في الخمس عشرة عامًا المنصرمة، أي منذ أن انتقلت نوال وزوجها وشريف وأخته من هذا المنزل.

أمام المدخل تقبع «دكة» قديمة كانت في العهود السابقة عرش «حامد» البواب الأول للعمارة حتى توفي فانتقل العرش إلى «بيومي» ابنه وعزيزة زوجته وبعد وفاة بيومي تنازل الابن الأكبر وولي العهد طواعية عن مملكة بوابة العمارة وعاد فلاحًا لكوم حمادة الموطن الأصلي لعائلته وعائلة عز الدين فانتقل العرش بالتبعية إلى الوريث الشرعي محمد «لوتو» الابن الأصغر لبيومي الذي لم يغيره منصب البواب بكل ما به من امتيازات وما عليه من التزامات وفضل أن يكون عاطلاً.

لم تيسر عزيزة في تقويم ابنها الأصغر والأفضل حتى نجحت في أن يتوقف عن تعاطي المخدرات الرخيصة وأصبح مواظبًا على صلواته وبشيء من الإصرار أتقن بعض أعمال السباكة البسيطة ووضع قدميه على أول سلم النجاح.

لاحظت زوجته فاطمة تغييرًا في سلوكه عندما يمتلئ جيبه. حينها فقط يعلو صوته ويطلبها بواجبتها كزوجة في الفراش ويتعمد إهانتها أمام أولادها وهو يحصد نظرات الفخر من عزيزة الشامتة في زوجة ابنها والفخور بفلذة كبدها الذي «يشكم» زوجته. وامتد التغيير في ديمجرافية البدروم بعد نجاح لوتو في السباكة إلى حماتها التي عادت لتتبوأ مكانها كالمملكة الأم للبدروم وصار من حقها انتقاد فاطمة ورائحة أطفالها وطعم طبيخها ومستوى نظافة غسيلها الذي يخرج ابنها لوتو أمام أقرانه.

ويوم أن جلس لوتو على دكة جده انتابت الهواجس فاطمة من أن تستمر
بالح التغيير هذه فتطرح بها من البدروم ويتزوج عليها فتعمدت أن تؤخره
على مواعيد الزبائن بإغرائه بالبقاء في الغرفة عن طريق ارتداء قميص النوم
الوردي إياه تارة أو اختلاق مشادات مع حماها تارة أخرى؛ فيضطر أن
يغيب عن مواعده مع الزبائن للفصل فيما بينهما. فاشتهر أنه فاشل و«مش
عاشغول». فعاد زوجاً مستأنساً مطيعاً يتسول من زوجته المعاش الشهري
الذي تعطيه نجوى لفاطمة نظير أعمال النظافة وحراسة العمارة لأنها لم تكن
اتق في أن يتحمل «لوتو» مسئولية مفاتيح باب العمارة أو حتى قضاء طلبات
السكان من السوبرماركت.

لذلك عندما يمر الآن بجوار الدكة فإنه يشيح بوجهه بعيداً بجوارها
مذكراً لوم أمه لأنه قد أضع ملكاً لم يحافظ عليه كالرجال. حاول لوتو أن
يكسب دخلاً إضافياً من مسح سيارات سكان العمارة والعمارات المجاورة.
حلم بسُلطة كوز الأسمنت والذي يحجز به السُياس والبوابون أماكن لصف
السيارات إلا أن المنافسة الشرسة مع أقرانه وعدم ثقته بنفسه أجهضت حلمه
في رحم الواقع.

هذا هو عالم شريف القديم أو الأقدم والذي عاد إليه رغماً عنه في يوم يعتبره
من أسود أيام حياته. عاد إليه مهزوماً مفصولاً مطروداً وعلى وشك الإفلاس.
رمى أثاثه في أحد أركان الصالة فأصابها بالاختناق، ودخل إلى غرفته القديمة
ابنم فتذكر أنه لا يوجد بها تكييف فتسلل إلى غرفة والديه القديمة ليجد أن
نكيّفها معطل فنام في غرفة خاله، رحمه الله، دون أن يتحدث مع جدته إلا
كلمات قليلة، مفادها أن أهله طردوه من البيت ليلفوا العالم.

القصة التي حكها نوال لأما منذ ساعة على التليفون كانت متشابهة في الأحداث، مختلفة في التفسيرات والدوافع. لم تهتم هدى بالتفاصيل أو الأسباب، لقد استجاب الله لدعائها أخيراً، لم تعد جثة حية تنتظر دفنها. لم تعد في حاجة لأن تضع في سلسلة مفاتيحها مفتاح مدفن العائلة بعد أن علمته بطلاء أظافر باللون الأحمر حتى يتم التعرف عليه بسهولة حين يسترد الله وديعته. بوجود حفيدها معها الآن لم يعد من المجدي أن تطلب من سلمى صاحبة المكتبة بالدور الأرضي أن تمر عليها يومياً حتى تتأكد من أنها على قيد الحياة خاصة أن العلاقة بينها وبين نجوى أخت زوجها - رحمه الله - فائرة إلى حد كبير وتحديدًا منذ وفاة سعيد ابن هدى.

رشت بعضًا من جُوزة الطيب على صينية الدجاج بالبطاطس وأدخلتها في فرن بوتجاز قديم من إنتاج المصانع الحربية فشلت نوال في إقناعها أن تستبدل به هو أو بالسخان القديم أجهزة أحدث. وعلى سطح البوتجاز رقدت كنكة نحاسية في انتظار تلقيمها بالبن اليمني الغامق ونصف ملعقة السكر. رن جرس الباب فانتظرت هدى حتى استوت القهوة ووضعتها بحرفية في الفنجان واتجهت للصالة حاملة فنجان القهوة قائلة بصوت عال نسيًا «جاية يا سلمى حاضر.. ماترنيش تاني لاتبوظي وش القهوة».

فتحت الباب لتجد أمامها فتاة خمرية متوسطة الطول ممشوقة القوام في منتصف العشرينات ترتدي بنطلون جينز وحذاء رياضياً وقميص كاروهات ونظارة طبية تزيد ابتسامه عينيها جاذبية. تلك الفتاة لم تكن سوى سلمى صاحبة مكتبة المصري. لثمت الأخيرة خدي هدى التي قالت والفتاة تخطو بحذر داخل الشقة:

- مادام ما فتحتيش الباب بمفتاحك ودخلتي على طول تبقي عرفتي إنه

.هـ

جلستا معًا في الشرفة الواسعة المطلة على مدخل العمارة. وضعت هدى الفنجان كعادتها على السور، تتأمل الشارع من خلال الحديد المزخرف الذي جرهه لأنه يشعرها أنها في سجن أو كما قالت لسلمي يومًا ما إنها تشعر أنها مروضه في حديقة الحيوان.

رشت هدى الرشفة الأخيرة من فنجانها وقلبت في الطبق الصغير كعادتها، تبادلتا نفس الكلمات ونفس الحديث. تتظاهران أحيانًا بأنها تقولان شيئًا جديدًا، رغم أن فيما بينهما الهوة الجيلية والفروق الطبقيّة فإن الملل والرتابة والخوف قد جمعت بينهما.

هدى وسلمي لا طموح ولا تطلعات لديهما. هدى تدرك سننها وسلمي يعرف قدرها جيدًا. هدى لا يطمع فيها أحد الآن، وسلمي تخشى زوجها بطمع في مكتبتها.

لم تصل أحاديثهما إلى شريف الذي كان يتقلب في سريره خاله رحمه الله وقد أسلم أذنيه طواعية لهدير التكييف العجوز الذي يجاهد أن يقوم بعمله حتى لا يُجَال إلى التقاعد. نظر إلى يمينه ليجد تليفون خاله الخاص، والذي قام بإدخاله عن طريق الوساطة؛ لأنه في ذلك الوقت كان ممنوعًا على المنزل الواحد اقتناء أكثر من خط تليفون واحد. رفع الساعة التي كان ممنوعًا عليه فديًا مجرد لمسها واستمع لصوت الحرارة الرتيب.

حاول أن يستدعي من صوتها الأحاديث الهامسة بين خاله وصديقاته عندما كان يتركه في الغرفة ويتجه هو إلى الشرفة عند سخونة المكالمة حاملاً التليفون الذي قام بإطالة سلكه.

من خلال فتحات هذا الشيش تلصص وهو شبه مراهق على كلام الكبار وديناهم ومكالماتهم العاطفية. في هذه الغرفة عرفه خاله على كتب أنيس منصور وأغاني عبد الحليم وأشعار صلاح جاهين. كان يهرب من روتين صراخ والدته وشجارها مع أخته ولوم والده له وشكوى جدته من سامي إلى هذه الغرفة التي عاد إليها اليوم لاجئاً من تقلبات الحياة. وضع شريف رأسه تحت الوسادة ليدفن يومه الطويل ليغيب في سبات بخيل الأحلام.

بعد ساعات استيقظ شريف فزعاً في الغرف الغارقة في الظلام وبعد ثوان قليلة اعتادت عيناه على الضوء الخافت المتسلل من خلال فتحات الشيش. تسلل إلى أنفه رائحة التراب مضافاً إليها رائحة عرقه والطلاء القديم في غرفة كانت مغلقة لسنوات طوال. تسلل بيده باحثاً عن محموله ليجد رسالة من شيري تطمئن عليه. اتصل بها وأخبرها في كلمات مقتضبة ما قد حدث.

- طب مش هتيجي السينما؟ رانيا جايه.

- مسقط في بيت تيتا، وكيان ماعايشش عربية.. رميت مفاتيحها في وش المدير النهارده... بكره هجيب رانجلر اللونج شاسيه اللي كنت عايزها.. ماتعدي انتي علياً.

- أكرم واخذ عربيتي.

أغلق المحمول وقاوم الصداع من أثر ضربة شمس وذهب بذاكرة ساقية إلى المطبخ مركز الكون في كل بيت. شرب بعضًا من الماء في زجاجة ويسكي مديمة نادرة الشكل وابتسم لأنه غالبًا هذه إحدى زجاجات خاله رحمه الله. في كل ركن في هذا المنزل ينفجر أحد ألغام الذكريات.

انتبه لصوت الراديو الذي يهمس بإذاعة القرآن الكريم. أغلق الراديو ظنًا منه أن جدته قد نسيت مفتوحًا. مشى حتى غرفتها ليجدها قد نامت رغم أن الساعة لم تتعد التاسعة مساءً. كم وهنت وضعفت ورغم ذلك ما زالت الملاذ الوحيد من ثورات وغضبات أمه وأبيه.

مشى في الشقة الباردة والتي احتوت جدرانها يومًا ما عائلة مكونة من هدى جدته وابنها سعيد رحمه الله والوالدة والوالده وأخته. بدا له المكان غريبًا وهو خاوي ومهجور. مشى في طرفة كانت يومًا ما يراها ملعبًا شاسعًا يلعب فيها مع خاله رحمه الله «الصدرة ردة»⁽¹⁾ وكانت أخته تتعمد أن تقف بعجلتها في وسطها لتفسد عليها اللعبة.

اتجه إلى غرفته القديمة ليجدها قد تحولت إلى مخزن كبير مليء بالكراتين والأباجورات فقد بعضها رأسه؛ دولابه القديم واستيكرات السنافر وبوستر اميرو دياب عليه لوجو مجلة الشباب وآخر لفريق take that.

تذكر شيئًا ما فجأة فدخل إلى غرفته وصعد إلى أعلى الدولاب ليلقى بعض العناكب ليجد كرتونة متوسطة الحجم لستريو هاي فاي ماركة

(1) لعبة تلعب بالكرة بين اثنين أو أكثر.

ناشيونال كما هي منذ أن تركها. فتحها وأطل على طفولته وأغلق العلبه وقد عزم على العودة إلى كتره في وقت لاحق.

على نفس مائدة السفرة كان يتلقى دروسًا خصوصيًا من مدرسين يفوح من أفواههم مزيج كريبه من رائحة الشاي والكيك والسجائر. كره مدرسته القديمة وكل من فيها عدا مس لبني ذات الابتسامة الساحرة واللسان الفالت.

في حياة كل منا هناك مدرس أو مدرسة لا يمكن أن يطويهم النسيان مهما حدث.

مس لبني لم تتزوج قط فاعتبرت كل تلاميذ المدرسة أولادها. لم تكن مجرد مدرسته المفضلة بل كانت جارته أيضًا. تعلم قاموسه الأول من السباب من أحاديثها العادية مع جدته ووالدته.

أخرج من علبه سجائره جوينت الطوارئ الملفوف لدواعي الإشعال السريع في حالة الفوقان لا قدر الله. بخر ذكريات الطفولة والمراهقة بدخان حشيش الشباب ليفاجأ بجدته تقف أمامه. بصوت مصعوق نظرت الجدة إلى الجوينت في يد حفيدها قائلة:

- إنت بتشرب سجاير يا شريف؟ تُو تُو تُو.

مع حلول الساعة العاشرة مساءً أغلقت سلمى على نفسها باب المكتبة
أمد نفسها للنوم. أما سبب بياتها في المكتبة وعدم بياتها بمنزلها بإمابة فيعود
امصة عادية أليمة.

بعد وفاة والداها وتوليها مسئولية المكتبة اعتادت على حشر جسدها
مياً في صفيحة معدنية متحركة تُدعى ميكروباص من الجيزة إلى إمابة
تسكن وحيدة. في إحدى الليالي شعرت بيد نشيطة تتحسسها. نظرت
السيدة العجوز الجالسة بجوارها فوجدتها تغط في نوم عميق أما الشاب
اليسارها فكانت يده الاثنتان تعبثان في محموله. سرعان ما اكتشفت أن
هذه يد رجل جالس خلفها يمرر أصابعه في الفجوة ما بين مسند كرسيها
ومقعدها، نظرت بفرع خلفها لتكتشف أن ملامحه ينطبق عليها أو صاف
ماطل ومبرشم ومسجل خطر، توقف الميكروباص على أثر صراخها.

طرد السائق الرجل المتحرش وتطوع مجتمع الميكروباص أن يذكر لها
موند أن تلزم الفتاة المنزل وأن ملابسها هي التي أغرت الرجل، انهارت في
البكاء ليلتها وفضلت أن تبيت في المكتبة فالميكروباص لم يكن قد ابتعد عن
الميزة أكثر من شارعين فقط. افترشت ليلتها المجلات والجرائد واستخدمت
سجادة الصلاة الخاصة بوالدها كغطاء يقيها شر البرد، عادت إلى منزلها في
السادسة صباحاً لتغير ملابسها وتقوم بإعداد الطعام حتى تتمكن من العودة
مرة أخرى للمكتبة في العاشرة صباحاً. وأعجبها هذا الروتين فبدأت تطبقه
ابتاعت سريرًا من الذي يُطوى ومرتبة إسفنج نجيعة.

صحيح أنها أرضت مجتمع الميكروباص ولكن مجتمع الجيران بدأ يتذمر. جارتها ذات اللسان السليط يعلو صوتها بالدعوة لها بالهداية عندما تراها عائدة في السادسة صباحًا. الشاب اللزج صاحب محل الموبايلات أخبرها أنه لا يرضى أن يقول الناس إن بنت منطقتها تبيت يومياً خارج المنزل. جاراها العجوز وشيخ الجامع يشكوان. العاطلون على القهوة غير راضين والسيدات، وجدن في سيرتها موضوعاً شيقاً للنميمة والافتراءات على سلوكها ثم يستغفر الجميع ربه ويحمد الله أنهم يعيشون في مجتمع متدين بطبعه وربنا يستر على ولاياهم.

نقد صبرها في أحد الأيام فوقفت في وسط الحارة متحدية الجميع وبصوت عال وبثقة أدهشتها هي قبل جيرانها وجهت دعوة للجماهير الإمبابية بأن من يرى نفسه رجلاً ويغار على بنت منطقتها فليجئ ويصطحبها يومياً من المكتبة إلى منزلها ليلاً.

وقفت تنتظر منهم أي رد.

لم يرد الشاب اللزج صاحب محل الموبايلات.

لم يرد أي من رواد القهوة.

لم ترد الجارة سليطة اللسان.

استأذن الشيخ والجار العجوز لأن وراءهم أشغالاً، ولم يعد أحد لمضايقتها، ومن يومها وهي تبيت في المكتبة وتعود لمنزلها صباحاً.

أغلقت باب المكتبة وفردت ملاءة على الفاترينة لتمنح نفسها بعضًا من الخصوصية وهي نائمة. فهي لا تريد أن تكون معروضة للمهارة بجوار كتاب «بنات مارينا.. جنس وفساد وموساد» لعادل حمودة.

جاءت بالسرير الذي يطبق وفردته واعتمدت على عمود النور بالشارع ليكون بمثابة «وناسة» لها. نظرت حولها إلى الوجوه المطبوعة على أغلفة الكتب أقرب الأشياء إليها. كم من ليالٍ تونست بهم وتحدثت معهم. بعض الوجوه تثير خوفها مثل قصر الشوق لنجيب محفوظ، والبعض الآخر تتوأس بها مثل المرأة النائمة الحاملة ولكنها تخشى الشيطانة المرسومة على غلاف «ليلة مهر» ليوسف السباعي.

اليوم عاد شريف، ترى كيف أصبح شكله؟ هل تزوج؟ لماذا أعطتها مودته إلى منزله القديم هذا الأمل في أي شيء؟ كم صارت تكره الأمل وتخشى اقتراب الأخبار السعيدة.

الجميع يتركونها في نهاية المطاف.

تركها شريف وأخته عندما انتقلا من المدرسة التجريبية التي كانوا يدرسون بها هم الثلاثة. تركها من كان يدافع عنها، تركتها أخته التي كانت لا تفترق عنها إلا في ساعات النوم لتلتقيا مرة أخرى في المدرسة ثم تعودان معًا إلى منزل الجيزة. كل شيء تغير بعد أن التحقا بتلك المدرسة الأمريكية اللعينة. أخت شريف لم تعد تشكو كعادتها من حبتها من طرف واحد مع العلوم في مدرستها القديمة ولا من حبتها الثاني مع منير عبد العال جارهم في الدور الثالث.

في آخر حديث لها أخبرتها أنها تخرج الآن مع شخص لخصته لسلمى في عبارة «هيشم عنده تاتو وموتوسيكل».

لاحظ والدها ضيقها؛ فوعدها بأنه سيحاول نقلها إلى نفس مدرسة شريف وأخته. كانت أكثر سذاجة وقتها من أن تدرك أنه يحاول تطيب خاطرها ليس أكثر. ظلت لسنوات تلوم نفسها بعد أن كبرت وأدركت مقدار الألم الذي قد تكون تسببت فيه لو الدها.

- 3 -

وقفت سيارة دفع رباعي سوداء ذات زجاج داكن اللون أمام باب العمارة وركبته فاطمة. انطلقت السيارة إلى المربوطية حيث فيلا الباشا أحد كبار رجال الحزب الحاكم. الليلة فاطمة ستشرف كعادتها على سهرة خاصة لمجموعة من كُبارات البلد في دائرته بالصعيد أتوا إلى القاهرة ليطلبوا منه بعضاً من الخدمات.

كانت المطالب تتلخص في مزلقان سكة حديد مطور بعد أن تعددت الحوادث في البلدة، وفرن قريب، وتطهير أحد المصارف. كان الباشا يحب مسقط رأسه حقاً ولم يكن يحتاج إلى تزوير الانتخابات لصالحه. فالأصوات يتحكم فيها هؤلاء الضيوف وهم من يُملون على العائلات اسم المرشح الذي تميل الدولة إليه. وفي هذه الدائرة الانتخابية لا وجود لسماسة الأصوات ولا حاجة إلى تدخل الأمن للتزوير أو لترويع مؤيدي الإخوان أو المعارضة. وبعد الاجتماع بهم في مكتبه في الحزب وعدهم الباشا بسهرة

امسة في فيلته الصغيرة بالمريوطية والتي تعتبر ملاذة وحصنه من متاعب
العباسة والبيزنس والزواج.

وفي حوالي الثانية عشرة مساءً حضر الباشا وأعيان البلد. الكل يرتدي
الملابيب الأنيقة بمن فيهم الباشا. جلسوا في مجلسهم وتحدثوا عن السياسة
وأحوال البلد والدائرة. كان الباشا يعرف كل كبيرة وصغيرة في مسقط رأسه
وإمام ببناء جامع ومستوصف وشارك في أعمال ترميم كنيسة هناك. كان
المديث عن أي فتنة طائفية مستحيلًا في هذه البلدة؛ فالباشا موجود. فلو
حدثت أي مناوشات أو مشادات كانت تُحل على وجه السرعة. كما أنه كان
دقيقًا فعلم أنه لو كانت هناك مصالح مشتركة فلن تقوم أي مشاحنات ما
بين مسلمي البلدة وأقباطها. لذلك تعمد في المشاريع التي يمولها ببلدته أن
بتشارك المسلم والقبطي. فألف الجنيه بين قلوبهم.

جاء الطعام وانهالت الملاعق والأيدي تحرث في الأرز وتحصد في اللحم
وتلوك الكلام عن المشاريع والأحلام. وبانتهاء الخروف حمد الرجال ربهم
على النعمة وشكروا مضيفهم الذي اشتكى بأنهم لم يأكلوا جيدًا. وجاءت
الفاكهة وأمام كل شخص وضع طبق وقطعة من الحلوى. اقتربت فاطمة
بأدب من الباشا وهي تضع أمامه علبة صغيرة من الصدف فتحها ووزع من
قطعة الحشيش الكبيرة بداخلها على الرجال الذين أقسموا بأن معهم كيفهم
إلا أن الباشا أغلظ الأيمان بأنهم لا بد أن يتذوقوا حشيشه.

عادت فاطمة إلى مكانها بعيدًا عن جلسة الرجال. ودارت أكواب القهوة
المحوجة والشاي الثقيل. دخل بعض الرجال ومعهم آلات موسيقية. أما

عن الساعات فضبطت على أقل درجة ممكنة للصوت. فصاحب الفيلا من كارهي الضوضاء ويحترم حقوق الجار. وتدحرجت من داخل الفيلا راقصة عظيمة الأرداف ممتلئة القوام عامرة الصدر وبدأت ترقص وتغني. أما أخو الراقصة فتولى مسئولية تزكية الجلسة بإلقاء النكات وحكي القصص الطريفة وتوصيل وحراسة أخته.

وعلى حوالي الساعة الثالثة تسلطن الباشا وأشار للفرقة أن تعزف أغنية «يا صلاة الزين» فأعطى له المغني ميكروفوناً آخر. وعلى صوت الساعات الهادئ بدأ الباشا في الغناء تساعده المغنية والراقصة إن نسي الكلمات أو خرج عن اللحن، وهو نادراً ما كان يحدث من رجل كان حلم حياته يوماً ما أن يحترف الغناء فانحرف إلى طريق السياسة.

يا صلاة الزين يا صلاة الزين

على عزيزة يا صلاة الزين

وهنا قفزت الراقصة فوق المائدة برشاقة وصفق الرجال وهمس أحدهم بنكتة خارجة لزميله فاختلطت ضحكاتها بالأنغام بغناء الباشا برنة خلخال الراقصة.

رن محمول فاطمة بدعاء ديني يدعو الله أن يستر صاحبه في الدنيا والآخرة فابتعدت ودخلت إلى الفيلا وعادت ممتعة الوجه لتقترب من صاحب الفيلا الذي لم يكن رئيس الوزراء نفسه ليجرؤ على الاقتراب منه وهو في هذه الحالة من الانتشاء، لكن الأمومة داخلها منحتها الشجاعة.

- بعد إذنك يا باشا.. كلموني في البيت وبنتي سخنة ومولعة نار، لازم أروح لها.

نظر لها الباشا بتفهم وأمر أحد رجاله بفعل اللازم وطلب من فاطمة الاتقلق والأتبرح مكانها. بعد نصف ساعة فتح محمد لوتو زوج فاطمة المبرشم دائماً باب البدروم على صوت طرقات خفيفة. فتح الباب وهو ممسك بسيجارة بانجو ليجد بدلة سوداء تحتوي جثة ضخمة تبسّم ومعه رجل أشيب وقور يحمل حقيبة سوداء. وقبل أن تستوعب خلايا مخ لوتو الموقف ابتسم الرجل العملاق ابتسامة مهذبة زادته مهابة وقال:

- مساء الخير يا محمد، إحنا جالنا إخبارية إن بنتك سخنة.. ده الدكتور رامز الشرييني أشهر دكتور أطفال جاي يتظمن بنفسه عليها، سلامتها ألف سلامة.

أدخلها لوتو فاغراً فاه إلى الغرفة المتواضعة. استيقظ أخواها اللذان ورثا عن أبيهما ملامح الغباء حتى إن البعض كان يظن أنها هما من يعانيان من التأخر العقلي وليست أختها الصغيرة.

تم الكشف وصرّف الدواء للطفلة في أقل من نصف ساعة نامت بعدها من الإرهاق أو ربما من الدواء المهدئ للسعال في أحضان عزيزة الجدة التي كانت تهمس شيئاً من آيات القرآن في أذن الفتاة. رأت عزيزة في عيون الولدين الحقد والحسد فسبتهما وصرخت فيهما أن يناما.

وقبيل الفجر فتحت فاطمة باب البدروم بهدوء دون أن تضيء النور حتى اعتادت عيناها على الضوء الخافت الذي يتسلل من عمود النور أمام العمارة

ومن خلال فتحات الشيش الذي قسم ضوءه الأصفر الكالغ إلى خطوط عرضية على الحائط الجيري عديم اللون.

أخرجت من صدرها بعض الأوراق النقدية واتجهت إلى لوحة مفاتيح الكهرياء بجوار عداد أسود اللون وأدخلت يدها داخل فجوة في اللوحة وكأنها تنوي الانتحار صعقاً. أخرجت من الفتحة كيساً شفافاً به ثلاثة دفاتر توفير البريد ومبلغ صغير من المال ملفوف بأستك لقمته الأوراق النقدية ثم أعادت كل شيء كما كان.

فتحت باب إحدى الغرف لتجد زوجها يغط في نوم عميق وبجواره أمه التي لا يستطيع أحد أن يعلم ما إذا كانت مستيقظة أم لا. فحماها تمتلك قدرة غير بشرية على ادعاء النوم لساعات.

استطاعت فاطمة عن طريق علاقاتها أن تكتب عداد الكهرياء بأسمها واستولت على الحديقة وبنّت غرفة أخرى وأتت ببعض المراحيض المستعملة يعلم الله وحده من أين تحصلت عليها لتملأها بالطمي وحولتها لأحواض لزراعة البانجو لتبيعه بعدها وهي تنتقل من زبون لآخر عن طريق موتوسيكل «هوندا» تستأجره. ومن هنا جاء لقبها فاطمة «هوندا».

ذهبت لتنام في مكانها المعتاد على كنبه بجوار ابنتها الصغيرة وفوقها حائط بلا لون تستره نتيجة حائط عليها شعار «الحزب الوطني الديمقراطي». قبلت ابنتها وتحسست بشفتيها جبينها الغارق في العرق البارد لتستلقي بجوارها ابنتها وهي تمعلق في السقف الذي يفصلها عن الأدوار العليا

العمارة وعاهدت نفسها للمرة المليون أنها ستؤمن لابنتها شقة في هذه العمارة
بوما ما.

عاشت فاطمة في حالة إنكار لفترة طويلة بعد أن صدمها الطبيب بأن
ابنتها تعاني من تأخر في نموها العقلي. لم تصدقه في بادئ الأمر وذهبت
لأكثر من طبيب وكلهم أجمعوا على أن ابنتها لن تشفى أبداً وعليها أن تتقبل
الوضع. لم تكن حالتها سيئة ولكنها كانت أبطأ في التحصيل مقارنة بقريباتها.
ذهبت إلى المشايخ ولقمت صناديق النذور في الأضرحة والمساجد وحتى
الكنائس الكثير من الأموال. حتى الشيخة درية وهؤلاء الشيوخ المكفهر و
الوجوه دوماً والذين كانوا يعطون دروس الدين في صالون نجوى عز الدين
فديماً لم يقدموا لها سوى الدعاء وأن عليها تقبل أمر الله. قال لها أحد الشيوخ
إن الله له حكمة في أن يخلق ابنتها على هذه الشاكلة وهي أن يحمد الأصحاء
الله على نعمه. لم تستوعب فاطمة حكمة أن تعذب ابنتها من أجل أن يتذكر
الباقون أنهم في نعمة.

ذهبت إلى الشيخ نشأت النجم الديني التلفزيوني اللامع عندما حضر
لزيرة أميمة التي استغلت الفرصة كعادتها لتهاجم نجوى عز الدين. تستغل
أميمة كل فرصة كي تثبت أن نجوى مدعية وأن دروس الدين في صالونها ما
هي إلا محاولة بائسة لتقليدها ونوع من أنواع الموضة.

احتفظ الشيخ نشأت بهدوئه أمام تلك العاصفة من الغيرة النسائية
ما بين جارتين لدودتين وهو يقبل الطفلة ويلاطفها. بكياسة أشار لأميمة
أن تتوقف قليلاً عن الكلام ونظر إلى فاطمة قائلاً إن الأطفال الذين يعانون

من تأخر عقلي هم في نعمة علينا أن نحسدهم عليها وأن الأجدر بالشفقة هم الأصحاء. لم تفهم فاطمة في بادئ الأمر، فشرح لها الشيخ أنه في عالم ابنتها لا وجود للخداع والكذب والتسابق المحموم بين البشر على النفوذ والأموال. يومها أمّنت أميمة المبهورة دائماً بالشيخ نشأت على كلامه وهي تقول: لقد اصطفاها الله أن تنعم في الدنيا والآخرة.

خرجت يومها فاطمة من عندها وهي مطمئنة البال قليلاً ولكن بقيت أمامها مشكلة أن ابنتها ستعامل على أنها متخلفة عقلياً طوال عمرها وإن ذهبت لزيارة أقاربها في البلد فسيسخرون منها أو ما هو أسوأ سيشفقون عليها. كم تكره نظرات الشفقة وتلك الشفاه التي تتمم بدعاء سبحان الذي عافانا!

وعندما بلغت الفتاة الرابعة من عمرها صعدت فاطمة لمسُ لبني على أمل أن تتوسط لها في المدرسة التجريبية التي كانت تعمل بها. أخبرتها لبني أنه لمصلحة ابنتها ألا تلحقها بمدرسة عادية لأن هذا سيسبب للطفلة ضرراً كبيراً، كما أنها لن تستطيع اللحاق بأقرانها.

يومها احتضنت ابنتها بياس الواقع وقبل أن تغادر شقة لبني أخبرتها الأخيرة بأن هناك مدارس لمن هم في مثل حالتها ولكن مصاريفها باهظة. مشت فاطمة ولم تمد يدها لأخذ النقود التي أعطتها لبني لها وقالت:

- شكراً يا لبني هانم.. إحنا طالعين ناخذ نصيحة مش حسنة.. الحمد لله مستورة.. أنا مش هسحت على بنتي.

سألتهما من أين ستدبر المصاريف فأخبرتها فاطمة أنها ستصرف. نظرت لها عزيزة نظرة هازئة وهي تسألها هل ستعلم ابنتها بمصاريف المخدرات التي كانت تبيعها؟

ردت عليها فاطمة يومها بأن التلفاز الملون الجديد الذي يونس وحدتها ، ادويتها والبطانية الجديدة التي تقي عظامها من البرد هي أيضًا من أرباح الالانجو.

لم ترد عزيزة ونظرت إلى ابنها كي يدافع عن أمه. وقف لوتو أمام فاطمة ، فدلمعت عيناه وهو يرجوها أن تقوم بصرف أرباح الالانجو بالعدل عليه هو ، الولدين وألا تستأثر الفتاة بكل شيء.

وقتها لم تكن فاطمة سوى زوجة البواب التي أرسلتها نجوى للباشا سديق زوجها. تجرأت فاطمة وطلبت منه خدمة إنسانية من أجل ابنتها. ملن الرجل أنها ستطلب منه نقودًا ولكنها رفضت في شمم وإباء وأخبرته أنها لا تطلب سوى أن يساعدها في استخراج شهادة ميلاد لابنتها مدون بها أن مهنة الأب موظف حتى لا يعايرها أحد في المدرسة الأجنبية بأنها ابنة بواب. أعجب الباشا بشخصية فاطمة كثيرًا ونفذ لها طلبها.

وقبل أن تلتحق الابنة بالمدرسة نظر أخوها بحسد إلى ملابسها الجديدة ، قارنوا بينها وبين ملابسها المهترئة المستعملة والتي أهدها إليهما أحد سكان العمارة. واشتعلت غيرتها عندما رأى حذاء أختها اللامع وقارنوه بحذاءيها الباليين. ليلتها تمنى أحدهما لو كان هو من أصيب بالإعاقة الذهنية حتى إنه بدأ يقلد ضحكة أخته المميزة.

أما لوتو الفاشل دراسيًا واجتماعيًا ومهنيًا فلم يفهم مدى أهمية التعليم من أساسه فما بالك بفتاة تعاني من التأخر. الجدة هي الوحيدة التي كانت تشجع قرار دخول حفيدتها إلى تلك المدرسة الأجنبية وإن كانت ترفض أن

تعترف بأن زوجة ابنها ست شاطرة استطاعت ادخار فلوس البانجو ولم تضيعها على نفسها.

كان دخول ابنتها للمدرسة بالنسبة لفاطمة مسألة حياة أو موت. فهذه الفتاة لن تتزوج ولن يتحمل مسئوليتها رجل ما في أحد الأيام. كما أن تركها في الحياة للوتو أو أحد أخويها هو بمثابة حكم بالقضاء عليها، أما أعمامها فسيخبتونها في أحد المنازل بقريتهم وستعامل كالحيوانات.

ولأن فاطمة كانت تاجرة مخدرات تافهة؛ لذا فلقد ابتلعت المصاريف الدراسية للسنة الأولى معظم تحويشة عمرها، ولكن رؤية ابنتها بملابسها الجديدة وهي تركب هذا الأتوبيس المرصع بالحروف الإنجليزية لاسم المدرسة قد عوضتها عن كل شيء. فللحروف الأجنبية وقع محبب عند فاطمة التي فطنت إلى أن كل الوصفات البلدي والأعشاب والأعمال لم تنفع والدتها بشيء في مرضها، أما الدواء المستورد الذي أحضرته لها نجوى فلقد كان له مفعول السحر عليها.

كانت مؤمنة تمامًا بأن الله لن يضيع تعبها وتضحياتها وسيعوضها عنه أضعافًا مضاعفة. انتظمت فاطمة في الصلاة بل وواظبت على حضور درس الدين عند نجوى رغم أنها كانت تتراح لكلمات الشيخ نشأت الذي كان يحضر مرة واحدة كل شهر عند أميمة. السبب وراء ذلك أن الشيخ نشأت كان يدعو للتفكير والتأمل وكلامه فلسفي، أما درس شيوخ صالون نجوى فلقد كان أسهل لأنهم كانوا يعطونها أوامر وتعليمات ومستحبات ومكروهات ويزيجون عن كاهلها عبء التفكير.

كانت تفتش الأرض بينما تجلس بنات الطبقة العليا على المقاعد المذهبة
ستمعن جميعاً للشيخة درية ثم يقمن لأداء صلاة الجماعة جميعاً بعدها.
مت فاطمة أن يرزقها الله برزق ابنتها حتى تستطيع تدبير مصاريف السنة
المادمة. وبالفعل لم تمض شهور حتى أذنت لها نجوى بإيجار اليوم الواحد
:ريطة التأكد من وجود ورقة زواج عرقي وأسند إليها الباشا مسئوليات أكبر
:أجير البلطجية وتزوير الانتخابات والتحرش بالمظاهرات، وبعد أدائها
الشرف في تظاهرات عام 2005 أصبحت ذراعه اليمنى التي لا يستغنى
:ها وأجزل لها العطاء. وأخذتها السياسة من تجارة المخدرات وبدأت تقلل
من اهتمامها بتأجير الشقة شيئاً فشيئاً. ومن داخلها كانت مؤمنة إيماناً شديداً
أن الوهاب قد أرسل إليها ابنتها برزقها شريطة أن تستمر في العناية بها. كما
:هبها المنتقم الجبار ولديها الآخرين كتكفير عن ذنوبها.

إلا أنه لا يمكن القول أبداً إن فاطمة اضطرت إلى المضي في ركب الفساد
:البلطجة والدعارة والمخدرات بسبب حال ابنتها. ففاطمة كانت تتاجر
:المخدرات وتؤجر الشقة بالفعل لحساب نجوى حتى قبل أن تحمل في
ابنتها. إلا أن الأخيرة كانت تعارض إيجارات اليوم الواحد خوفاً على سمعة
:العمارة ولم ترضخ لطلبها إلا بعد أن أشفقت على ابنتها.

وقبل أن تنام فاطمة تسلل إلى عقلها خبر عودة شريف إلى شقة جدته،
:قبل أن تقيم هذه العودة وأثرها عليها غلبها الإرهاق ورحمها النوم.

الفصل الثالث

- 1 -

مر أسبوع على انتزاع شريف من عالمه ورميه رغماً عن أنفه إلى عالمه القديم. أسبوع كامل أيقنت فيه هدى أنها كانت مخطئة تماماً في توقعاتها وأنها قد أسرفت في تفاؤلها بعودة حفيدها إليها ليبدد وحدتها. لم تره كثيراً في خلال هذه الفترة إلا صدفة فلقد اعتبر شريف منزلها ملجأً يعود إليه فجراً ويفر منه صراً بعد أن يستيقظ بساعة.

- ياريتيه كان عايش في لوكاندة.

هكذا انفجرت الجلدة بما في صدرها لسلمى التي تشاركها قهوة العصاري في الشرفة. أخبرتها أن حفيدها لم يعد ذلك الطفل المهذب الذي كانت تتفاخر به والذي أصرت على أن يسمى على اسم زوجها وجده. لقد شب شاباً أنانياً لا يهتم إلا لمصلحته ومزاجه، فحتى بعد أن أخبرته أكثر من مرة أنها تعاني من حساسية صدرها أصر على التدخين في المنزل. هددته بأنه إذا لم يقلع عن التدخين فإنها ستخبر والدته ثم أيقنت من ابتسامته الساخرة مدى سخف هذا التهديد.

ظنت أنها بحاجة إلى بعض الوقت كي تعتاد على وجوده ولكنها اكتشفت أن حفيدها أمسى شابًا لا يطاق، لا يراعي سنها. في أول يوم قامت بعمل صينية بطاطس له كاحتفال إلا أن هذا لم يؤثر فيه ولم يشكرها بل اشتكى من قلة الملح وطلب منها أن تذهب بنفسها إلى المطبخ وتحضر إليه الملح والفلفل. وبعد أن ابتلع الطعام قام دون أن يشكرها على صنيعها ولم يضع حتى طبقه في المطبخ وتركه كما هو على المائدة كما عودته هي شخصيًا ومن بعدها والدته. ولكنها الآن في سن لا تسمح لها بأن تخدمه وهو لم يراع هذا.

لم يعد شريف ذلك الطفل الذي يهرع إليها من غضبات الأم بل هو مجرد شاب عاطل لجأ إلى منزل جده الذي تسكن هي فيه. وجودها نفسه لم يعد ذا شأن فلو كان لدى شريف مكان آخر أو كان هذا المنزل خاويًا لما تغيرت الحقيقة. هي لم يعد لها أي أهمية في حياة حفيدها أو ابنتها وتستمد أهميتها من شقتها وذلك العبء الاجتماعي الذي يمنع الأولاد من التخلص من آبائهم وأمهاتهم. نما إحباطها الوليد وكبر وترعرع وبدأ يمهد الطريق للاكتئاب بمعول اليأس.

نظرت هدى إلى سلمى وقد لاحظت أن الفتاة منذ أن علمت بقدم شريف وهي تعتني بنفسها أكثر من المعتاد. لم تعد تكتفي بتصغير شعر ساعديها بل قامت بنزعه تمامًا، حتى رائحتها تغيرت وأصبحت عيناها أكثر لمعانًا وأمور أخرى كثيرة لا تلاحظها سوى أنثى حتى وإن تعدت الستين من عمرها.

في هذا الوقت وقف أتوبيس مدرسة ابنة فاطمة أمام العمارة ونزلت الطفلة وحيّت سلمى التي لوحت لها بيديها من شرفة هدى. منذ أن التحقت ابنة

الطلة بمدرسة ذوي الاحتياجات الخاصة وهي تقاوم ذلك الشعور الجارف
الها تشبهها في ظروفها. لم تكن سلمى بالتأكيد تعاني من بطء في التعليم
والها كانت مثل ابنة فاطمة الواقعة ما بين عالمين ولا تنتمي إلى أي منها.
سلمى تربت في منطقة راقية من حي الجيزة ولكنها من ساكني إمبابة لذا فهي
لا تنتمي فعلياً لأي من الحين. ابنة فاطمة لا تنتمي بطبيعة الحال إلى مجتمع هذه
المدرسة الأمريكية وصارت بعد التحاقها بها لا تنتمي إلى البدروم بيتها الطبيعية.
مر أسبوع كامل وشريف نفسه مترنح ما بين عالمه القديم والأقدم.
حبح أنه مازال يسهر كل ليلة حتى الفجر مع شلته القديمة ومع صاحبه
المديدة رانيا إلا أن شيئاً ما قد تغير.

مع خسارة دخله الشهري الضخم أصبح ينظر - وربما لأول مرة في البار
الذي يرتاده بصورة شبه يومية - إلى قائمة الطعام ليحسب ثمن ما يطلبه. لم
يطلب دون أن يهتم بمعرفة الأسعار بل بدأ يحسب ويتأني قبل الاختيار
ويفضل البيرة عن الويسكي ويتحجج بأن معدته ليست على ما يرام.
صراع حاد عانى منه شريف ما بين ضغط رصيده في البنك المتناقص
وصورته التي يرغب في الحفاظ عليها كالذكر الألفا في زمرة الأسود الذي
يق الخمر بلا حساب أمام لبؤته الجديدة.

قبل أن يفصل من عمله لم يكن يهتم بالذباب الأدمي الذي يتجمع حول
اجته التي يقوم بفتحها أو أولئك الذين يحومون حول إحدى الإناث من اللاتي
واسن معه على نفس الطاولة. لكن صار وجوباً على هذا الذباب الذي يقتنص
أنا مجانية أو يطلب شيئاً ما ولا يدفع ثمنه أن يفهموا أن بشر النقود قد نصب.

فيما سبق كان سيقوم بحجز غرفة في هذا الفندق الشهير بالزمالك ليقضوا اليوم على حمام السباحة ثم الفراش. المشكلة أن رصيده لا يسمح بذلك ولا يمكن في نفس الوقت أن يضيع منه فرصة مضاجعة رانيا. اتفق معها على أن تزوره في منزل جدته بعد الساعة العاشرة مساءً أي بعد أن تنام جدته بساعة فوافقت رانيا واشترطت عليه أنهما لن يقوما بالنوم معاً وأن الزيارة ستكون بريئة تمامًا، فوافقها شريف في بروتوكول معروف ما بين الذكر المصري وأثناه.

فرح بأنه سينام مع فتاة في المنزل الذي شهده وهو مرهق يمارس العادة السرية وكأنه يؤكد للمجردان بأنها كانت مرحلة وعدت. إن فكرة ممارسته الجنس في منزله القديم وجدته نائمة في الغرفة المجاورة أصابته بمشاعر متضاربة ما بين المغامرة والخوف والفرحة، أضاف إليها الضغط النفسي بسبب فصله من العمل وطرده والده المزيد من التخبط؛ ما جعله يفشل تمامًا مع رانيا عندما جاءت. جلس بجوارها على الفراش غارقاً في عرق بارد وهو لا يقوى حتى على التحجج بأي شيء.

قالت نكتة عن أن زيارتها ستكون بريئة رغماً عنهما ولكنه لم يضحك بل راقبها وهي ترتدي ملابسها بهدوء وقبلته على وجنتيه. وارتدت ملابسها وتأملها وهو شبه متأكد أنها ستقوم بفضحه عند كل الشلة.

شعر أن الوقت قد حان ليغير شلته فلم يعد هناك من جديد يحدث، كما أنه يريد الاحتفاظ بصورة الألفا والملك غير المتزوج. لم يعد يفقد سوى فيلته التي تمثل له ما مثلت قلعة آلموت لطائفة الحشاشين قديمًا. داخل الأسوار

• من الجنة ومن يخرج منها لا يستطيع إلا التفكير في كيفية الرجوع إليها مهما
أمره الأمر. خارج الأسوار هو الجحيم بعينه لطائفة الحشاشين وشريف كان
• «أنا كما نعلم».

وأمام باب الشقة ودع شريف رانيا وهو بالبوكسر ليجد أمامه الأستاذ
• منصور جاد الله.

نظر منصور إلى رانيا ثم إلى شريف وهز رأسه وكأنه فهم ما حدث. وبعد أن
أفت رانيا أخبره منصور أن يتبعه إلى شقته بهدوء. لسبب ما نفذ شريف الأمر
، ا ندى ملابسه واختطف مفتاح الشقة وهو لا يريد الاعتراف بأنه يرتجف.

صعد إلى الدور الثالث الشقة رقم ستة والتي كان يخشى فيها مضى مجرد
، ا ور من أمام بابها. تردد قليلاً قبل أن يرن الجرس وطمان نفسه بأنه لم يعد
طاملاً وأن منصور جاد الله أسطورة التزمت لا يستطيع أن يفعل له شيئاً الآن.
رن الجرس وهو يتمنى ألا يسمع منصور صوت نبضات قلبه المرتفعة.
، ا الجرس وهو يعترف أنه مازال يخشى من «أونكل منصور». لقد شاهده في
الليفزيون يقدم نشرات الأخبار أكثر مما رآه في العمارة. يتذكر وهو صغير أن
، مال العمارة كوالده وخاله ومحمود زوج أميمة وزوج نجوى - رحمه الله -
، اسوا دائماً ما ينتحون به جانباً بعد صلاة الجمعة ليسألوه عن آخر الأخبار
، اممة تلك التي لا يمكن إذاعتها، وكان مذبذب النشرة عليهم ببواطن الأمور
، املم أكثر مما يصرح به على شاشة التلفزيون.

لقد رآه منصور وهو يدخن مع بعض الصبية عند كشك قريب من
العمارة. يومها ناداه فارتبك شريف وألقى بالسيجارة سريعاً وقلبه ينبض

بعنف كما ينبض الآن رغم مرور كل هذه السنوات. لم يكتف منصور بأب، أخبر والده بل أبلغ عن الكشك نفسه فداهمته البلدية وألقت بالبضاعة على الأرض. وامتزج صراخ صاحب الكشك بصراخ الغضب من سامي وهم يلقن ابنه درسًا قاسيًا.

في أوائل سنوات مراهقته تمنى شريف لو أتى بالفتيات إلى المنزل كما يفعل بعض أقرانه عند سفر العائلة ولكنه كان يخشى من افتضاح أمره خاصة أن الرجل كانت عنده هواية مراقبة الشارع من شرفته بالطابق الثالث من خلف زجاج فيميه⁽¹⁾ يسمح لمن بالداخل بأن يرى من بالخارج دون أن يرى ويوم أن فضح منصور سلمى وأخبر الجميع أنها على علاقة مع ابن بواب العمارة المقابلة كره شريف وأخته وسلمى التقاليد والأعراف ومقتوا الرقابة المجتمعية المتمثلة في الزجاج الفيمة وتعهدوا أنهم سيكسرون هذا الزجاج يومًا ما ولكنه وعد لم يهتم أحد بتنفيذه حتى الآن.

رن جرس الباب للمرة الثانية ليفتح له منصور جاد الله الباب بقامته المهيبه ووجهه الذي يكشف عن سنه المتقدمة وباروكته الشهيرة؛ ليدعوه للدخول بصوته الرخيم الوقور الذي لا يصلح إلا لإعلان الحروب.

تأمل شريف المنزل الذي يدخله لأول مرة في حياته وعقله يعمل أسرع من المعتاد. ترى ما الذي يمكن أن يفعله عند التهديد بفضحه هو ورائيا؟ هل الأفضل أن يواجهه بلا مبالاة وعدم اكتراث أم يهاجمه ويوقفه عند حده؟ بحث شريف عن ريقه فلم يجد سوى حلق جاف يجبره أنه لا يزال يهاب الرجل.

(1) زجاج ملون لا يسمح لمن خارجة برؤية ما يحدث بالداخل.

الف إلى غرفة الصالون المكفّن في قماش من الدّمور ومنضدة رخامية
نورة في أحد جوانبها ملقى عليها زهرية من الورد الزائف. لفت نظره
نورة كبيرة لمنصور مع حسني مبارك تتصدر الصالون. جلس مقابلًا
الرف واضعًا ساقًا على الأخرى وهو يرمقه بنظرات محايدة باردة تعلمها
سنوات عمله الذي يفرض عليه قراءة خبر مقتل المئات في قطار الصعيد
من الحماس الذي يقرأ به خبر فوز الأهلي على بلدية المحلة. مرت ثوانٍ
الصمت فيما بينهما. كان الفضول قد دفع بشريف إلى حيث تتراقص
الساؤلات المنطقية على أرضية زلقة من القلق.

البنّت اللي كانت معاك دي جايها مينين؟

دي صاحبتى.

مرافقها يعني؟

- لا! صاحبتى عادي.

- الجوبتا عك يعني؟

استعد للمواجهة واتخذ القرار. سيصرخ في وجه الأستاذ منصور أنه حر
وبها يلحقها بـ «اعمل اللي تعمله يا أنكل وهات آخرك». سينتقم من إهانتته
أمام رفقاء الشارع وهو على أعتاب المراهقة. سينتقم لسلمى التي فضحها
وأخته التي ألزمها بألا ترتدي القصير بعد أن شكّا لسامي من ملابسها
الضيقة. يومها حرّج سامي على ابنته وللمرة الأولى أن ترتدي مثل هذه
الملابس اللافتة رغم أنه هو من ابتاعها لها.

قرر شريف أن يصرخ في وجهه وينتقم لهنداوي ديلر البانجو خفيف الدم صاحب الكشك الذي سجنه وشرد أطفاله. سينتقم لأولاد منصور وزوجته الذين قمعهم وقهرهم تحت اسم التربية والأخلاق والانضباط فخرجوا إلى الدنيا رجالاً ونساءً ممسوخين بلا شخصية وزوجة توفيت دون أن يكون لها رأي في أي شيء.

- والله كبرت يا شريف وبقيت بتجيب نسوان العمارة.. ما عندهاش أخت دي ليا؟

لم يفهم شريف في البداية ما قيل، وعندما فهمه لم يستوعبه جيداً. فاستدرك وهو ينظر لمضيفه الذي أردف:

- أنا ما عجزتش يا ولد... العصب لسة بيدي فولت. هاهاهاهاهاها.

ظل شريف محملاً في وجه مضيفه وعقله مرتبك لا يجرؤ حتى على تفسير كلمات منصور أسطورة التزمت وحامي حمي الأخلاق. لم ينتظر منصور رداً من شريف وقال:

- أنا مبسوط انك رجعت بيتكم القديم. كده بقى فيه راجل في البيت ممكن أكلمه. أصل انا ومدام هدى وعمتك نجوى ما بتكلمش بقالنا سنين كتيرة.

أخبره منصور بأنه رجل يعشق الحق وأن كلماته هذه لن تعجب المستأجرين في عمارة جده وشدد على الجملة الأخيرة. أردف منصور بأن العمارة كلها مؤجرة منذ أيام جده - رحمه الله - بنظام الإيجار القديم؛ أي أن كل شقة تدفع ما لا يزيد على الثلاثة جنيهات شهرياً لنجوى صاحبة العمارة.

وده يا ابني حرام.. أرض زي دي تسوى لها أربع خمس أرايب بتطلع
١٠م تمن أربع خمس علب سجاير كل شهر.

لعن شريف جمال عبد الناصر واتهمه بأنه هو السبب في هذا الظلم
الواقع على أصحاب الأملاك، وجرفها الحوار للحديث عن مساوئ يوليو
١٩٧٠ وعما سببته قوانين الإصلاح الزراعي من أضرار للزراعة بمصر عامة
، استمرار جسيمة لعائلة عز الدين بصفة خاصة التي كانت لها أرض كبيرة
، محافظة البحيرة مسقط رأس جد شريف لوالدته.

أخبره منصور أنه ينوي التنازل عن الشقة، ومشكلته أن نجوى وهدى
لا يريدان حتى التحدث معه لأنهما يظنان أنه قد تسبب في وفاة سعيد خاله.
١١. هش شريف مما يقال فأخبره منصور أنه بعد زلزال عام 1992 الذي
سبب في هدم السلم الخدمي وسقف الشقة رقم ثمانية بالدور الأخير من
المهارة استغل خاله الفرصة وجاء ببلجنة هندسية لمعاينة العقار وطمأنه
، مهندس الحى بأنه يستطيع استخراج تصريح بالهدم لأن العقار يشكل خطرًا
، أهمًا على سكانه. أوضح له منصور أنه بهذا التقرير الهندسي يستطيع إخلاء
المهارة تمامًا من السكان دون دفع تعويض.

كانت هذه المعلومات جديدة تمامًا على شريف فسأل منصور: وماذا كان
، مسير هذا التقرير الهندسي؟ ابتسم منصور وعاد بظهره للوراء وقد وضع
، أقا على ساق قائلًا:

- التقرير طلع بعكس الكلام ده.. نجوى وهدى اتهموني إني السبب.
، مديها خالك اتخانق مع جدتك وعمتك وجاله عيا في المخ وربك استرد وديعته.

ومن ساعتها بطلوا يكلموني مع إني والله ماليش دعوة.. لو طلبوا مني الشقة هديها لهم... هو أنا ناقص شقق؟... بس ما ينفعش اديهم شقة أبويا الله يرحمه وهُمّ حتى ما بيردوش السلام عليّ... حاولت أدخل والدك الرجل المحترم بينا.. بس هو بعد ما اترقى وسكن في المهندسين واضح إنه مابقاش فاضي.

ظن شريف للوهلة الأولى أن منصور سيتنازل له عن الشقة أعلاه لكن الأخير طلب منه ربع مليون جنيه مقابل تنازله عن الشقة. ابتسم شريف ولعن سذاجته التي لا تريد أن تتخلى عنه كما تخلى عنه بعض الأصدقاء من الشئلة بعد تدهور أحواله المالية. أخبر شريف مضيفه بأنه لا ناقة له ولا جمل في هذا الأمر، لكن منصور أفهمه أنه لو أقنع نجوى بدفع مبلغ التنازل من الممكن إعادة بيع هذه الشقة بأضعاف ثمنها بعقد تمليك هذه المرة، حينها لن تقل عمولته عن الخمسة أرقام.

بدا الكلام لشريف منطقياً إلى حد كبير. كل ما سيفعله هو أن يقنع نجوى بمقابلة منصور ويتم التنازل ثم يبيع الشقة عن طريق علاقاته ويقبض عمولته فينتشي رصيده في البنك ويبعد عنه شبح الإفلاس لفترة ليست بالقصيرة.

بدا الأمر بسيطاً جداً.

كل الحلول تأتي من بيع شقة منصور.

سيقنع نجوى وحده.

ويحصل على العمولة دون مساعدة من والده.

سيندم والده على تلك الصفعة.

سيحمل السيف وسيقاتل التنين وسينقذ أخته وسيعود لطلب الويسكي
وان أن ينظر في المنيو.

سيسبح مع رانيا في ذاك المسبح الجديد في فيلته الجديدة.

اتسعت عينا منصور وهو يقول بصوت لا يصلح إلا لإعلان إعادة
احاب رئيس الجمهورية بنسبة تسعة وتسعين بالمائة:

ده غير بقى لو مشيت السكان كلهم وهديت العمارة، تخيل عمولتك
من قد إيه يا بطل، لو سلكت لي موضوع شقتي ممكن تقنع مدام نجوى
الارض كل السكان وتخرجهم... الأرض دي دلوقتي تساوى مش أقل
خمس أراب.

زل شريف من عند الأستاذ منصور وقد رأى في بيع العمارة كل حلول
ه. لن يكون الموضوع بسيطاً ولكنه ليس مستحيلاً. هو يعلم كيفية
الوج إلى مفاتيح إقناع نجوى. سيخبرها عن محل الكشري على ناصية
ارح حيث تعلق الرعاع بالكربوهيدرات والغازات وعربية الكبدة على
السيف المقابل مقصد الشباب الذي يطلق عليه «السر سجية» ليدفسوا في
فهم الأمراض والحموضة.

سيذكرها أن الشارع الذي كان يوماً تتبختر فيه فتيات الطبقة الراقية
الساتين أصبح مرتعاً للعامه والهاموش الآدمي. العمارة التي بناها والدها
الذالك المكان الهادئ تصدح فيه الآن أصوات سائقي الميكروباصات
باب. سيعدد لها محاسن العيش في كومباوند، ذاك المجتمع المسور الذي
منها من الآخرين.

نزل إلى بيت جدته التي كانت لاتزال تغط في نوم عميق فاقتحم غرفه خاله، وتحسس مكان صفة والده، ونام قرير العين ليستيقظ في اليوم التالي قبيل العصر كعادته لتلفت نظره سلمى وهي في اتجاهها إلى المطبخ تحمل قدحين من القهوة قد انتهت من شربها هي وجدته. سلم عليها بحراره وسألها بلا اهتمام عن أحوال مكتبتها.

تأملت سلمى جسمه القوي وتلك الشعيرات النافرة من صدره التي تدعوها بوقاحة أن ترمي في أحضانه. كم كبرت ذراعه التي لا تصلح إلا لحمايتها من كل أوغاد العالم وبدت لها أكتافه العريضة مناسبة كي يرفعها فوقها وهما معاً في البحر في شهر العسل بشرم الشيخ. أما صوته الذي غدا أعرض مما ألفته وهما صغار فأجبرها على تخيله وهو يصرخ فيها لأنها قد نسيت أن تطهو طعام الغداء.

لحظات ثمينة تتخللها مشاعر فياضة وكلمات مدعاة، لا هدف منها سوى إطالة الوقت كي تشبع أعينها من بعضهما البعض. لحظات وقفا يتواجهان وقد أجهد كل منهما ذاكرته لتمده بالمزيد من الكلمات فقط ليظلا هكذا فترة أطول. أعجبه حديثها المرتبك وخفة دمها وعيونها الخجولة التي تدعي الشقاوة علاوة على أنها أضحكته مرتين في أقل من دقيقتين وهو أمر جلل.

أما هي فلقد وقعت أسيرة سفالته منذ اللحظة الأولى. تلك العيون التي قامت بعمل مسح ذري شامل لكل خلية في جسدها جعلتها ترتبك لأنها أيقنت أنه سيقوم بعمل هذا المسح لمؤخرتها عندما تتركه وتتجه للمطبخ. لم تكن مشكلتها أنه سيتأملها، ولكنها ندمت على أنها لم ترتد الجينز «إياه».

علا صوت الجدة في هذه اللحظة وهي تخبره بأن سلمى هي من ستقوم
إمداد طعام الغداء له، تصنعت سلمى الاعتراض. ضحك شريف وهو يخبر
١٠. أنه أن سلمى إنما تريد أن تداري خبيثتها في المطبخ. ابتسمت سلمى بتحدٍ
الفة حاجبها فخرجت الأنثى الكامنة خلف ملامحها الطفولية وهي تقول:

• هنشوف

- 2 -

في صباح اليوم التالي أمد الابن الأكبر لعزيزة ببعض المال فنظرت إلى
المغ ثم إلى ابنها. وقبل أن ترد دخل محمد لوتو إلى الغرفة ونظر إليهما بشك
، هو يتصنع الترحاب بأخيه الكبير. وضعت عزيزة بخبرة أعوامها الثمانين
الأمود تحت المخدة بخفة. قام الابن الأكبر ليستأذن وقبل يد أمه. حاول لوتو
، بدعو أخاه إلى الغداء بلهجة صادقة ولكنها خرجت منه خانعة كاذبة.
' كره الأخ الأكبر باقتضاب، وهنا دخلت فاطمة إلى الغرفة فنظرت إلى
ال. جل وتبادلا النظرات دون تحية ليخرج بعدها من البدروم إلى نور الشمس
، كآ وراءه أمه والألم يعتصر قلبه عليها لأنه تركها وحدها.

بعد أن أخفت عزيزة النقود تصنعت التعب وعادت إلى حالة الجثة الحية
ال. تجيدها، فلا يعلم أحد إن كانت مستيقظة أم نائمة. أشارت فاطمة إلى
٤٤. أن يخرج من الغرفة حتى يستطيعا الحديث دون أن تسمعها والدته.

خرجا ليقفا في المكان الذي كان حديقة يوماً ما وأصبح الآن أرضاً بوراً ترايبه كلون شعر أبنائها. جلست فاطمة على أحد المراحيض التي كانت تزرع بالبانجر فيما مضى قبل أن تعتزل هذه التجارة وتتفرغ لشراء الحشيش لكبار رجال الدولة أشعلت سيجارة وهي تسأل زوجها ما إذا كان أخوه قد أعطاه نقوداً لرعاية أمه. نفى لوتو أن يكون قد رأى شيئاً من هذا. أفهمته فاطمة أنها ليست على استعداد للصراف على أمه بعد أن تضاعف ثمن دوائها في الفترة الأخيرة.

- يا فاطمة يعني أطلب من أخويا فلوس علشان أرعى أمي؟

- وهو العلاج والبرشام المستورد ببلاش؟

- دي أمي يا فاطمة.

- كل برشامة بنجيبها لها شادة معاها لقمة من بق عيالنا.

- مش كل مرة أخويا يبجي من البلد نحكي في المحكي.

- لأنحكي يا محمد.. وهي لازم يكون عندها حساسة⁽¹⁾.

- إنتي ناسية إحنا قاعدين في ملكها يا مرة؟

- ملك مين يا ابن عزيزة؟

- ملك ابويا يا بنت رسمية بياعة الجبنة.

- العداد باسمي وأنا اللي صارفة على البيت. بقى حد يقول الأخ اللي

عنده أرض يبجي يزور إيد ورا وإيد قدام وأخوه العواطي هو اللي يصرف

على امه؟

(1) تقصد إحساس.

عواطلي؟ الله يساعك... بكرة أخف واخلص من المعايرة.

تخف من إيه؟ لتكون صدقت انك بتغسل⁽¹⁾ مرتين في الاسبوع زي ما

هل للمدام نجوى والست هدى؟

فيما مضى لم يكن لوتو بهذا الضعف والهوان. كان شاباً واعداً وفخرًا

عائلته، ذا جسم رياضي وأمهر لاعب كرة شراب في المنطقة. وهو مراهق كاد

أنه يطير فرحاً يوم علم بوجود اختبارات في نادي الزمالك، النادي الذي

منه بجنون وخاصة النجم حسن شحاتة. تقدم بالفعل للإختبارات ولكن

ان بنقصه حذاء رياضي. قضى ليلته حائراً حزيناً ففطر قلب والده فصعد إلى

البن وأخبرها فأعطته حذاءً قديماً لابنها سعيد ماركة «لوتو» ومن هنا حصل

هل لقبه الذي لازمه حتى الآن. نجح في اختبار المهارات لكنه فشل في اللياقة

بسبب ما يعانيه من سوء التغذية والتدخين وشم الكلبة منذ الصغر.

عاد يومها نائراً ليجد والديه وإخوته على الطبلية لم يتناولوا طعام الغداء

طرين عودته بالأخبار السعيدة. وما إن دخل حتى نظرت إليه العيون المتلهفة،

ها كان منه إلا أن ركل الطبلية مبعثراً الطعام على ملابسهم وعلى الأرض.

اتهم أمه بالإهمال وعدم الاهتمام بنظافة الغرفة؛ فتراكم التراب على رتيبه.

الأم والده على فقره وعدم قدرته على إطعامه الكثير من اللحوم والدجاج مثل

أمي سكان العمارة. ثم صفع أخته واتهمها أنها مريضة ونقلت إليه الأمراض

التي منعتة من تحقيق حلمه. ظل يكيل السباب للجميع وعندما نهره الأب

(1) قصد غسل الكل.

أوشك على رد سبابه، فما كان من أخيه الكبير إلا أن انتفض وصفعه صفقة لم ينس صفيها في أذنيه حتى الآن.

اندفع لوتو من الغرفة وصعد إلى السطح واعتلى السلم الذي يصل إلى خزان الماء العملاق وقام بالتبول داخله وهو يسب سكان العمارة جميعاً وبعد أن أفرغ مثانته اتجه إلى غرفة مهجورة بالسطوح حيث كان يلصق على جدارها الخارجي بوستر لحسن شحاتة وانهار أمام صورة مثله الأعلى وصعد فوق السور ولكنه كان أضعف من أن ينتحر.

- 3 -

لم يزر شريف نجوى منذ فترة طويلة. وبالرغم من أنها أخت جده، فإنها تبدو وكأنها في الخمسينيات من عمرها. نجوى سيدة مجتمع كما قال الكتاب. خضعت للعديد من عمليات التجميل ودره جلسات التجميل في نادي الجزيرة. في اليوم التالي استأذنها في التليفون قبل أن يزورها ليتأكد من وجودها قبل أن يصعد إلى شقتها. فتحت له الباب وقبلته على وجنتيه ومشى وراءها عبر أدغال التحف والأنتيكات والسجاد الذي لو اختل توازنه وسقط لابتلعه من فرط عمقه؛ ليصل إلى الصالون المزدهم بأطباق من الصيني المعلقة على الجدران وجلس على طقم من الأوبوسون⁽¹⁾ المزدان برسومات تعود للقرن الرابع عشر.

(1) Aubusson مدينة فرنسية صغيرة اشتهرت في القرن الرابع عشر بالفروشات والسجاد.

سألته ماذا يريد أن يشرب. نظر بتلقائية إلى ما كان يومًا ما بارًا صغيرًا
..فقلًا وتحول مع الأيام إلى منضدة عليها بعض نباتات الظل. أجاب شريف
واللّا نسكافيه. نظرت له وقالت:

"le nescafe c'est pour les racailles, Je vais te faire un peu
du thé"⁽¹⁾

لم يفهم شريف ما قالته ولكنه ابتسم وهو يهز رأسه وكأنها هو يوافقها
نأما على كل كلمة قالتها. طلبت نجوى من الخادمة الإفريقية شيئًا ما
مرنسية سليمة فعادت الأخيرة بعد قليل ومعها فنجانان من الشاي في طاقم
ابموج⁽²⁾. وفي أقل من عشر دقائق كان على المائدة أطباق وفناجين عليها
سومات وشوك فضية. أمسك شريف بإحدى الشوك وقلبها ليتأمل الماركة
المنقوشة عليها. قاطعته نجوى: «كريستوفل».

- شيك قوي بيتك يا طنط.. طول عمرك princess.

- إنت ناسي أنا بنت مين وانت حفيد مين؟ فين نوال وسامي؟

- بابا وماما بيلفوا العالم.

- très étrange, pourquoi?⁽³⁾ من إمتى سامي بيسفرّ نوال برة

مصر؟.. تلاقيه بيضحك عليها ومقعدها في شرم الشيخ.

- لا يا طنط. أنا ماما مكلماني من Paris وطالعين على إسبانيا وبعدين كينيا.

(1) النسكافيه ده للرعاع، أنا هاعمل لك شاي.

(2) Limoges اسم مدينة فرنسية اشتهرت بالخزف الصيني.

(3) غريب جدًا.. لماذا؟

- وأبوك هيصرف كل ده؟.. دي أكيد شورة مامتك.

في خلال الفترة القصيرة الماضية تأكد شريف أن هدى ونجوى لا تحبان والده حقًا.

كيف لم يلاحظ هذا من قبل؟

يبدو أن عودته قد فتحت العديد من الجروح أو للدقة عودته فتحت عيونته على غبار العلاقات العائلية والذي تم كمنسه ووضعته تحت سجاده الزمن التي سيضطر لنفضها وكتم سعاله حتى يتم له ما يريد.

لا صوت يعلو فوق صوت سوط الديون وفضيحة الإفلاس وصفعه والده وصوت هشام عباس مرددًا أسماء الله الحسنی.

وضعت نجوى ساقًا فوق الأخرى وهي تقول بحزم وهدوء إنها لن تبیع بيت والدها وأن عليه أن ينسى هذا الموضوع تمامًا وأن يجبر هدى أن تتوقف عما تفعله.

أسقط في يد شريف من هذا التحول المفاجئ في مجرى الحديث وقال لها إن جدته لا تعلم شيئًا عن الموضوع ولا يفهم لم تم الزج باسمها في هذا الشأن. هدت نجوى قليلاً وقالت:

- جدتك برضه بعنتت خالك سعيد علشان يطردني من بيت أبويا ويورثني بالحياة.

- تيتا ماتعرفش أي طالع.. وبعدين أنا مش عايز أورث حضرتك... أنا بقول نمشي السكان و حضرتك تبيعي العمارة.

انت وخالك ما بتفهמוש..ده مش بس بيتي...أنا اتولدت هنا
اموزت وخلصت هنا. الصالون اللي أنت قاعد عليه كان بيحدد عليه
...م السباعي ومصطفى أمين وعبد الحليم حافظ...إنت محتاج فلوس؟
شغال في إيه دلوقتي؟
لا أنا مريح شوية.

ممكن نفتحك صيدلية في أي حطة تعوزها.. ترخيصها مالكش دعوة..
أها جيبهولك.

ارتسمت على وجه شريف كل ملامح التعاسة الإنسانية والإحباط. لقد
صرخا من خيال فهوى. ابتسمت نجوى وهي تقرب من شريف محاولة
مبف الأمر عليه قليلاً:

يا شريف.. أنا عارفة انك بتموت في خالك الله يرحمه..إنت كنت
جيب لعبك وتحدد معاه في الأوضة بالساعات..مش عايزة أبوظ لك
الصورة بس انت كبرت وانت اللي فتحت الموضوع ده..خالك كان عايز
صريح الهدم بعد ما السقف وقع في شقة تمانية وجاب ناس من الحي يعملوا
ميرير هندسي مزور وحد من جوه ضرب له عقد ان البيت باسم شريف
أخويا مش باسمي..يعني عايز ياخذ البيت مني وياخده هو ومامتك.

خرج من عندها وهو شبه مخمور مما سمع. صحيح أنه يعلم أن عائلته لم
مكن العائلة المثالية ولكن ما سمعه صدمه بشدة. فهو الآن يواجه احتمالين
أحلاهما مر.

الاحتمال الأول: أن تكون نجوى كبيرة العائلة كاذبة.

الاحتمال الثاني: أن يكون خاله متورطاً بالاشتراك مع جدته أو بدون اشتراكها في خطة قديمة لسرقة إرثها.

نزل إلى منزل جدته بالدور الأرضي ليجدها تتابع مسلسلًا ما مدبلجًا. قرر أن يواجه جدته بكل ما حدث. استمعت إليه بهدوء لتبدأ في البكاء الصامت فجأة.

ارتبك شريف ولم يدر ماذا يفعل، وتناقلت أنفاسها وجاهدت لتخرج كلماتها مفهومة ما بين السعال وضيق تنفسها. حاول شريف أن يهدئها ولكنها رمت يده بعيداً وقامت بصعوبة لتواجهه قائلة:

- إنت ازاى تعمل كده من غير ما تقولي؟ الكلمة دي قلتها لسعيد ولأمك وهقولها لك.. إحنا ضيوف عند الست دي.. الست دي ماخدتش مني مليم إيجار طول الأربعين سنة اللي فاتت.. نجوى هي اللي اشترت لأمك فستان الفرحة علشان ماكنش معانا فلوس... نجوى هي اللي اتوسطت ليك أنت واختك في المدرسة.. لولاها كان زمانك مع ولاد البوابين في المدرسة اللي دخلها لك أبوك... عايز تقعد هنا تقعد وانت عارف انك ضيف عليا وانا وانت ضيوف عليها.. ومن الليلة دي مافيش رجوع سكران في وش الفجر... الباب ده هيتقفل الساعة حذاشر... جيت بعد كده تبات مطرح ما انت متلقح.. فاهم؟

الفصل الرابع

- 1 -

«أيوه باتكلم عربي..أنا مصري»...سلم سامي ونوال على الرسام في الحي اللاتيني بباريس. دار السؤال كالعادة عن أحوال مصر فاقتصر جواب سامي على كلمة «زفت». تبادلوا النظرات على هذا الرصيف المزدحم بالسياح الرسامين والمدعين ثم ضحكوا جميعاً فرددت الشوارع صدى ضحكاتهم. جلس سامي ونوال على كرسيين خشبيين أمام الرجل الذي أخرج فرخاً أبيض وأقلام رصاص وألوان باستيل. واستعد ليرسمها. سألهما الرسام المصري الذي تعرفا عليه بالصدفة بعض الأسئلة من باب تسلية الزبون وكأنه حلاق «وانتم بقى جاين في شهر العسل؟».

تبادل سامي ونوال النظرات وضحكا بشدة وضحك معها الرسام من دلماته المجاملة الأخيرة والتي يرددها لكل من تحطى الستين. تبادل سامي النظرات مع زوجته وأمسك بيديها وهو يحاول أن يعود لنفس الوضعية «إنت عارف إن ده أول شهر عسل لينا بجد».

تأمل الرسام الزوجين بابتسامة عريضة وقال وهو يضع أحد الأقلام في فمه كي يبدو أنه رسام قراري: «للأسف المصريين مايقدروش الانبساط، يقدرُوا المزاج». قام من كرسيه ليحضر المزيد من الأقلام من حقيبة جلدية عليها بقع لونية وأردف: «الفرق بينهم كبير، المصريين عايزين يقعدوا في مكانهم وما يشتغلوش ويمحششوا علشان مزاجهم يبقى سليم، أما الانبساط فده بيبقى عايز ناس تتحرك وتساfer وتغامر وتشوف حاجات جديدة».

هزت نوال رأسها موافقة وهي تقول: «إنت بقالك كثير هنا في باريس؟». نظر الرسام لأعلى وكأنه ينتظر الإجابة من لافتة الشارع ثم قال بعد فترة قصيرة من الصمت: «عشر سنين دلوقتي هنا في فرنسا، العمر بييجري، بس في مصر العمر مالوش معنى، اللي عنده عشرين سنة بيفكر زي اللي عنده سبعين».

انتهى الرسام من اللوحة التي كانت معقولة إلى حد ما، لن توضع في متحف اللوفر، كما أنها لن تلقى في سلة المهملات أيضًا، ولكنها ستكون دليلًا أمام العائلة والأصدقاء على أنها قد ذهبا إلى الحي اللاتيني ورسمها رسام بوهيمي هناك. وبينما هما يتسكعان في شوارع الحي اللاتيني لاحظت نوال أن سامي صامت.

- شريف وحشك؟

-

- خلاص بقى.. هو أكيد عرف غلطته دلوقتي لما لقي نفسه لوحده.

· يقول لك إيه؟ سيبك من ابنك ده... يللا بينا نرجع الشانزليزيه^(١)...
١. هافرتك الفلوس اللي كنت محوشها لصيدلية المحروس ابنك.. إحنا كنا
مارمين نفسنا ليه؟
- خلاص اللي تشوفه... بينا يا حبيبي.. أنا هافرتك لك الفلوس وارجعك
١٠. يون كمان لو عايز.

- 2 -

هذه المنطقة العشوائية خارج سيطرة وحسابات الدولة المصرية. المواليدي هنا لا يتم استخراج شهادات ميلاد لهم تهربًا من التجنيد أو لعدم جدواها. بعض سكان المنطقة لم يخرجوا منها طوال عمرهم فدفنوا فيها أحياء وأمواتًا. الكهرباء مسروقة والخدمات معدومة والسكان سُلبوا الإرادة ومنتهى الأمل هو ألا تموت اليوم.

خاضت سيارة دفع رباعي أدغال المنطقة وهي تثب برشاقة فوق برك الطين وتمخر في شوارع تغطيها المجاري حيث يلهو البعوض ويتكاثر الأطفال. وكلما ابتعدت المنطقة عن العمران ضاق الرزق والحواري حتى توقفت السيارة في مدخل الحارة الضيقة لتصيها بجلطة. نزلت فاطمة حاملة كيسًا أسود اللون صغير الحجم ومعها سائق الباشا واتجهوا إلى منزل

(١) أحدهم شوارع باريس.

يكاد يكون مهودماً. صعدا على سقالات إلى الدور الأول. قام الرجل بقرم الباب لتفتح لها فتاة اجتهدت في تبييض بشرتها بلا طائل مرتدية زياً فاضحاً دخلت فاطمة وقبلتها الفتاة التي كان جسدها يشبه علامة الاستفهام بسبب سوء التغذية وانحناء عمودها الفقري. تبخترت الفتاة أمامها كالبطة العرجاء وقادتها إلى غرفة معبأة بالدخان. جلست فاطمة والسائق بجوار مضيفهما والذي كان شاباً في الثلاثينات يرتدي بنطلون جينز وقي شيرت ويبدو من طريقة كلامه أنه قد تلقى قدرًا لا بأس به من التعليم. أشار برأسه للفتاة فغابت ثم حضرت ومعها أربع حقائب صغيرة مصنوعة من النيكل اللامع فبدت كأنها صناديق صغيرة من الفضة.

فتح الشاب الحقائب أمامها لترى المنظر المعتاد لقطيفة أرجوانية اللون تغطس فيها قطعة كبيرة من حشيش ذي لون أخضر غامق للغاية ومختوم بختم ما. أعطت فاطمة الكيس الأسود للشاب.

- تم على فلوسك يا ابني.

ابتسم الشاب وأخرج ما في الكيس ليبدأ في عد رزم الأوراق النقدية باحترافية وسرعة، وهنا أتت الفتاة ذات الملابس الفاضحة واتجهت للمجمر في ركن الغرفة ووضعت قطعة حشيش بداخلها فنفتت دخانها في الغرفة كتنين حنون يحكي حدوته قبل النوم لصغاره.

- سمعنا أوامر يا حجة فاطمة إننا نقفل المصلحة خالص كمان كام شهر.

- يمكن محتاجين الناس تفوق شوية.

فيه حد من جوه بيوضب حاجة للبيه الصغير.

ماتدخلىش في السياسة.

ده انتي السياسة كلها يا حاجة فاطمة... هو انتي فكرك أنا مش عايز
|| اس تفوق؟.. ياريت.. مستغربة كلامي؟.. أفهمك.. لما الناس تفوق
.. تغل هتكسب.. ولما تكسب يبقى الحشيش مزاج مش مهرب ولا إدمان..
• بي هيشرب أقل بس صنف أعلى ومكسبي يزيد. بدل ما ابيع الأصناف
|| كة واخلط.. هبيع أقل بمجهود ومخاطرة أقل ونفس المكسب. حد يكره؟
لم ترد فاطمة وشكرته وعادت مع السائق إلى السيارة ومعها الحقائق
|| هي تحتوي على طلبات البهوات الكبار، لزوم حملاتهم الانتخابية وتوزيعها
مل كبار العائلات. غداً ستقوم هي بشراء كمية أخرى من الحشيش الرديء
او زيعه على سيطرة الأصوات الانتخابية علاوة على شرائط الترامادول
• الفياجرا المستوردة وتقليدها محلي الصنع.

دارت كلمات الفتى في رأسها ولم تستطع أن تنكر أنها هي شخصياً قد
فلقت بعد أن تنامى إليها أن هناك اتجاهًا لمنع الحشيش. هل هناك من يدبر
شيئًا ما للباشا الصغير؟ أم أن المنع تم بعلمه وهو الذي يريد أن يبدأ عهده
في الحكم دون حشيش؟ لن يستطيع التحكم في مصر دون مخدرات.. هكذا
حدثت نفسها.

الإشاعات المقلقة تملأ أروقة الحزب وقد أقلقت الباشا نفسه، هكذا لمح
لها في أكثر من مناسبة أن الجليل الجديد في الحزب سيأخذ مصر إلى هاوية

بلا قرار. البهوات الأصغر لا يلاحظون الفقراء، فيتحدثون بحرية في أمور خطيرة أمام السعاة وصغار الموظفين وكأنهم هاموش لا يسمع ولا يعقل. نظرت إلى السائق الذي كان قد انتهى من لف سيجارة بطريقة احترافية وهو يقود السيارة في نفس الوقت. كانا قد وصلا إلى حدود مدينة نصر وما إن أشعل سيجارة الحشيش حتى وجدا أمامهما سيارة شرطة.

- 3 -

في هذا الوقت من الليل تبدو أروقة ماسيرو وكأنها خارج الزمن. في هذا المبني هناك أكثر من أربعين ألف موظف ما بين عمال مصاعد ومذيعين ومعدنين ومحاسبين ومحاسبين ومخرجين ومخبرين لأكثر من جهة. الجيل القديم من العاملين في وزارة الإعلام يطلقون على منصور جاد الله الرجل الحقاني «أبو ناب أزرق»، أما «الطبال العجوز» فهو لقبه بين أبناء ماسيرو من الجيل الجديد خصوصًا الشباب الجديد الذي يعمل في القنوات المتخصصة والنائل تي في.

اتجه منصور إلى أحد استوديوهات الإذاعة وحيًا مهندس الصوت وجلس بجواره ليراقب منال، حبه الأول والوحيد، من خلف الزجاج العازل للصوت وهي تحتّم برنامجها الإذاعي. مازالت محتفظة بجماها رغم تحطيمها الخمسين عامًا.

سئل إليه صوتها المخملي والذي قال لها يوماً إنه يذكره برائحة مسك
الربما لأن أول مرة رآها كانا في حديقة فيلا أحد أقربائه في الإسكندرية
تلك الرائحة تراقص النسيمات وتلهب الهرمونات. ليلتها بدأت قصة
التي استمرت قرابة الثلاثين عامًا.

كانا على وشك الزواج حتى كان هذا اليوم المشئوم. فبينما كانا يمشيان
أحد شوارع وسط البلد يرسمان الأحلام ويختلفان على أسماء أطفالهما في
المتقبل، اقتربت فتاة من منصور وحيته وأخبرته كم هي معجبة به وأنه هو
السبب الوحيد لمتابعتها نشرة الأخبار.

فرح المذيع الشاب وقتها وهو يجني ثمار الشهرة ولكن شوك الغيرة أدمى
رامة منال التي لم تدر حينها هل هي تغار على منصور أم منه.

في الأول ابتسم منصور عندما لمح ما يدور بخلداه مرسومًا بعناية على
ملامح وجهها التي تغيرت وصوتها المرتعش ومزاجها الذي انقلب رأسًا
على عقب. ابتسم منصور وهو يحاول أن يبسط الأمور ظنًا منه أن هذه هي
غيرة الحبيبة على رجلها. ولكن مع احتدام النقاش شعر أنها غيرة من شهرته.
بومها ارتكبت منال خطأ عمرها التي لا تزال تندم عليه حتى الآن؛ ففي
وسط انفعالها قالت لمنصور إن مقدمة البرامج بالإذاعة لا بد أن يكون لديها
مهارات تواصل مع المستمعين وأن تكون مستعدة للمفاجآت التي قد تحدث
من المكالمات التليفونية، أما مذيع نشرة الأخبار فهو رجل يحصد الشهرة من
عمل تافه يستطيع أي «حمار» أن يقوم به.

وقف مذهولاً مما سمع وقد أصابته الكلمة في مقتل. نظر إليها وقد انما قراراً لن يرجع فيه بتركها. حاولت أن تعتذر. أوقف سيارة أجرة وبينما هما في طريقهما لمنزلها ترجته وهي تبكي أن يغفر لها زلة لسانها ولكنه ظل صاماً طوال الطريق بينما يختلس سائق التاكسي النظرات إليهما وقد رق قلبه لمنال التي لم ير امرأة تذلل نفسها إلى هذا الحد وكاد يقتله الفضول لمعرفة أي خطبه ارتكبتها هذه الفتاة لتعامل بهذه الطريقة. مازالت تذكر آخر كلماته إليها بعد أن توقفت السيارة أمام منزلها.

- الحمار الحقيقي يا منال هو اللي يخاف من الجديد.. الراديو قدامه بالكثير خمس سنين خليكي قاعدة مستخية ورا مايكرو فون... أشوف وشك بخير. وتمر السنوات ويتزوج منصور وينجب ولدين وبتاً وتتوفى زوجته ليعود لها الأمل وهي التي لم تتزوج لأنه ببساطة لم يتقدم لها رجل مثله. وصل إلى مسامعها شائعات وكلمات من البعض بأن منصور يهوى الفتيات الصغيرات وأنه قد شوهد أكثر من مرة بصحبة مراهقات في عمر ابنته.

لم تستمع إلى كل ما قيل حتى يئس الشامتون وضجر النصح وفرحت بنفسها حين عادت عشيقة في السر ثم ترقى إلى عشيقة في العلن بعد أن توفيت زوجته.

عندما رآته ابتسمت وطلبت من مهندس الصوت أغنية نجاة «أحلم معاك» وأهدتها في قلبها لمنصور الذي تراه حتى الآن شاباً يافعاً رغم اقترابه من الستين عاماً. قامت منال من مكانها ووقفت على الناحية الأخرى من الزجاج وهي تشير لمنصور بكفيها الرقيقتين فرد عليها بابتسامة وقورة.

م مهندس الصوت وتشاغل بشيء ما حتى لا يجرجهما. وبعد أقل من
م ساعة كانا في محل «بابريكا» الملاصق لمبنى التلفزيون هو يأكل وهي
تُر وكل فترة يلقي بتعليق يفجر ضحكاتها.

سألته عن أحوال البلاد فقال لها إن الحكومة الجديدة مكونة من وزراء
.. ماف الشخصية. «الكرسي كبير عليهم» هكذا قال الجملة فخرجت من
.. نه بمتهى الثقة فصارت يقيناً لن يتزحزح لديها. سألتها عن برنامجها
.. اءوب حائرة» فأخبرته عن المكالمات والخطابات التي تلقتها في الأسبوع
.. ااضي فاستمع إليها بلا اهتمام حقيقي. شكت له بأن برنامج أسامة منير
.. انلك الإذاعة الجديدة⁽¹⁾ يقلدها كما فعلت بثينة كامل قديماً في برنامجها
.. امنافات ليلية».

أوما برأسه موافقاً ومضغ كلماتها ببطء مع قطعة اللحم وتأمل الناس
مل الكورنيش. ما لم يستطع البوح به لها أنه علم من مرشديه أن هناك قراراً
.. خروجه على المعاش قريباً فهناك قوة ما تصر على الإطاحة بكل الوجوه
القديمه من التلفزيون وخاصة الوجوه التي ارتبطت بحسني مبارك.

لسنوات وهو يؤجل زواجه من منال حتى يستطيع الحصول على عمل
.. اء إحدى القنوات الخاصة فمرتبته والمعاش يكادان يكفيانه وزمن المكافآت
دون حساب قد ولى بعد آخر تغييرات في ماسبيرو.

ظل لشهور مرتبكاً ومتخبطاً حتى وجد شريف أمامه فعاد إليه الأمل في
وجود وسيط بينه وبين نجوى كي يتنازل عن الشقة وبثمنها يتدبر مصاريف

(1) نجوم إف إم.

فرح سيدعو إليه كل العاملين في الوسط الإعلامي ومنهم زملاء تركوا ماسبيرو وبدءوا يتقاضون ملايين الجنيهات من المحطات الفضائية وهم يراهم أقل موهبة منه.

هذا الفرح الذي سيدعو إليه صفوة المجتمع وما سيتبعه من تصريحات صحفية عن أقدم قصة حب في ماسبيرو ستعيده حتماً إلى الأضواء. ما أروعها من نهاية يتوج بها مشواره المهني وقصة حبه. وعندما خرجا من بابريكا استقبلها هواء الليل القادم من النيل ورذاذ من بشر. تأبطت منال ذراعه في الشارع ولم يتعرف عليهما أحد.

- 4 -

- سلامو عليكم يا بنت عمي.

استدارت سلمى لتجد مرزوق بسخافته وسماجته وصلعته يحدق فيها. تكاد تقسم إن ابن عمها من فرط غبائه وشراسته يستطيع التفاهم مع كلاب الشوارع وفهم لغتها.

- أهلاً يا مرزوق.. اتفضل اتفضل... أخبار شغلك إيه؟

- مشيت وسبت لهم المكان.

- وهتعمل إيه؟

· إنتي بتكلمي وكان شغلانة الشاورما دي أملة قوي.. عمال بابيع
إي ساندوتشات دهن وطهاطم بخمستاشر جنيه للعيال السيس بتوع
الهندسين... استحرمت اللقمة.

· إيه الضمير ده كله؟

لم تستطع سلمى حتى الآن تقبل حقيقة أن هذا الكائن البشع ذا الرائحة
المعطنة يمثل كل ما تبقى من عائلتها. انقرضت عائلة المصري ولم يتبق إلا هي،
هذا النوع غير النادر من الفصيل البشري «مرزوق» الذي يسعى للتزواج
ممعاً في عش يفتس فيه بيضه.

تأملت هذا الانتهازي الفاشل الذي لم يحاول حتى أن يلعب على عواطفها
أو بداري طمعه فيها. كان واضحاً وصریحاً ووقحاً. هو يريد أن يتسلقها
امتاعياً وينتقل من الحي العشوائي الذي يقطن فيه إلى إمبابة الحي الشعبي.
افترب منها قائلاً وقد لفحتها رائحته القذرة:

.. فيه محامي زبون كان ببيجي مع مراته وبنته ياكلوا من محل الشاورما
اللي شغال فيه كل يوم ثلاث.. اشمعنى الثلاث مش عارف... المهم بعد ما
اهبت له ساندوتشات وصاية حكيت له عن مكتبة عمي الله يرحمه وبيت
امبابة برضك بتاع عمي الله يرحمه.. وقال لي حسب شرع الله أنا لياً نص تركة
أو كي... نص بيت إمبابة... هي المكتبة دي إيجار قديم ولا تمليك؟

.. وشرع الله بيقول انك ترميني في الشارع يا مرزوق؟ بدل ما تديني،
مايز تاخذ مني؟ يا مرزوق إحنا مش خلصنا من موضوع الورث ده من
إمان؟.. وإنت قلت عيب اخرج بنت عمي من بيتها ولا محل أكل عيشها!

- هو عيب آه.. بس خايف من ربنا علشان مانفذتش شرعه وأخذت ورثي

- مش إنت قلت أنا مسامح؟

- أنا كنت مسامح يا سلمى والله، لحد مالقيت شريك مستعد يدفع مصاريف المحامي... إنتي هنا ولا حتى في بيتك في إمبابه مش حاسه بحاجة.. إحنا في الدويقة بيقطعوا الكهبربا علينا كل يوم خمس وست ساعات علشان مدينة نصر والعباسية يشغلوا التكييفات بتاعتهم وبيقطعوا علينا المياه علشان إمبابه وبولاق يتشطفوا.. وبعدين مجاريكم تطفح علينا.

كانت تعلم إنه لا فائدة من نقاشه أو محاولة أن تجعله يتفهم ظروفها وأنها وحيدة. إرثها من والدها الذي يريد مرزوق مقاسمتها فيه هو آخر أمل له في هذه الدنيا. مرزوق هذا الهاموشة البشرية لم ينل أي قسط من التعليم أو التربية. دخلت والدته السجن بسبب عدم قدرتها على سداد كمبيالات مبلغ كانت قد اقترضته لتجهيز أخته. لم تمت من قهر الحبس بل من الحزن بسبب عدم اهتمام زوجها عم سلمى أو أي من أبنائها أو حتى ابنتها وزوجها بتسديد المبلغ. وحين تدبر والد سلمى إقراض أخيه المبلغ ليفرج عن زوجته كان أمر الله قد نفذ وتوفيت السيدة ولم يعد والد مرزوق المبلغ لأخيه. وبعد هذا الموقف بشهور دخل والده لينام ولم يستيقظ تاركًا مرزوق وحده في هذه الدنيا. فشل مرزوق في كل شيء حتى في السرقة وتجارة المخدرات وفصل من كل عمل التحق به.

ظلت سلمى صامته وتصنعت الانشغال بتفحص بعض الأوراق حتى شعرت بكف مرزوق تلامس يدها فابتعدت عنه في اشمزاز وكان برصًا قد

١٠١م على شعرها. ابتسم مرزوق ليكشف عن أسنان سوداء وهو يقول وقد
ل عينيه.

اطلبي لي حاجة أكلها يا بنت عمي.. بس على حسابي.. أنا مارضاش
٥. مني مرة.

عيب يا مرزوق... إنت ضيفي.. تاكل إيه؟

أي حاجة إلا الشاورما علشان زهقت منها.. عايز ساندوتش بطاطس
٥٥. كاتشاب كثير.

كاتشاب يا مرزوق؟

- أعمل إيه؟ عودوني عليه صحابي ولاد الحرام.

- 5 -

استطاعت فاطمة أن تحتفظ بهدونها أمام لجنة الشرطه التي كانت تترصد
صيدها في منطقة استراتيجية لتصطاد من يخرج من هذه المنطقة كصيادي
الأنهار الذين ينتظرون الأسماك في الأماكن التي يضيق فيها مجرى النهر
لتتجمعون ويصبح صيدهم أسهل.

رمى السائق سيجارة الحشيش وفتح الشبايك لتهوية السيارة من
الضباب المحرم قانوناً والمشرع اجتماعياً وطلب من فاطمة التزام الهدوء.

أوقف أمين الشرطة السيارة وطلب منها بطاقات إثبات الشخصية.
أخرجت فاطمة من صدرها محفظة صغيرة وكارنيه الحزب الوطني وأعطته إياه.

تطلع الأمين ذو الشارب الكث في أوراق الثبوتية ولفت نظره أن ا١١
السيارة كانت مكونة من رقمين فقط. هناك عرف سائد أن السيارات المر
تحمل لوحات لنمر أقل من ثلاثة أرقام هي بالتأكيد لشخص ذي حيثة في الباء
تطلع الرجل داخل السيارة وتبادل نظرة مع السائق الثابت الأعصاب
ثم رنا إلى فاطمة التي ابتسمت له وبعد ثانية بدت كالدهر بادها الابتسام
وهو يعيد الأوراق إليها قائلاً للسائق بحسم ومودة في نفس الوقت إن ١٠٠
رخصة السيارة أوشكت على الانتهاء.

هنا فتح السائق درجاً في السيارة وأخرج ثلاث حبات زرقاء^(١) وأعطاهما
للأمين الذي التهب لسانه من الشكر وهو غير مصدق أن بين يديه الآن ليه
لن تُسحق فيها رجولته أمام زوجته كالعادة. أشار الأخير الذي انتصب
سلسلة ظهره للسيارة كي تمر بتحية شبه عسكرية.

عبرت السيارة الكمين وأوقف الأمين توكتوك يقوده صبي بدون رخصة
ولا يحترم قوانين الدولة، ومعه راكب ملتج سكون من نصيب أحد الضباط
يا موزع الأرزاق!

تعبر السيارة الآن فوق أسفلت حريري يحمل وجوهاً باسمة وأيدي
ناعمة وسيارات مكيفة. المسافة ما بين الأحرش التي كانا فيها وشارع عباس
العقاد قطعتها السيارة في خمس دقائق وعبرتها الإنسانية في مئات السنين.

تأملت فاطمة فتاتين تقفان بجوار سيارة بها شابان ويبدو أنها يتفاهمان
على شيء ما. استغفرت فاطمة رها وهي ترى عاهرتين تفاوضان أحد

(١) في الأغلب نياجرا أو تقليدها نيجا.

١٠٠. السيارات على شيء ما. فاطمة تستطيع التعرف عليهن حتى وإن
١٠١. عكس ذلك. للعاهرات رائحة العطور المقلدة وأنفها لم يعتد العطور
١٠٢. رائحة قط. استغفر السائق ربه بدوره بصوت عالٍ وكأنه يتمنى أن يصل
١٠٣. إلى الفتاتين.

أهاليهم فين البنات دول يا حجة فاطمة؟

ما انت لسه جاي من عند أهاليهم.

١٠٤. اتسم السائق وهو يوافقها الرأي. شرع في لف سيجارة حشيش أخرى
١٠٥. و يقول إنه يلتمس العذر لأهالي العشوائيات في كل شيء. أعطى
١٠٦. سيجارة لفاطمة التي أشعلتها وغيرت محطة الراديو من القرآن الكريم إلى
١٠٧. محطة البرنامج العام وغنت مع شادية أغنية ما صدحت عبر الأثير. قال لها
١٠٨. نائق:

١٠٩. الناس الزبالة اللي كنا جوه عندهم دول مظلومين وولاد ستين كلب.
١١٠. منهم هيبقى حاجة؟ أو نفسه أصلاً يبقى حاجة.. حد منهم كل قنطاقى^(١)
١١١. ل كده.

نظرت فاطمة إلى حيث يشير السائق لتجده يشير إلى مطعم دجاج كتناكي
١١٢. فطلبت منه أن يقف أمامه حتى يتناولوا الطعام منه. قال لها السائق بنبرة حاول
١١٣. أن تبدو صادقة إنه لم يكن يقصد. أصرت فاطمة وحلفت بأغلظ الأيمان أنها
١١٤. إن ترضى إلا أن يحضر لها ولأولاده طعاماً من هذا المطعم. قالت له وقد وقفا
١١٥. أمام المنزل بعد أن شدت نفساً من السيجارة.

(١) يقصد دجاج كتناكي.

- معلش تنزل إنت تحيب لنا الطلبات.. أصل أنا مش لابسة العباء،
الشيراتون النهارده.

ضحك الرجل وأخذ منها النقود وتركها في السيارة وحدها تغرق نفسها
في دخان الحشيش الفاخر وهي تغني مع شادية.

في اليوم التالي وقفت فاطمة على باب مكتب الباشا بالحزب وطرقته و،
إن سمعت الصوت يأذن لها بالدخول حتى فتحت الباب الكبير ودلف
إلى المكتب. ابتسم الباشا وداعب الفراش الذي كان يحضر له القهوة وأم،
لفاطمة بفنجان من البن المخصوص. جلست فاطمة وهي تحاول استنتاج
لماذا طلبها الباشا في هذا الوقت المبكر.

- فاطمة.. فاكرة القاضي اللي إنتي اتخافتي معاه في الانتخابات اللي
فاتت؟ الظاهر إن فيه صحفي صورك انتي وزمايلك وانتو بتعلموا على
الورق وصور خناقتك معاه.

اضطربت نبضات قلبها وجف حلقها فلم تقوَ حتى على التلثم. كلام
الباشا على أحسن الفروض يشير إلى أنه ينوي الاستغناء عن خدماتها. رحمها
الرجل من الاسترسال في أفكارها السوداء وأردف قائلاً:

- الصحفي ده محتاج نقنعه إنه يصرف نظر عن الموضوع ده. ممكن كمان
نديله فضيحة لوزير سابق.. ولا اقولك وزير حالي ونظيره من الوزارة.. يلا.
ارتاحت فاطمة لأنها على الأقل لن يتم الاستغناء عنها الآن، بحثت عن
ريقها فلم تجده فخرج صوتها متحشرجًا وهي تقول:

نقنعه إزاي يا باشا؟

ما فيش دم ولا حركات بلدي... ده صحفي وده رأيه وهو حر.

حر إزاي يا باشا؟

فاطمة.. هو ماصوركيش راکعة على سجادة الصلاة جوه اللجنة.. إنتي

م بتزوري انتخابات رئاسية..

أقلقها استخدام كـلمة «إنتي». لا تعلم لماذا تذكرت نفسها وهي طفلة في

المرية، تخشى الغرباء زوار المولد القريب وبالذات بائعة الجبن العجوز. أطفأ
أشياء السيجار وهو يقول:

- عايز عنه معلومات خاصة.. خاصة جدًا.. أنا طلبتك إنتي علشان مش

سامن حد. اللعب بقى على تقيل ومش عارف مين معايا ومين عليا.

أذن لها الباشا بالانصراف وعندما خرجت من مكتبه لم تستوعب جيدًا

الحدث. لقد عهد إليها بمهمة تختلف عن كل المهام السابقة فهناك جهات
سـمـية وغير رسمية اعتاد الباشا أن يعهد إليها بجمع المعلومات.

انتابها شعور بالفرحة المزوجة بالقلق لأن دائرة أتباع الباشا تضيق وهو

دليل على قرب الاستغناء عنه أو ترقيته. المشكلة أن الترقية الوحيدة للباشا هي

الكرسي الكبير فهو أكبر من منصب رئيس الوزراء. انتابها الذعر من أن يكون

هذا هو ما ينوي الباشا عمله. إن في هذا مخاطرة كبيرة ليست عليه فحسب بل

كل بطانته التي تنتمي هي إليها. تخيلت نفسها وهي في بطانة الباشا عندما

يصل للكرسي الكبير فخفق قلبها أكثر. نفضت كل شيء وقررت أن تركز في مهمتها وبدأت جمع المعلومات عن الصحفي من مقر عمله.

ما يميز فاطمة حقاً أنها تستطيع الدخول إلى تلك الشبكة المعقدة من الذين يخدمون الطبقة المتوسطة والعلية في مصر. من الذي يعلم على وجه اليقظة الساعة التي حضرت فيها إلى العمل؟ إنه ليس مديرك أو زميلك بل السائق الذي تعطيه مفاتيح سيارتك. إذا أردت أن تعرف سلوك شخص أسأل بواب عمارة ولا تسأل جاره. البارمان يعلم مقدار تحملك للسكر ومع من تخون زوجتك ومع من زوجتك تخونك. الساعي في العمل يعلم ماذا يرتب للمدير من مصائب وماذا تقول أنت وزملاؤك عن نفس المدير. البهوان يتحدثون بفخر أمام السائق عن تربية ابنتهم بينما هو الذي يوصلها إلى منزل حبيبها مدعية أن عندها درس لغة عربية. الخادمة هي أعلم أهل المنزل بشئونه ومزاجه. لو علم الرجال بماذا تسر النساء بعضهم لبعض أمام عاملات الكوافير لفكر ألف مرة قبل أن يعطي زوجته ظهره متعللاً بكثرة مشاغله. هذه الشبكة المعقدة من الطبقة العاملة تعتبر منور الطبقة البرجوازية.

هم يعلمون حقيقتهم.

وقف التاكسي الذي ينقلها إلى الجريدة التي يعمل بها الصحفي ونقده بقشيشياً ضخماً جعله يلهج بالدعاء لها. وهناك رأت أول نقاط التماس ما بين الصحفي وعالم السلم الخدمي. سايس السيارات الذي بدونه قد تمثل الجريدة للطبع بصفحات بيضاء لأن السادة الصحفيين والموظفين سيقضون

اعامت في رحلة البحث عن مكان شاغر لصف سيارتهم. السائس الذي
،لم البهوات أهميته إلا عندما يغيب عن العمل.

افتربت منه وأعطته بعض أقراص من الفياجرا وكيّسا صغيرًا من
الاجو وأفهمته المطلوب. فتح السائس السيارة لها وبدأ في تنظيفها أمامها.
المقعد الأمامي هناك علبتان من البيرة وعلبة سجائر. فتحت علبة
حائتر لتجد أن أطرافها مقطوعة فاستنتجت أن الصحفي يدخن الحشيش
تتخدم كارتون العلبه في صنع فم الجويتئات. وجدت إيصالات بوابات
مصر الإسكندرية الصحراوي وأسطوانات موسيقى أجنبية وأخرى
مد منير وشيرين وأم كلثوم.

المقعد الأمامي بجوار السائق على الوضع الأفقي مما يدل على أن هناك
التي تركب هذه السيارة. من خبرتها تعرف أن الإناث يتركن عامدات
انزالهن في سيارات رجالهن. فتحت التابلوه لتجد مصحفًا ودليل السيارة
،التالوج الكاسيت وزجاجة عطر رجالي. تشممتها فاطمة بحكم الفضول.
وجدت في الطفاية بقايا جويتئات وسجائر عليها أحمر شفاه. في الدرج
الأيمن استقرت علبة لبان وخمس نسخ من ديوان شعر لشاعرة. غالبًا هذه
هي الأنثى صاحبة أحمر الشفاه على الجويتئات. وأخيرًا وجدت على الأرض
مانورة من محل On The Run مؤرخة منذ أسبوع. وعليها مشتريات باللغة
الإنجليزية لم تفهمها فأخفت الوصل في صدرها. قبل أن تغادر السيارة
،جدت علبة ثقاب عليها اسم بار ما فأخفته بجوار الوصل في الجب العميق.

شكرت فاطمة السائس، وبعد أقل من ساعة كانت في الحزب وقد نادى على أحد صغار الموظفين في جمعية جيل المستقبل. ترجم لها الشاب البيان: «كوبان من القهوة وأربع علب سجائر وواق ذكري وساندوتشان» ثم عملية البيع حوالي الساعة الثالثة صباحًا.

وبمقارنة العنوانين مع علب الثقاب اتضح أن هذا البار يقع بجوار المحل. وبمقارنته بإيصالات طريق مصر الإسكندرية الصحراوي استنتج فاطمة أن الصحفي قد ذهب إلى هذا البار يوم الأربعاء وغادره فجرًا مع فناء في الطريق إلى الإسكندرية فجرًا. قررت في المساء أن تذهب وتتواصل مع الساقى والجارسون والسائس هناك.

لم تكن فاطمة في صراع مع الصحفي ولكنها في سباق محموم مع الأجهزة الأمنية للبهوات الصغار كي تثبت كفاءتها للباشا. وفي مساء نفس اليوم كانت تثرثر مع سائس السيارات أمام بار بالزمالك يتردد عليه الصحفي علمت كل شيء عن روتينه ونوعية الفتيات اللاتي يصطحبهن الأيام التي يتردد فيها على البار. وبطرقها الخاصة استطاع السائس أن يدخل إلى مطبخ البار ويعود بعد ربع ساعة بالبارمان وهو يرتدي اليونيفورم. كان شابًا في منتصف الثلاثينات وسيما نوعًا ما، دست في يده ورقة فئة المائة جنيه فدخل ليستأذن من مديره في راحة نصف ساعة وعاد إلى فاطمة ودخلا معًا زقافًا ضيقًا يستخدم كباب خدمي للبار.

اشعل البارمان سيجارة وهو يتحاشى نظرات الفضول من الشيف الذي
رج من المكتب ليشرب كوبًا من الشاي وسيجارة. تلفت حوله البارمان
المصبي أكثر من مرة وحاول أن يعيد الورقة المالية إلى فاطمة.

بس أنا مبفتنش على زباني.

حتى لو قلت لك انك بتحميمه؟

اعادت له الورقة المالية وزادتها ورقة أخرى من نفس الفئة فحسنت
ده، وقبل أن يبدأ في الكلام توقف ليمر أحدهم وهو ممسك بصندوق
ة. تأمل البارمان وحياء والفضول يقتله ليعرف من هي فاطمة. تجاهله
ارمان ومال على فاطمة.

أنا لو اتكلمت البار ده كله هيولع...بيوت كثير هتتخرب.

صدقني، أنا عايزة أحيمه..

- بس ده أستاذ محترم..هو عمل مصيبة علشان المباحث تدور عليه؟

- أنا عايزة أسأل على واحدة معاه.

- أنهي واحدة فيهم؟

- البنس اللي روحت معاه يوم الأربعاء اللي فات في الفجر..البت اللي
حشش وبتكتب شعر وبتسافر معاه كمان الإسكندرية.

- ما انتم عارفين كل حاجة اهه.

- صدقني أنا عايزة أحيمه.

- أصلها دي واحدة متجوزة... جوزها شغال في البحر ويغيب بالشهور
هي أصلاً إسكندرانية... بيني وبينك يا حجة فاطمة هو مش أول واحد تخو
جوزها معا.. ربنا يستر على ولايانا. المهم أنا مرة كنت بانزل طلبات فسمع
طرايطش كلام عن دكتور اسمه رامي السرساوي في أول فيصل.

- دكتور إيه؟

- كلك نظر يا حجة.. واحدة ست بتعيط مع صاحبها ورايحة لدكتور نسا.

- هم قالوا قدامك كل ده؟

- لأ طبعا... هي دخلت تعيط مع صاحبها جوا الحمام والكلام ده
اتسمع من الست اللي بتنضف الحمام وهي قالت لنا... كارت الدكتور كان
على الترابيزة.. مش عارف غير اسمه.

في اليوم التالي وعلى أحد المقاهي بشارع فيصل سلمت فاطمة ظرفاً
لرجل في منتصف الخمسينات فشكرها وأعطاهما بدوره ظرفاً أصغر،
أسطوانة مدجة⁽¹⁾ وورقة صغيرة وبعدها انتفض واقفاً ليكمل باقي زجاجة
المياه الغازية ليذوب وسط البشر. فتحت فاطمة الورقة وأخرجت محتواها
المكفن في غطاء بلاستيكي كآخر ما تبقى من عادات التحنيط عند المصريين.
واتصلت برقم الصحفي. أتاها صوته المؤلف من كثرة ما سمعته في برامج
التوك شوز.

- مين معايا؟

أنا كنت بس عايزة أستأذن حضرتك أني أقابلك.

ماقدرش أقابلك إلا لما اعرف مين.

مش يمكن تليفونك متراقب؟

تليفوني أكيد متراقب. بلاش نتعب النطع اللي براقبنا وقولي لي الموضوع

ليه؟

الفيلم اللي فيه المستشار محمد الجندي.

بصي يا شاطرة... قولي للنطع اللي براقبنا والأنطع منه اللي باعتك..

م هتفضحوا هتفضحوا.

أنا لو منك ما اتكلمش عن الفضيحة... مش علشانك، علشان خاطر

بيورة شيرين اللي أنت مرافقها.

مرافقها؟! ده انتي أمنجية وسخة بقى.

إهدى يا أستاذ.. بلاش تهب فياً... أنا أصلي عيانه.. ولسة خارجة من

دكتور رامي السرساوي اللي عيادته في فيصل، عارفها؟

سكت الصحفي لثوانٍ ثم أتاها صوته متحشراً.

عارفة البيت؟

وفي الطريق إلى منزل الصحفي علمت فاطمة أنها قاب قوسين أو أدنى

من تنفيذ المهمة. ستهدهه بمعلومة أنه ذهب مع صاحبه إلى إحدى العيادات

الخاصة في الإجهاض وترقيع غشاء البكارة. الطبيب من باب الاحتياط

كاميرا مخبأة ببراعة في صالة الانتظار حتى يفر من باب الخدم إذا ما

داهمت الشرطة عيادته. ثلاثمائة جنيه للتمرجي وكان على استعداد أن يار إليها بأسماء وفيديوهات كل زبائنه.

وبعد نصف ساعة وقفت فاطمة أمام باب شقة الصحفي ترن الجرس. دقيقة بدت كالدهر ولم يُفتح الباب، فقامت بفحص زر الجرس. اتصلت في المحمول، وعندما لم تسمع ردًا بدأ القلق يساورها. عاودت رن الجرس. لتسمع صوت محموله داخل الشقة. ولم يفتح الصحفي الباب حتى يوه هذا.

- 6 -

بدأ الجرسون النوبي المرتدي للجلباب الأزرق والصديري المنقوش، بخيوط ذهبية اللون والعمامة وكأنه خارج من أحد كتب التاريخ. مشى من بوفيه حمام السباحة بنادي الجزيرة حتى وصل إلى نجوى والباشا كانت نجوى ترتدي «مايوه» قطعة واحدة، لونه أسود وترتدي فوق رأسها كاسكيت كالمحاسبين في الأفلام الأمريكية القديمة وكاش مايوه وأمامها الباشا يرتدي مايوه شورت أحمر وتي شيرت أبيض.

كان الباشا منتفخ الأوداج ومزاجه رائقًا رغم ما حدث في موضه الصحفي لأن في جيب المايوه الخلفي هناك محفظة يقبع في أحد أركانها شيا ضخم أعطته له نجوى منذ قليل كعمولة على تخليص إحدى الأراضي. معارفها. لفتت أنظاره فتاة في العشرين من عمرها ترتدي مايوه بكيني أحمر اللون وتمشي بمتهى الثقة حتى وصلت إلى حافة حمام السباحة.

الحمد لله يا نجوى إنك أيام ما كنتي شيخة ماهوتيش ناحية إدارة نادي إنتي والجماعة بتوعك. ده انتم بهدلتم نادي الصيد والشمس، ناس حباي يقولوا تبقى ماشي هناك وكأنك في أفغانستان.

فجأة أنعمت السماء على رواد نادي الجزيرة بإحدى عطاياها. حورية ذات مال أخذت تستطيع بصورتها أن تدحض كل مزاعم الملحدين الملاعين الناكرين لهذا الكون إنها يتقن صنع الجمال. لفتت أنظار الباشا وكل من حول حمام سياحة حتى الغربان الذكور قد توقفوا عن النعيق إجلالاً لهذه الأنثى التي من جواز سفرها اليوناني الغشيم أنها قد تحطت الخمسين من العمر.

كانت هناك شلة من المراهقين والشباب توقفوا عن الكلام لفترة. وجدت بزلونج شاغراً بجوار الشلة فوضعت الحقيبة وقامت بخلع ملابسها ممة حية رشيقة. ود الشباب بجوارها أن يسجدوا لله شكراً كما يفعل أسيب المنتخب المصري عندما يحرزون هدف التعادل أمام فريق ناميبيا في صفيات كأس العالم. شعرت الفتيات الأصغر منها بثلاثين عاماً على الأقل الإحراج والغيرة والحقد. تأملن سيقانها البيضاء الناعمة كعواميد المعابد وجهها الذي أضافت له التجاعيد حول العين رونقاً وشخصية وعيوناً فاء ناعسة تطلق سهاماً منومة، وأحياناً سامة لا يهيم أيهما، فضحايها لم يفوا الفرق حتى هذه اللحظة.

ضحايها أكثرهم من رجال السياسة والمال والفنانين والدبلوماسيين الأجانب والمصريين والعرب. ابتسم الباشا وهو يشير برأسه إلى المرأة قائلاً:
احوى:

- شانتيل..

- دي اتجوزت فكري السيد.

- بتاع السياحة؟

- أخته نازلة في نفس الدائرة بتاعة بيتك.

- وأنت هتنجح مين؟

- الناس اللي بتنجح يا نوجة.. إنتي هتعملي زي الجرايد الصفرا إلا بتقول إن الانتخابات مزورة؟.. أخت فكري وفكري نفسه وشانتيل به، وشوش قديمة والناس زهقت.. مش بيقلوا فكر جديد؟

وانفجر ضاحكًا ليهتز كرشه الأبيض في اللحظة التي رأت شانتيل الباندا فتصنعت الدهشة، رغم أنها تعلم أنه يحضر إلى هذا المكان في مواعيد ثابتة أشارت له بأنامل تجيد عزف البيانو، فأشار لها الباشا بأصابع تجيد التلاعب بمصائر العباد. مشت تبختر بلا كاش مايوه حتى وصلت إلى الباشا، فقام وقبلها على وجنتيها وسلمت على نجوى بوجه بشوش. دار حوار هاد، الكلمات رقيق وكلام لا يحتمل التأويل؛ هي تساوم الباشا على مقعد مجلس الشعب لأخت زوجها، وعرضت عليه مالا ولمحت بأنها من الممكن أن تكون هي شخصيًا الثمن. شعرت نجوى بالضييق من هذه الفجاجة في التعامل، ولأنها تجلس بجوار إلهة الجمال هذه شبه العارية؛ ربما ضايقتها أها النسخة المصرية العجوز من هذه المرأة، والفروق بينهما فروق في الصناء والتقفيل. لن تعرض نجوى نفسها عليه بالطبع، ولن تعرض عليه الرشوة، وهذه الفجاجة؛ فرشوتها يطلق عليها عمولة وهي تقبع في جيب الباشا. أم.

١٠. المرأة فهي عارية الملبس وكلامها مكشوف ورشوتها صريحة، ونحن
مب له عادات وتقاليد لا بد من احترامها. تركتها المرأة وقد وعدنا الباشا
سبرد عليها قريباً فقامت ونزلت مياه حمام السباحة وقد غمرتها المياه في
الفة. ابتسم الباشا كذئب عجوز وردّ على تعليق صديق عجوز في المائدة
١٠٠. اراه فضحكا معاً.

أنا كنت عايزة منك طلب يا باشا.

أؤمرى يا نوجا.

عايزة اشغل شريف حفيد اخويا.

ده ابن سامي المنيأوي اللي كان ماسك تعاقدات الأدوية في وزارة
الصحّة. طب هو محتاج فلوس؟ ده أبوه بيلعب في عشرين أرنب أقل حاجة،
١٠. ان يياكل من شركات الأدوية وريحته فاحت فلبسوه البيجاما.

سامي جوز نوال معاه عشرين أرنب!؟

مش باقول لك إنك على نياتك يا نوجا؟! فاكرة لما وصيتيني أرقّيه من
٠. ستاشر سنة؟.. إنتي اديتيه الزقة من هنا وهو طار على فوق.. المهم عايزة
ملانة مرتبها كام؟

كلك نظر.. شريف ده زي حفيدي.

حاضر... بكرة مدير مكنتي هيتصل بيكي ويقول لك الوظيفة مرتبها
١٠. ام وهتكلفك مرتب شهر على كل سنة في العقد..

الفصل الخامس

- 1 -

زار الأسد متململاً من تلك الكائنات البشرية الموضوعه في قفص على
أرادة تخص إحدى شركات «السفاري» في كينيا. ومن قلب السافانا النابض
المليء بالخطورة والجمال في كل شبر علا صوت نوال وسط تملل السياح
الذين لم يستوعبوا أهمية مكالمه تليفونية قد تشتت أي إنسان عن هذا الجمال.
لم يفهموا كلام نوال التي قالت:

كل سنة وانت طيب يا شريف يا حبيبي.. أنا بكلمك أنا وباباك من
العبه... آه يا حبيبي.. أنا وهو في قفص.. هبعت لك صور.

على الناحية الأخرى من خط الاستواء وتحديدًا في جزيرة الزمالك وعلى
أفام حمام السباحة بأحد الفنادق الشهيرة، وقف شريف بهايوه أحمر اللون
على الشاطئ وهو يشكو لأنه أن الوظيفة التي قد أهدتها له عمته مرتبها لا
.. على خمسة عشر ألف جنيه، إلا أنه سيقبلها حتى يتمكن من العثور على
طيفة أخرى.

وزع سامي نظراته المعتذرة للسباح الأوروبيين والدليل الكيني المراه لهم، الذين انزعجوا بشدة من صوت نوال العالي. هناك عدة أجيال من المصريين لن يقتنعوا بالتحدث بصوت منخفض في المكالمات الدولية همس سامي في أذن زوجته بإنهاء المكالمة التي أزعجت من في السافانا من بشر ووحوش، إلا أنها همست له بما أخبرها به شريف من عدم رضائه عن الوظيفة الجديدة لأن مرتبها لا يليق به.

كاد الأب يجن ويفتح القفص ليلقي بنفسه للأسد العجوز. سأله الرجل الإنجليزي الذي قتله الفضول ليعرف سر هذه المكالمة التي لم تحتمل التأجيل لما بعد السفاري، بإنجليزية متوسطة. قال سامي للرجل الإنجليزي:

- زوجتي نوال كانت تفحص السمك لابنها؛ لذلك هو مدلل ويرفض وظيفة وهو عاطل وبلا مأوى.

تدخل رجل إيطالي وهو منفعل بأن على نوال إنهاء المكالمة؛ لأنه لم يار كل هذه المسافة من إيطاليا مع زوجته حتى يسمعا مثل هذه المكالمة!

- رانيا مين؟ عزمك علشان عيد ميلادك؟ مين رانيا؟ إنت عايز فلوس يا حبيبي؟

أمسك سامي بالمحمول من يد نوال ولأول مرة منذ مشاجرتها يتحدث مع ابنه.

ومع صوت والده تذكر شريف الصفعة.

ومع صوت والده تذكر الصوت الآلي لماكينة الصراف الآلي.

بقي له خمسة آلاف وخمسة وأربعون جنيهاً مصرياً فقط لا غير. هل تريد
اصلاً... نعم / لا؟

ناداه والده في التليفون مرة أخرى..

عليه أن يعود إلى منزل جدته الساعة الحادية عشرة؛ أي أنه سيعود إلى
الزل قبل سندريللا بساعة.

نساء هل رده على والده الآن أكثر إهانة له أم يوم يمد يده لجدته كي
أخذ مصروف يده؟

ناداه والده عبر الأثير للمرة الثالثة.

فصله مديره في ثلاث دقائق «قرار بفسخ عقدك».

نجوى وصفت عريس أختها بثلاث كلمات «غني، دبلوماسي، لندن».

عيد ميلاده السنة الماضية كلفه أكثر من ثلاثة آلاف جنيه خموراً وحشيشاً.

يضاجع فتاته الجديدة ثلاث مرات في الليلة الواحدة، وحين يقربها مرة

الثلثة أيام يبحث عن غيرها. هذه هي القاعدة.

- شريف.. إنت سامعني؟

حكى شريف لوالده بهدوء أدهشه هو شخصياً عن كل ما حدث. لم تكن

لمجة شريف الهادئة بها شيء من الاعتذار أو الضعف، ولكنه تنازل عن جزء

من صلفه وحدته. أخبره سامي أن عليه أن يقبل وظيفة نجوى حتى

يود إلى مصر وألا يستفز هدى أو نجوى، وهو سيدبر له وظيفة أخرى

أفضل. كادت الدموع تفر من عيني نوال وهي ترى أن الأمور تعود.

هنا زارت اللبؤة ذات المايوه السماوي اللون والرابضة بجوار شريف على الشيزلونج في الفندق اعتراضًا لأنه يتجاهلها ويتحدث في محموله. أشاء شريف لرانيا بهدوء أن تصمت وعاد ليتحدث لوالده ليخبره بأن هذا هو ١٠ ينوي فعله. في نفس الوقت وثب أسد فوق القفص من فوق وكأنه يحاول ١٥ أيضًا أن ينهي هذه المكالمة السخيفة.

أنهى شريف المكالمة وأمسك رانيا من رسغها ليقفزها معًا إلى حمام السباحة وعندما صعد مرة أخرى على سطح الماء احتضن رانيا ونظر حوله ليجري شيري وأكرم بيدوان كحديثي الزواج في شهر العسل. وبعض أفراد الشاء يسكرون ويلهون وأحدهم نجح في التعرف على فتاتين أجنبيتين. لقد دعا شيري شريف ورانيا إلى قضاء ليلة في الفندق بمناسبة عيد ميلاد شريف شكرها شريف كثيرًا لقبلته على وجنتيه وهي تقول إنها لن تسمح بأن يمر عيد ميلاده عليه وهو مكتئب ووحيد. شكاه شريف من جحود الأصدقاء فأخبرته بأن هذا هو المعتاد في هذه الدنيا.

تأمل بعض أفراد الشلة وهم يسكرون.

لا يمكن تزيف حقيقة أي شيء مصطنع.

لقد بدأ يدرك هشاشة ثوابته وعالمه.

حاول رسم حياته على صفحة الماء ولكنه وجد ذلك صعبًا، وخاصة مع ارتفاع نسبة الكلور في الماء.

الكلور هو وهم التطهير والوقاية من أمراض قد يحملها من يعتبرون أنفسهم «الناس النضيفة».

سره كل الكلام عن الجلوتين والنباتيين ومضادات الأكسدة وتمارين
! طن يوم الثلاثاء.

رانيا تصرخ عندما دفعها أكرم إلى داخل الماء.

شيرى تصرخ عندما لم يدخل فيها ذاك الفستان المعد خصيصًا لفرح ما.

دينا تصرخ مدعية الانتشاء وهما معًا في الفراش.

سديقات أخته يصرخن من الحسد حين رأين الشبكة.

صراخ في الجيم: «عاش يا وحش»..

صراخ في مشاجرة لن تفضي لضرب.

صراخ هدى في سعيد حين أخبرها بأن نجوى قد سرقت إرثهم..

صراخ هدى حين توفي ابنها..

جيل والداه يصرخون من الجيل الجديد عالي الصوت منخفض الجودة.

تأمل نفسه وأصدقاءه.

هؤلاء هم نتاج تربية المدارس الأمريكية والأموال الخليجية والمربيات

الاسيويات والكرتون المدبلج.

معظم فتيات الشلة ارتدين البكيني ثم تحجبين وعدن إلى مايوهاتهن بعد

الطلاق.

هؤلاء كانوا سيكون وراء الدعاة في صلاة التراويح ثم يطرون فرحًا برؤية

جاجات الخمر التي ستراق في العيد.

هؤلاء الذين لا يحشون في رمضان إلا بعد الإفطار.

لم يستضيفوا أيًا منهم حين احتاجهم رغم أن فيلته كانت عالمهم.
وإن عدت للمرح عدنا.

هذه هي القاعدة.

هؤلاء علمهم آباؤهم أن نحب تراب الوطن ونحن نمتلك جواز سه،
لدولة أخرى.

نحن جيل نتج عن سبعة آلاف سنة حضارة وبضع سنوات من الإنترنت
وفي الليل وفي غرفة الفندق التي استأجرتها شيري كهدية لشريف في عا
ميلاده سعد الأخير باستعادته لكفاءته الجنسية. عليه أن يبرر ما دفعته رانا
من نقود.

ورغم إدراك شريف اقتراب عودته إلى عالمه القديم واستعادته للشلة فرا،
شيئًا ما لم يكن على ما يرام. استلقى بجوار رانيا التي أثنت على رجولته. لم
يعد يهتم بمثل هذه الكلمات. لم تنتفخ أوداجه ولم يفرح. شعوره ناحية رانا
نفسها قد تغير، وقد يبدو هذا منطقيًا بعد أن تذوقها، ولكن غير المنطقي هو
حياد مشاعره ناحية اليوم بأكمله. لماذا لا يشعر بالسعادة؟

قام بعمل جوينت حشيش فانتبهت رانيا وجلست بجواره وهي تجبره أنها
تتمنى أن يجرب معها الكوكاين. أخرجت من حقيبتها علبة خشبية صغيرة
استقرت داخلها لفافات صغيرة من المخدر. نظر لها شريف بلا اكتراث

م أنه قد جرب الكوكايين من قبل إلا أنه قد قرر بشكل قاطع ألا يجربه
أخرى ومنع أصدقاءه من تعاطيه في فيلته. خشي شريف أن يعجبه ملك
الهدرات ويدمن ذلك الشعور العارم بالثقة الذي يمنحه لتعاطيه.

مدت رانيا يدها بالعلبة لشريف الذي طلب منها ألا تتعاطى الكوكايين
معها؛ لأن العلاقة بين الحشاش وتعاطي الكوكايين شبه مستحيلة؛
والحشاش وميله للسلبية والراحة الذي سيتعارض مع الثقة الزائدة
الإقدام لمستشقي البودرة البيضاء.

نظر إلى جسدها العاري الذي لم يكن بجودة جسد دينا. كانت تعاني من
هلات خفيفة في منطقة البطن والأرداف، فلما جلست بجواره بدون أي
يسترها تكونت حول وسطها ثلاث دوائر من اللحم فبدت في عيون
شريف كالرجل الكاوتش في إعلان إطارات ميشلان وإن كانت أنحف كثيراً.
ضحك شريف، فلما سألته رانيا عن السبب قبلها بفم مليء بالدخان
سعلت وابتعدت عنه. لقد أدرك العقل بعد أن شبع الجسد أن رانيا لا تملك
مرة دينا ولا خفة دم سلمى.

مهلاً! لقد صدم نفسه حين جاءت سلمى في مخيلته. هل بدأت تروق له
أم لعله يريد فقط أن يتذوقها؟ لم يستقر على إجابة ولم يهتم.

في صباح اليوم التالي عاد إلى منزل جدته التي هنأته بعيد ميلاده بفتور
أخبرته بأن يدخل إلى المطبخ ليجد ثلاث كيكات مختلفة الأحجام. تتبعته
هدى وأشارت إلى إحداها مغطاة بقطعة من القماش وقالت إنها هي من

عملتها خصيصًا له، ولكنه فضل أن يحتفل بعيد ميلاده بعيدًا عنها. قبل أن يرد عليها أو يعتذر أشارت إلى صينية أخرى وقالت إن مس لبني غار، منها فقامت بعمل كيكة هي الأخرى مدعية أنها أفضل. سألتها شريف الأخرى فابتسمت هدى، وكما توقع فالكيكة الأخيرة من صنع سلمى.

قَبَلها شريف ممتنًا وقبل أن يجهد نفسه بالاعتذار عما قاله بشأن منصور، أو إخراج السكان رن محموله ليجد نمره غريبة، لم يرد كعادته ثم تذكر أنه في انتظار مكالمة من عمله الجديد، فرد على التليفون ليأتيه صوت رفيع حاد محشرج:

- أستاذ شريف... أنا ميشيل اللي بشتغل عند الأستاذ فانوس محامي عيلتكم، وعايز حضرتك في موضوع مهم جدًّا وقاعد مستنيك في القافية⁽¹⁾ اللي في آخر الشارع.

استأذن شريف من جدته ولثم يدها واندفع خارج الشقة، وفي أقل من دقيقة كان قد تشاجر مع سائق ميكروباص وأحد زبائن عربية الكبدية على الرصيف المقابل، وقام بلعن الحي والبلد ووصل أخيرًا إلى كافيه أمريكي الاسم مصري النكهة.

وما إن خطت قدماه داخله حتى لفحته رائحة الشيشة. جال ببصره في المكان فوجد فتاتين تدخنان الشيشة وحدهما، وما إن دخل حتى تسمرت أعينهما عليه وقامت إحدهما بفتح البلوتوث الخاص بها وهي تدعو الله أن

(1) كافيه.

١٠. من هذا الشاب الوسيم فارح الطول من أولئك الزبائن الذين يلتقطون
الاهبات من المقاهي برسائل البلوتوث.

وجد ضالته أخيراً عندما وقف شاب نحيل يرتدي بدلة أوسع منه.
اس شريف قبالة، وقبل أن يتحدث ميشيل سرح في سيقان فتاة ترتدي
ثياباً قصيرة وهي تقرأ في كتاب ما باللغة العربية ثم ابتسم قائلاً لشريف:
- ويرجعوا يزعولوا لما نتحرش بيهم.. ما هي لو أبوها راجل ومانزلهاش
من البيت كده ما حدش يفتح بقة معاها..

ضحك وحده ضحكة عالية لفتت إليه أنظار رواد المكان. اصطنع شريف
ضحكة وهو يثني على كلامه مؤكداً أن الفتاة غير المحجبة هي بالضرورة
مير محترمة. فهم ميشيل الدعابة فتتحنح واقترب من شريف محاولاً رسم
الخطورة على ملامحه وهو يقول:

- أنا جاي لك بخصوص عمارة الجيزة.

- ومين بقى اللي قال لك؟

- مش مهم يا دكتور

- لازم أعرف

أكمل ميشيل كلامه دون أن يرد على شريف وانتظر حتى وضع الجرسون
الطلبات. نظر شريف ليجد الفتاة التي فتحت البلوتوث محببة للغاية والفتاة
ذات الفستان القصير قد طلبت الشيك كي تنصرف. رشف ميشيل رشفة
من مشروبه وهو يقول:

- أحب أقول لحضرتك إن خالك سعيد، الله يرحمه، والدتك مدام نوال. وجدتك مدام هدى مسروقين من مدام نجوى بقا لهم أربعين سنة... العمارة دي باسم شريف عز الدين جد حضرتك يعني هي ملك سعيد، الله يرحمه، ونوال والدة حضرتك.

مادت الدنيا بشريف، فها هو وبعد أن بدا وكأن الأمور تجري لمستقر لها، ها هي الأرض تنشق ويظهر هذا الميشيل ليقلب الأمور رأساً على عقب.

- عندك دليل؟

- مدام نجوى خفت كل أثر للورق من أربعين سنة ماتنشاش إنها كانت متجوزة ضابط وكان شغله أكثره شمال.

- عندك دليل يا ميشيل؟

- عندي ليك سؤال يا دكتور... أبو جد حضرتك عز الدين باشا لو كان كتب لنجوى بنته العمارة.. أمال كتب لشريف ابنه إيه؟

- نجوى اتكتب باسمها أرض الجيزة اللي عليها العمارة وأرض كوم حمادة هي اللي باسم جدي شريف بس استولى عليها عبد الناصر. خالو الله يرحمه وماما رافعين قضية من ثلاثين سنة مثلاً.

وطبعاً مدام نجوى هي اللي بتابع القضية وأكيد قالت لكم إنها لسه ماتحكمش فيها.

اعترف شريف لميشيل بأنه لا يتابع مثل هذه الأمور. أخبره الأخير بأن العكس هو الصحيح وأن والد جده قد كتب أرض الجيزة باسم الولد

«بف عز الدين» وأرض كوم حمادة باسم «نجوى عز الدين» الأرض التي
أولى عليها الإصلاح الزراعي.

قرر شريف أنه سيغادر الكافيه ولن يستمع مرة أخرى لمثل هذا الهراء
مأصاة أنه لا يوجد أي دليل على كل ما قيل. لن يورط نفسه في هذه الأمور
أكثر من هذا.

لا يريد أن يعرف.

كل ما يتمناه الآن عودته لعالمه.

يريد أن يرتقي داخل أسوار تحميه من الواقع.

غداً سيتسلم وظيفة نجوى.

غداً سيكون في مكتب مع زملائه لا يفعلون شيئاً سوى التحدث
إنجليزية سليمة عن أحوال البلد التي لا تطاق.

هو يعلم عن تلك الوظائف الجديدة بالحكومة والتي يوفرها جيل الآباء
لأبنائهم. ومن هذه الوظيفة سيلتحق بلجنة تنشيط شيء ما وسيتابع أعماله
من أحد الشواطئ.

غداً سيبنى سوراً عاليًا من البدلات والمكافآت.

رن جرس محموله بنمرة دولية فاستأذن من ميشيل وخرج ليتحدث خارج
الكافيه وقد فتح الباب للفتاة ذات الفستان القصير. أشبع عينه بمؤخرتها
لثوان قبل أن يردد ليجد صوت والده على الناحية الأخرى يسأله عن أخباره
مع جدته وهل صالحها أم لا. حكى له شريف في عجالة أن الأمور بينه وبين

جدته تتحسن وأنه من المفروض أن يتسلم وظيفته الجديدة أول الشهر القادم أخبره سامي ألا يفتح موضوع العمارة مرة أخرى حتى يعود هو ونوال بما أسبوعين. سأل شريف والده سؤالاً لم يجد له إجابة حتى الآن:

- بابا! هو انت وماما لما ترجعوا هتقعدها فين؟ .. إنت مش مأجّر شفه المهندسين سنة؟

ضحك والده ولم يرد. تردد شريف قليلاً ثم حكى له أنه يجلس الآن مع شخص يدعي أن نجوى ليست مالكة العمارة. تسيد الصمت للحظات حتى انتهكه سامي قائلاً:

- بص يا شريف.. اسمع من ميشيل كويس... وماتاخذش أي قرار إلا لما أرجع.

نظر شريف من خارج المقهى إلى ميشيل الجالس وهو يداعب محموله ويبدو أنه يرأسل الفتاة على البلوتوث وينظر حوله، بينما تكتم الفتاتان ضحكتاهما. ابتسم شريف وهو يقول لوالده:

- حاضر يا بابا... بس أنت عرفت منين إن اسمه ميشيل؟

لم يرد سامي ولكنه أعاد طلبه بالأخيراً أي أحد في هذا الموضوع حتى يعود. وعندما عاد إلى ميشيل كان الأخير يكاد يجن لمعرفة من الذي يرسل له هذه الرسائل. جلس شريف وهو يسأله:

- سؤال بقى يا عم ميشيل.. هو مش فيه اسم ماضي على عقود إيجار

الشقق؟

أبوه.. الشقق ماضي عليها كلها عز الدين باشا أبو جد حضرتك.. كان
ءامل حق انتفاع لنفسه طول حياته وبعدها الأرض والعمارة تروح لشريف
ء. الدين.

مش فاهم

ءفهمك يا دكتور شريف.. الباشا ورث شريف ونجوى ولاده على حياة
ء. و عمل لنفسه حق انتفاع.. هتلاقيه هو اللي ماضي على كل حاجة.. صدقني
ءدكتور العمارة دي بتاعة سعيد، الله يرحمه، ومدام نوال والدتك وبعد موت
ءالك ما حد له حق في الأرض غير والدتك وجدتك اللي ورثت ابنها.

ءراد شريف أن يسأله عما إذا كان والده هو من أرسله، ولكنه بدأ سؤالاً
ءلا معنى فإجابته معروفة. أما السؤال الحقيقي فهو: لماذا أرسله سامي؟
ء ما دخله في هذا الأمر. هل يطلب منه والده أن يكمل ما بدأه خاله، رحمه
ءالله؟ نظر شريف إلى ميشيل وابتسامته السمجة قائلاً:

- طب وأرض كوم حمادة؟

- عمء والدتك نجوى كسبت القضية من سنة.. أنا طبعا عرفت علشان
ئغال في مكتب المحامي... ولسه بايعاها باتناشر مليون جنيه... العقد اتمضى
ءدامي. واللى ساعدها في البيع رجل كبير في الحكومة.

سأله شريف: كيف يمكن الحصول على العقد الأصلي للمنزل إذا كانت
ءجوى قد أخفته من السجلات كما يدعي. ابتسم ميشيل كاشفاً عن أسنان لم
نعرف فرشاة الأسنان طريقها إليها قائلاً:

- أنا واللي معايا عايزين خمسة وعشرين ألف جنيه.

أيقن شريف أنه كلما قلت معرفة المرء ازدادت سعادته.

وفي المساء وفي غرفة خاله أشعل شريف جوينت من الحشيش على روح خاله وهو لم يتخذ قراره بعد.

هل يعطي لميشيل الخمسة وعشرين ألفاً؟

وحينها يسير في درب عسير قد لا يفضي إلى شيء سوى خسارة النقود ويتضح أن نجوى هي صاحبة الأرض فعلاً وأن ميشيل قد خدع سامي أو قد يمزق العائلة إرباً ولكنه قد ينتهي بالملايين ويظهر سمعة سعيد التي لوئتها نجوى بادعائها أنه كان يريد أن يسلبها حقها.

هل يتجاهل الأمر برمته فيظل الوضع كما هو عليه؟

قضي الأمر واتخذ شريف قراره. سيتصل بوالده كي يقرضه مبلغ الخمسة وعشرين ألف جنيه والذي سيعطيه لميشيل ليحصل على ورق المنزل الأصلي. لقد اختار أن ينتقم لأخته ويعيد لسعيد شرفه. قرر أن يعيد الحق لأصحابه ويحصل على بعض الملايين نظير ذلك.

- 2 -

لم تستطع الجدران العجوز داخل أروقة الحزب احتواء هدير صوت الباشا في مكتبه. احمر وجهه الأسمر وازداد عمق تجاعيده واندفعت الدماء إلى رأسه حتى كادت تنزع صبغة الشعر وتلون فوديه باللون الأحمر. لقد صارت الحرب

والصححة الآن. من اختطف الصحفي كان يعلم بتحركات الباشا وفاطمة
سبقتها ونفذ خطته ببراعة ودون أن يخلف وراءه أي أثر. كانت الرسالة
وجهة إلى الباشا موجعة وواضحة بأن للمعبد القديم فرساناً جددًا.

- الأغبياء فاكريين إنهم كده حلوا الموضوع... أنا كنت هافضحه وهم
ما بطل.. من بكرة مليون قرد هيتنطط على الجرايد والنت الزفت اللي
ماه نظيف⁽¹⁾ في كل بيت وقناة الجزيرة هتطبل على صحفي مايسواش
نة نكلة.

لم ترد فاطمة ولكنها وضعت على مكتبه سي دي وبعض الأوراق.
الباشا الملف الكامل من الفضائح الذي كان كفيلاً بتحطيم مصداقية
الصحفي للأبد. نظر إليها ملياً ودفن سيجارته في الطفاية الكريستال قائلاً.

- انتي فاكرة إن الفيلم ده لو كان طلع هيهز صورة الحزب؟

لم ترد فاطمة فلقد علمتها الحياة أن الصمت دائماً هو أفضل خيار. أخرج
الاشا علبة بها شيكولاتة وأعطى لفاطمة خمس قطع وهي تتعجب من هذا
المدوء بعد ثورته العارمة منذ ثوان. قام من خلف مكتبه واتجه إلى شاشة
المبزيون والتي كانت تعرض قناة الجزيرة وقد كتم الصوت. أمسك الباشا
الريموت وعلّى الصوت قليلاً لينساب صوت مذيعة النشرة. تسمرت عينا
الاشا على أخبار انفجار ما وقال لفاطمة دون أن ينظر إليها:

- المصريين يا فاطمة مايبشوفوش تزوير الانتخابات حاجة غير أخلاقية.
إنا عندنا الأخلاق هي شرف البنات وجيب الراجل. الصحفي ده مش

(1) بقصد أحمد نظيف رئيس الوزراء الأسبق.

عامل الفيلم للمصريين وعارف إن ما حدش هيهتم بيه غير العشرين و ١٠٠
اللي بيقفوا على سلم نقابة الصحفيين. الفيلم ده كان معمول للناس برة.
- جو ايسس يا باشا؟

- القنوات بتكسب من الإعلانات. ولما قناة زي الجزيرة ما عندها:
إعلانات، ويشتروا الفيلم من الصحفي وبال دولار. يبقى الموضوع
لعبية من برة... إحنا اتأخرنا قوي... اتفضلي اني يا فاطمة.

غادرت فاطمة المكتب وقد تسلل إليها شعور بأنها في الجانب الخاسر.
لعبة توازنات القوى في المرحلة القادمة. خشيت من رياح التغيير القادمة.
الحزب أن تقتلع ابنتها من البدروم. بدون الباشا لن يكون لها سند. صحيح
إن نجوى لا يمكن أن تستغني عنها أو تطردها من البدروم ولكن بدور
الباشا ستخسر جزءًا كبيرًا من دخلها وهيبتها وسطوتها التي أجبرت رجال
شرطة الآداب على أن يعضوا الطرف عنها وعن عاهراتها. لن تستطيع العودة
لتجارة البانجو الذي اهتز عرشه مع أولاد الطبقة العليا والمتوسطة في بداية
الألفية فاتجهوا إلى الحشيش والكوكايين وهذا المخدر الجديد المسمى الفودو
صحيح أنها قد نقلت نشاطها إلى الحشيش منذ أن بدأت بالعمل مع
الباشا لكن التاجر أخبرها بأن هناك أوامر عليا بمنعه.

عليها أن تتعامل مع تجار المناطق الشعبية وهي قد كبرت سنًا ومقامًا
على هذا. والحشيش ممنوع والمخدرات الأخرى لا تعلم مسالكها ودورها
وزبائنها. أدركت أنه لزام عليها أن تستعد للأيام القادمة ولكن كيف؟

او رأى أحد الأصدقاء شريف الآن لما عرفه، فذقته حليقة وشعره مصفف
أي قميص كاروهات وبنطلون قماش وقد راعى ألا يكون مظهره
أموال أو رجل أعمال حتى لا يثير سخرية أو طمع الموظفين بالسجل
الذي. وفي الموعد المحدد لمح شريف ميشيل الذي ركب معه التاكسي وهو
ما، إليه قائلًا له: نعيًا وبعض الكلمات الفلكلورية المتفق عليها:

احنا هنروح لعم حسين نجيبه من زينهم.

مين عم حسين؟

اتكل على الله وأنا هاحكي لك في السكة.. بسرعة علشان نلحق الناس
إلى جوة.

زبطت معاهم؟

طبعًا يا دكتور... معاك الأمانة؟

أشار شريف إلى حقيبة رياضية صغيرة معه فربت عليها ميشيل وهو
: وصف الطريق لسائق التاكسي. سأله شريف عن هوية عم حسين هذا وما
هو دوره في موضوع العقد؟ ابتسم ميشيل محاولاً أن يبدو غامضاً إلا أن
الاحولة أضافت البلاهة إلى سماحته. همس لشريف قائلًا:

- عم حسين هو اللي عارف العقد مستخبي فين.. بإذن الرب هو هيجيبه
وهنلاقي ريجته مجاري.

نصف ساعة وكان عم حسين يركب معهم السيارة متجهين إلى ميدان عابدين. نظر شريف إلى المومياء المتكلمة الجالسة معهم في التاكسي تدور بشراهة.

طلب منه شريف أن يطمئنه على موضوع العقد. سئل عم حسين وأهدى للشارع بصقته عبر الشباك باحترافية وأخبره أنه صحيح أن عمه والد استطاعت إخفاء أصل العقد من السجل المدني والحي عندما بدأ سعيد البحث عنه. لكن لسوء حظها أو ربما لحسن حظ شريف أن المجاري طفحت في مبنى الحي فتم نقل كل الورق لدار المحفوظات. سأله شريف كيف لم يعلم هذا زوج نجوى؟ ابتسم عم حسين وهو يقول:

- موظفين ما عندهم ضمير.. ضحكوا على جوز عمه أمك وهم يحاول يسرقكم.

لم يستطع شريف أن يقاوم الضحك فانفجر ضاحكًا هو وميشيل وحنو سائق التاكسي الذي كان مستمتعًا بما يسمع بشدة حتى إنه قام بتشغيل التكييف كيلا تشغله ضوضاء الشارع عن متابعة الأحاديث ولم يتحجم كعادته بأن التكييف يتعب الموتور.

دخل الثلاثة إلى مبنى محافظة القاهرة القديم والذي تحول إلى دار المحفوظات. انبهر شريف بالمبنى الذي لا يزال يحتوي على الشعار الملكي المزين لبعض الأركان في المبنى. استقبلتهم الأرضية الرخامية المصقولة والتي يسير عليها موظفون معجونون بالتراب وقد استقبلوا عم حسين استقبال الفاتحين.

سزل ثلاثهم درجًا رخامياً عتيقاً قد تقوست درجاته من المنتصف حتى
صلوا إلى غرفة هائلة الحجم بها رفوف تصل إلى السقف الذي يقدر ارتفاعه
عنة أمتار على الأقل. معلق بهذه الرفوف سلم خشبي عملاق يتحرك على
محامل صغيرة ومثبت بمجرى حتى يتمكن الشخص وهو فوقه من التحرك
سأً ويسارًا بين الملفات والأوراق.

لم يستطع شريف إخفاء انبهاره بهذا المكان والذي يعتبر خارج حدود
المن. فالمسافة ما بين هذا الأرشيف والباب الخارجي لدار المحفوظات لا
تتجاوز بالأمطار وإنما بالعقود والسنوات.

انتحى به ميشيل جانبًا وهو يشير للحقيبة الرياضية وبشيء من التردد
أعطاه ميشيل الذي أشار برأسه لعم حسين الذي طلب من الجميع أن
يخرجوا من الغرفة. تعجب شريف من طلبه هذا ولكن لدهشته أطاعه
الجميع بلا نقاش. ابتسم موظف بدين أصلع ومال على شريف قائلاً له إن
عم حسين قد رتب الملفات بطريقة الخاصة وهو الوحيد الذي يملك شفرة
الارتيب. سأله شريف وهو مذهول:

- يعني عم حسين ده لخبط الورق علشان الناس تفضل محتاجة له؟

نظر له الموظفون بدهشة واستنكار ورمقه ميشيل بنظرة لائمة إلا أن
الموظف الأصلع البدين ربت على الحقيبة التي مع ميشيل موجهًا كلامه إلى
شريف:

- مافيش لخبطة عند الرزاق.. هو هياخذ اللي فيه القسمة وهي قسم ء
الي فيه نصيبنا والكل هنا هيدعي لك... المبلغ ده مايسواش إن باشازها
يفكر فيه ولو مش قادر وربنا المعبود ما هناخد حاجة..
وبعد خمس دقائق خرج عم حسين معه العقد الأصلي المذيل بتوقيع وال
جده منذ زمن بعيد والملوثة أطرافه بهاء الصرف الصحي منذ عقود.
اسم المالك «شريف عز الدين (قاصر)».

- 4 -

عندما عاد شريف إلى المنزل وجد نجوى وهدى تجلسان معًا في الصالون.
رغم كل سنوات العشرة فيما بينهما فإن هدى ما زالت تعاملها بطريقة رسة.
نظرت له نجوى ببرود مما أربك شريف الذي بادها نظرة تحدُّ ليرى لأول
الخوف في عيون تلك المرأة القوية التي رغم كل ما حدث لها في حياتها فإن
ظلت صامدة حتى اليوم.

اليوم سينيهي أسطورتها وسطوتها وتسلطها ويقضي على هيبتها.
لوراته أخته الآن. اليوم لن ينفعها اللواءات والمستشارون والبهاوات
والباشوات. اليوم سييات خاله سعيدًا في قبره. جلس بجوارهما ولأول
في حياته يقوم بإشعال سيجارة أمام عمته. لقد كبر الآن وصار يعرفها
من اللازم.

اليوم نجوى لم تعد كبيرة، بل عجوزًا والفارق كبير.

-سينهي شريف أسطورة نجوى بنت الأكابر والتي لعنت ضباط يوليو
معلبت لضباط بالجيش بضغط من والدها كي يبعد عنه شبح التأميم
سخت الخطبة بعد أن أخذ الإصلاح الزراعي أرض كوم حمادة.

اليوم ترهبه السيدة التي لم يستطع والده أن يرفع عينيه أمامها قط.
اليوم هو أشجع من والده الذي يحارب نجوى عن طريق ابنه تلك
صفحة.

لم يعد سامي يصرف على شريف (27 عامًا)

المعادلة تغيرت.. سامي (63 عامًا) لا يقوى على مواجهة نجوى فاستعان

هذه النقود التي أرسلها له والده لم تعد مصروفًا بل مصروفات.
الفرق كبير في مخيلته حتى لو كان واهيًا للآخرين.

الجحيم هو الآخرون وهو سيشعل نيرانه بعد لحظات.

ستعود أخته إلى القاهرة وستبات في شقة نجوى وسيحرقون تحفها
أناؤها وصالونها.

نحس عقد البيت الأصلي الموجود في الظرف الأبيض الكبير وانتزع من
فه نسختين من العقد الأصلي ووضعها على المائدة.

قرأت المرأتان العقد في صمت وهدوء حتى إن شريف راوده الشك بأنها
لم علم بكل شيء وأن مجهوده بلا طائل. قامت نجوى بمنتهى الهدوء وقبل
ان تغادر الصالة أوقفتها صرخة من حلق هدى انتفض على أثرها شريف

واتجه إلى جدته محاولاً تهدئتها. لم ينتبه شريف وسط كل حساباته إلى وجهه نظر هدى حال افتضاح أمر نجوى. لقد أوضح شريف لجدته للتو أنها قد تسببت في موت ابنها كمدًا بل وتشاجرت معه وقاطعته من أجل هذه المراهق واتضح بعد كل هذه السنوات أنه كان محقًا.

صرخت هدى بسنوات عمرها التي ضاعت بعد أن مات زوجها وهي في العشرينيات من عمرها ولم تتزوج بعد أن هددها نجوى أنها ستطردها من المنزل وتحرمها من ابنها وابنتها.

صرخت هدى وامترجت صرختها بصوت شريف وهو يحاول أن يهدئها صرخت لابنها وابنتها اللذين حرمتها من الميراث بسبب ثقتها في نجوى.

اتجهت هدى إليها وشريف يغالب دموعه وفطن لأول مرة مدى فداحة ما قام بفعله منذ لحظات. لقد هدم ثوابت عالم جدته وهي في هذه السن المتقدمة. وقفت هدى أمام نجوى وهي تسألها لماذا قامت بإخفاء هذا الأمر عنها. لم تجب نجوى ولكنها نظرت لشريف نظرة لائمة.

وبقسوة سنوات الحرمان التي عاشتها هدى، وبمرارة إدراكها لما فعله بابنها وبسواد أيام القهر التي عاشتها هدى وهي تظن أن نجوى تمن عليها، نشبت هدى أظفرها في وجه نجوى.

لم تعترض نجوى أو تحاول حتى الدفاع عن نفسها ولكنها اتجهت بهدوء إلى باب الشقة وغادرته. وما إن أغلق الباب حتى احتضن شريف جدته التي صمتت فجأة وسقطت على الأرض.

كان اليوم هو يوم الغسيل بالنسبة لسلمى. وقفت في وسط الحمام الضيق ، قد شمرت بنظرون بيجامتها الكستور تتابع عمل الغسالة الممل. ذهبت إلى الصالة ووضعت كل ما ابتاعته من مستحضرات العناية بالجسم على مائدة السفرة العتيقة. إنها في منافسة حامية مع تلك الفتيات اللاتي يعرفهن شريف ، حياته.

أقنعت نفسها بأنها أجمل منهن وأفزعها أنها لم تر أياً منهن حتى الآن. انسمت في يأس وهي تجرب أحمر الشفاه الجديد وهي تدرك أن معركتها شبه مأسرة فإن انتصرت في معركة الجمال فلن تتفوق عليهن في الفراش فمعظم مهامها كانت مع رجال فاشلين في الفراش حتى إنها قد اقتنعت أنها هي السبب. تأملت نفسها في المرأة فأشاحت بوجهها بعيداً عن صورتها في المرأة.

لسبب ما تذكرت معلومة قرأتها في أحد كتب النوادر والطرائف أن هناك ذنباً للطهي يشرح طريقة عمل فيل محشو بالأرز. الطريقة كانت ببساطة: أحضري فيلاً ثم اسلقيه وبعدها احشيه. فكرت ملياً ربما كانت هذه الوصفة ببساطة زواجها من شريف. يجوز نظرياً زواج بياعة المكتبة من حفيد الباشا لكن عملياً مستحيل.

سلمى كانت تحب شريف طوال عمرها.

صداقة تحولت لحب؟

احتياج تحول لحب؟

لا يوجد حب.

لا يوجد رد قاطع ولكن من المؤكد أن شريف هو الخلاص من كل شيء.
الزواج هو مصيرها وما أجمله من مصير مع هذا الشاب.

غادرت المنزل وبصقت بنظراتها على جاراتها اللاتي يبادلنها نفس مشاء،
المقت والكراهية وحين عادت إلى المكتبة في اليوم التالي وقبيل المغرب لمحت
وجه مرزوق فجفلت كثيرًا لرؤيته. استدارت لتجده في حالة مزرية وعيناه
زائغتان. ومعه رجل هو التجسيد لجملة مسجل خطر. حاولت سله.
التماسك والابتسام فهي على يقين بأن مرزوق لو شعر بتوترها لتهاذى في
طمعه. جلس مرزوق على المقعد المقابل لمكتبها الصغير وهو يقول:

- سلامو عليكم يا بنت عمي.. اقعدي يا مصطفى.. اقعدي يا مصطفى ده
محل عمي الله يرحمه مش محل حد غريب.

- خير يا مرزوق.

- إحنا جاين نزورك ونقرا الفاتحة لأبويا وأبوكي.

بدأت سلمى تشعر بالخطر فمرزوق مبرشم كعادته ولكن ترى ما الذي
أتى به؟ فتح المدعو مصطفى ثلاجة الشيكولاتة وأمسك بأكبرها حجمًا
واغتصب الغلاف وأمسك بقطعة الشيكولاتة عارية فلوثت يديه وهو يلتهمها
أما مرزوق فاتجه إلى ركن النظارات البلاستيكية وانشغل باختيار نظارة وهم
ينظر لنفسه بإعجاب في المرآة البلاستيكية. أعادت سلمى سؤالها مرة أخرى عن
سبب الزيارة فقال وهو يجرب نظارة حريمي زهرية اللون ودون أن ينظر إليها.

- أنا كنت في المنطقة مع أجدع صاحب ليا فقلت بالمرّة أعدي على بنت
هههه وخطيتي وشريكتي.

- أنا خطيتك؟!!

- هتخرجيني قدام صاحبي؟ وما له؟ كل حاجة بالخناق إلا الجواز
الاتفاق وأنا مش ممكن اغصبك على الجواز... بس انتي بنت عمي غصب
اك وعني وشريكتي كمان بالشرع والقانون.

.. إنت عايز إيه دلوقتي؟

.. ماتخرجنيش قدام الراجل.. أنا واخذ منه فلوس بضمهان المكتبة.

- نعم؟؟!!

- المكتبة أو شقة إمبابة أو انتي.

- إمشي اطلع برة.

- طب آخذ حقي بوس.

- امشي يا مرزوق قبل ما اطلب لك البوليس.

- هو البوليس فاضي لنا؟ إثنين ولاد عم وبيقسموا شرع الله بينهم.

- عندك المحكمة.

- المحكمة دي للناس العويلة... إحنا بنعرف ناخذ حقنا.. وانا مديون

الراجل ده.. والدين بقى عليكى انتي كمان.. يا نوفي الدين يا نكمل نص دينا.

- مش عايزة اتجوزك يا مرزوق.

- خلاص اتجوزي مصطفى.

لم تدر سلمى بنفسها إلا وهي تبصق عليه وتقذفه بدباسة موضوعة على مكتبها. تفادها مرزوق ووثب خلف المكتب ممسكًا بشعر سلمى، أصابعه فانضم الاشمزاز إلى خلطة المشاعر الكريهة التي تشعر بها سلمى الآن. هل سيعتدي عليها مرزوق وصديقه؟ هل ستكون تلك الضحية المرأت عنها مرارًا وتكرارًا في صفحات الجرائد؟

بدا التوتر على ملامح هذا المصطفى وهو يدعو مرزوق إلى أن يخرجوا من هذا المكان وأن الموضوع لا يستاهل كل هذا. سبه مرزوق الذي جن تمامًا وهو يقترب من سلمى. لم يحاول مرزوق أن يتحسس مفاتن سلمى أو حرم يقبلها بل كان يمسك شعرها بيديه القذرتين وبدأ يقبل خصلاته وهو مغمض العينين للحظات أفاق منها على صريخ سلمى ويد مصطفى، وتجذبه بعيدًا عنها. فتح مرزوق عينيه ليجد سلمى تبكي وتصرخ، فصرم بدوره في مصطفى:

- إيه يا عم؟ شعر بنت عمي وده حقي.. وبعدين اعلمي حسابك عل الطرحة بعد الجواز.

بدأت سلمى في الارتجاف والبكاء في صمت فقبلها مرزوق على شفيتها فصقت عليه مرة أخرى. فرفع يده وكاد يصفعها حتى دخلت إلى المكتب، فاطمة فتسمرت يده في الهواء.

- فيه حاجة يا ست سلمى؟

لم تفرح سلمى لرؤية فاطمة من قبل كما فرحت الآن. وتبادلت مع
ملين نظرات يفهمها جيداً من كانت الشوارع بالنسبة إليهم محل الإقامة
العمل في نفس الوقت.

نقدم مرزوق الذي كان لا يزال يرتدي النظارة الزهرية اللون خطوتين
أمة فاطمة.

لم يسكنون الشوارع نفس الرائحة.

شمها مرزوق ومصطفى وقد أدركا بأن فاطمة أقوى منهما.

أشار مرزوق لمصطفى أن يتبعه وما إن خرجا حتى اندفعت سلمى إلى
المام الصغير وبدأت في مضمضة فمها وتبعها فاطمة وهي تربّت عليها.
هارت سلمى في أحضان فاطمة وهي تبكي وتلاحق أنفاسها من الغضب
المخوف.

- 6 -

لم يأكل شريف العنب أبداً من يومها.

كان طفلاً ويميل مع جدته وحيداً في المنزل بعد أن ذهب سامي ونوال
إلى الطيب بعد أن أصيبت أخته بحساسية ما. أما خاله فلقد كان في رحلة
مع أصدقائه بالجامعة.

جدته كانت تحب العنب ومسلسل فالكون كريست. توسل شريف
إليها أن يشاهد أي برنامج آخر ولكن في هذا الزمن لم يكن هناك الكثير من

الاختيارات؛ إما المسلسل الأجنبي الممل وإما برنامج حديث الروح . . .
فيلم الكارتون كان يقطع في منتصفه في هذا الوقت.

فجأة توقفت جدته عن الكلام واحمر وجهها. لقد توقفت حبة من اله.
في حلقها وأغلقت مجرى الهواء.

ثوان وشريف ينظر إلى جدته ظناً منه أنها تلعب معه. ثوان هي كل ما نأا
حتى تسلم روحها إلى بارئها. حاول أن يصرخ منادياً على أي أحد ول.
اكتشف أنه وحده. فزع وهو يراها تحاول أن تسعل أو تتقيأ بلا جدوى. بنا
مشاعر الخوف واليأس قام بضربها على ظهرها وهو ينادي عليها.

لم تفلح المحاولة فأعاد الكرة مرة أخرى وهو يضربها وينادي عليها بهيست.
حتى أنه لم يتبته إلى أنها قد بصقت حبة العنب أخيراً واستدارت تحتضنه وهم
تحاول أن تظمنته ولكنه ظل يضرب الهواء بيديه وهو مغمض العينين وينادي
عليها بهيستيريا. وبعد حوالي ربع ساعة نام في حضنها من التعب. تذكر
ما حدث يومها وهو يجثو على ركبتيه ليتفحص هدى المسجاة على الأرض.

هل تسبب في وفاتها؟ ربت على خديها برفق وهو يناديها. ومض أيام
عينيه فجأة مشهد جدته وهي توقظه ليذهب إلى المدرسة.

لثم يديها وهو يناديها باكياً وفزع عندما تركها فوقعت على الأرض
مليية لنداء الجاذبية بلا أي مقاومة. تلك الأيادي التي حتمه وعاقبته وعلد
وأخرجت من كيس نقودها بعض الجنيهاة الإضافية من وراء أبيه وأه
أصبحت بلا حول ولا قوة. ليته لم يعد إلى منزله القديم أو ظل فيه ولم يترده
الغريب القريب العائد تسبب في فضح كبيرة العائلة و وفاة الجدة.

«سعلت هدى فجأة سعالًا كان له وقع أعذب الأحنان على أذني شريف
ببلل وجهها بدموعه.

سعلت ولكنها لم تبصق العنبه هذه المرة.

لني لو كانت مخاوفه تبصق وينتهي الأمر.

أسند رأسها برفق على السجادة ووقف حائرًا كطفل تاه من والديه.
... قدماه إلى الدور الثاني وعندما فتحت له لبني الباب أغنتها ملامحه
ناؤه ولهائه عن السؤال. انتشلت «روب» لتداري به قميص نوم رقيقًا
أف صدرها الضامر وهرعت معه إلى الشقة. وفي أقل من ساعة حضر
الباب اتصلت به لبني وطمأن الجميع وغادر دون أن ينسى بالطبع أن ينصح
بف يابعد جدته عن الانفعال. عاد شريف إليها بعد أن ودع الطبيب
بمده أجره وأعطى الروشته للبنى الجالسة في الصالة كي تتصل بالصيدلية
أحضروا الدواء. ربت على يديها وقبل جبينها فابتسمت قائلة:

ما تخافش يا سعيد... هو مش الدكتور طمنك؟

ابتسم شريف ولم يشأ أن يقول لها إنها قد نادته باسم ابنها وتمنى أن تكون
بم دزلة لسان من أثر الانفعال، لا بداية لمرض عقلي أو نفسي ما.

أخبرها أنه سيوقظها عند الفجر لتصلي وتتناول دواءها. قالت له ألا
ببغل نفسه ويذهب ليقضي بعض الوقت مع أصدقائه. ابتسم وقام ليطفئ
نور الغرفة.

عاد إلى لبني المنهكة في الصلاة وقد عبأت الجو بدخان سجائرهما المصرية فأ...
 منها شريف سيجارة ولوهلة تردد أن يشعلها أمام مدرسته إلا أنه أشعلها...
 أي حال وهو ينظر إلى لبني شاكرًا إياها بكلمات خرجت من فمه همهمات ضال...
 مغلقة بالدخان فردت عليه لبني بكلمات قاطعها السعال في أكثر من موضع
 رن المحمول ليأتيه صوت والدته فطمأنها شريف بأن والدته بخير وان...
 ترتاح حاليًا. أخبرته نوال أنها قد حجزت هي وسامي في الطائرة المتده...
 للقاهرة مساء غد. طلبت منه أن يقنع والدتها بأن تترك المنزل وتذه...
 للعيش معها هي وسامي في فيلا التجمع الخامس.

- فيه إيه في التجمع الخامس؟

- فيلتنا الجديدة.

أنهى المكالمة وهو في الشرفة كيلا تسمعه لبني ليجد فاطمة تخرج من مك...
 سلمى المطفأة الأنوار. لم يجهد نفسه حتى بالفضول وعاد ليجد لبني في نف...
 الوضعية وهي تشعل سيجارة من سيجارة.

أخبرها بما اكتشفه عن نجوى وسرقة الإرث. هزت لبني ساقها وهم...
 تسأله عن السبب وراء فتح هذا الموضوع بعد كل هذه السنوات. تربي...
 شريف قليلاً ليزن كلماته ثم أخبرها بكل شيء. ابتسمت لبني وقالت:

- أنا أكيد مش هقف في طريقك.. بالعكس أنا كمان عندي مفاتيح...
 واحد من السكان وهقول لك تدخل له ازاى علشان يتنازل لك.

- مش عارف ابتدي الموضوع ده ولا كفاية لحد كده.

.. حبيبي.. انت مش لسه هتبتدي.. انت في نص الطريق فعلاً. انت
١٥. بت من الصعب وبقى معاك شقة جدتك وشقة نجوى. خلص مع
١٦. صور جاد الله وأنا هساعدك في الباقي.

غادرت لبنى وما إن أغلق شريف الباب حتى تسلل إليه خاطر مزعج
١٧. دخل إلى غرفة جدته واطمأن أنها ما زالت على قيد الحياة. نظر إلى محموله ليجد
١٨. اثر من مكالمة ورسالة من رانيا وشيري وباقي أفراد الشلة. جلس في غرفة خاله
١٩. نظر إلى صورته وهو مع المطرب الجديد وقتها هشام عباس وابتسم.
- الله يرحمك يا خالو.

خطر لشريف أن ينزل إلى المكتبة ويقص على سلمى ما حدث ولكنه قال
٢٠. امسه إنها غالبًا تغط في نوم عميق الآن. ودون أن يدري وجد نفسه يصعد
٢١. إلى السطح ليستجمع شتات نفسه. تأمل المكان ليجد في أحد الأركان بناء
٢٢. مهدومًا من الطوب كان يومًا ما شواية. كان السطوح فيها مضى هو مكان
٢٣. ماص للعائلة يقومون فيه بالشواء في أيام العطلات وحفلات أعياد ميلاد
٢٤. أفراد العائلة ويصعدون إليه لقضاء الأمسيات الصيفية.

كانوا يجالسون باقي سكان العمارة في الحديقة الخلفية قبل أن تبور ولكن
٢٥. السطح خصوصية عند العائلة ولم يصعد إليه أحد من السكان إلا فيما ندر.
٢٦. لديها كانت ثلاثة أجيال من عائلة عز الدين باشا تمرح في هذا المكان. هناك
٢٧. هام صغير وغرفة معيشة تستخدم كجلسة شوية.

هناك فتحات لمداخن الدفايات التي كانت تعمل بالحطب والتي زودت
٢٨. بها كل الشقق لتكون على الطراز الأوروبي إلا أنه مع مرور الزمن تم

الاستغناء عن هذه الدفايات وتركت المداخل للفتران. اليوم السطح عبارة عن حوش لأطباق (الدش) وهوائيات التليفزيون وفي المنتصف فجوة كبيرة مهدمة من آثار زلزال 1992 تفضي إلى داخل الشقة رقم ثمانية. أما الحمام والغرفة فمغلقتان بأقفال منذ زمن بعيد وعلى أحد الحوائط بوستر متآكل لحسن شحاتة قام بالصاقه لوتو حين كان صغيراً وقام بقطعه سعيد الذي كان يشجع النادي الأهلي بجنون.

في أحد الأركان هناك دراجتان صدئتان ملقاتان في أحد الأركان. اقتررت شريف مبهوراً وبخطوات بطيئة وقد تعرف على دراجته وهو طفل تحسراً مقعدها الذي تأكل وهيكلها الصدئ. بحث عن دراجة أخته ليجدها في أحد الأركان وقد تبقى لونها الوردي ليتذكر ذلك اليوم الذي أرادت فيه أخته أن تتركب الدراجة على السطح أسوة بأخيها إلا أن نوال أخبرتها بأنها لن تتركب العائلة وتحضر لها الدراجة من الدور الأرضي خاصة أن المصعد كان معطلاً. بكى الطفلة واسودت الدنيا في وجهها وانهمرت دموعها. رق قلبه شريف رغم محاولته مداراة مشاعره هذه وأعطى لها دراجته كي تلعب بها ولكنها كانت أصغر حجماً من أن تستطيع التحكم فيها.

ودون أن يخبر أحداً نزل شريف من فوق السطح وهو يجري من أمام باب الشقة رقم ثمانية شقة العفاريات ونزل إلى الدور الأرضي وحمل الدراجة الوردية اللون صاعداً إلى السطح. فقط كيلا يراها تبكي.

وبرغم صغر سنه وثقل الدراجة وسقوطه أكثر من مرة فإنه أصر على ما عزم عليه وبعد عدة سقطات استطاع الوصول إلى القمة ودخل إلى السطح بدراجتها

١١ وجهه مشحوم وشعره مبعر وكأنه أحد المستكشفين العظام عند وصوله إلى
١٢ قمة جبل إفرست. استقبلته العائلة بالتصفيق والإعجاب عدا نجوى التي لم تر
١٣ المشهد سوى طفل متسخ لا يليق أن يكون من عائلة عز الدين.

تعثر وهو يمشى بين الأطباق في سلسلة حديدية صدئة تُستخدم في ربط
الكلاب وبجوارها طبق من الفخار كان يوماً ما يستخدمه «روميل» الكلب
المناص بسعيد شريف عز الدين.

عاش روميل مع سعيد وهدى وكأنه أحد أفراد الأسرة. أسمته هدى
١٤ «وميل» على اسم القائد الألماني المشهور والذي كان يعشقه زوجها ويستطيع
أن يحكي عن بطولاته لساعات. يوماً كان الكلب مجرد جرو صغير فسألها
١٥ سعيد ابنها عن سر التسمية.

كان كلباً ذكياً وفيّاً ولم يجرؤ لص واحد على الاقتراب من العمارة. حتى
١٦ إن اليوم الذي حضرت فيه هدى أحد دروس الدين في منزل نجوى
١٧ وأقنعها أحد الشيوخ بأن الملائكة تكره الكلاب بسبب نجاستها. فاتحت
هدى سعيد أنها تريد أن تتخلص من الكلب ابتسم في البداية ظناً منه أنها
١٨ مير جادة فهو أحياناً كان يتندر أنها تحب روميل أكثر منه هو ونوال إلا أنه
١٩ مُدم أن أمه جادة واستشهدت بكلام الرجل فرد عليها سعيد أنه إذا كانت
الملائكة لا تدخل بيوتاً بها كلاب فكيف يقبض ملك الموت الروح إذًا؟!
٢٠ داعبها بأن هذا الكلب ضمان لعدم موت أحد في المنزل. نهرته وقتها بشدة
٢١ ربما لأول مرة في حياتها واثمته بأنه يستخف بالدين وتحت إلحاحه اضطر
سعيد أن يجبس كلبه العزيز الذي كان يقاسمه الأكل وحتى الفراش في هذه

السلسلة وتركه وحيداً على السطوح. وحيداً في مكانه المظلم كان الكلب يعوي بطريقة جعلت معظم سكان العمارة يشكون من الصوت فيما عدا لوتو الذي كاد يقبل يد سعيد ليعطيه الكلب ويضعه في الحديقة ويلعب مع أولاده. وافق سعيد وفرح لوتو المشتاق لأن يسمع كلامه أي مخلوق. قرر أن يدرب الكلب على احترامه وحلم لوتو بالمهابة التي سيمنحها له الكلب في المنطقة. هذا الكلب الذي تخيل لوتو أنه سيحميه من كل من يسخرون منه.

وافق سعيد وصعد إلى السطوح ليجد أن الكلب قد مات من شدة الاكتئاب يومها ظلت هدى تبكي وهي تشعر أنها السبب فيما حدث. وبعدها انقطعت عن أي من هذه الدروس عند نجوى بل إنها لم تدخل بيتها لفترة طويلة بعدها. نظر إلى الفجوة التي بمنتصف السطح بعد أن تهدم سقف غرفة النوم بالشقة رقم ثمانية. استأجر هذه الشقة في السبعينيات مدرس صعيدي يدعى «متى» وحوّلها إلى بيت للطلبة المغتربين من الصعيد. كانت ظروف المعيشة داخل البيت وإيجاره الزهيد يفرضان نوعية معينة من الطلاب لا يستطيعون أن يفسدوا حتى لو أطاعوا كل شياطين الكون.

وفي عام 1992 ضرب مصر زلزال قوي أدى إلى انهيار سقف إحدى غرف النوم فوق الطالب صمويل جرجس مما أدى إلى مصرعه على الفور بينما كان زملاؤه يتناولون طعامهم في الصالة.

المنازل التي هجرها أصحابها تموت ولكن المنازل التي يقتل أحد سكانها تظل حية بالقصص التي تنسج حولها. عامل توصيل الطلبات لأحد المطاعم يروي أن أحدهم قد سحب المصعد وهو به إلى الطابق الأخير فركب معه طالب صعيدي

دو ابتسامة ساذجة ثم اختفى. تداول سكان العمارة خاصة أميمة تلك الروايات من أصوات خطوات الطالب حتى الآن. تقسم أميمة أن روح الطالب لا تزال تنجول في المنزل وتباغتها بالظهور في مرآة الحمام وأحياناً في الشرفة القبليّة فأغلقتها وحرمت زوجها وابنها وزوجته وحفيداتها من أن يفتحوها.

شريف نفسه كان يخشى مجرد العبور من أمام باب هذه الشقة وهو طفل. مال له يوماً أحد أصدقائه في المدرسة التجريبية بأن المسيحيين سيدخلون جميعاً النار وستقوم الشياطين بتعذيبهم. من يومها تحول باب الشقة رقم نهائية إلى باب جهنم نفسه.

نظر شريف إلى الحفرة المظلمة وقرر أن ينزل فيها وكأنه يريد دفن مخاوفه القديمة في هذا القبر. مرت الدقائق وهو ما بين النزول إلى الحفرة وبين أن ينسى كل هذا ويعود لدفع المنزل.

من قال إن المنطق أقوى من الفضول؟

هذا الصوت الهامس الكامن المغامر البريء للطفل بداخله اعتاد أن يخنقه أو يقوم بتخديره بالحشيش والخمر والنساء.

انتصر الطفل وبدأ في رحلة الهبوط.

رحلة الهبوط لم تكن بهذه الصعوبة؛ فحديد التسليح المنحني لأسفل والركام قد تشكلا على شكل منحدر من الطوب والأسمت المنهار. بخطوات بطيئة واثقة غمس قدميه في الظلام. أسكت كل صوت يسأله عما يفعل وجدواه فهو نفسه لا يملك الإجابة.

مع كل خطوة كان يقترب من شيء لا يعرفه ولكنه كان متأكدًا أنه قد حان الوقت كي يصل إليه.

بإصرار وعزيمة اقتحم الشقة رقم ثمانية وهو مسلوب الإرادة، هبط إلى مخاوفه ليعلو فوق كل شيء.

وما إن وصل إلى داخل الشقة حتى غسله الظلام. نظر إلى أعلى فبدت الأضواء ونجوم السماء كرسم غير حقيقية على السقف الأسود. هذه الشقة حية تتنفس الموت. أما منزل جدته فهو الموت الذي يتنفس الذكريات وهو قد أصاب مصداقية تاريخه في مقتل.

وقف مكانه حتى اعتادت عيناه الظلام ومشى مسترشداً طريقه على ضوء محموله. أثار وجود الملاءات والمخدات الملطخة بالدماء والتي لم تتغير منذ عام 1992 القشعريرة في جسده. الدواليب ما زالت مفتوحة ومفروشة عليها جرائد قديمة وعلى المرأة هناك صورة للبابا كيرلوس. انتفض عندما لمس برجليه شيئاً ما ليتضح أنه حقيبة سفر جلدية قديمة لم يتسع صدر الدنا كي يضع فيها شاب متاعه ليعود إلى بلدته. قتلت المدينة روحه حرفياً.

مر بجوار المطبخ ليسمع صنبورًا ينزف ببطء منادياً بيأس على أي من سكان المنزل. بتلقائية مديده إلى النور ليفتحه فلم يحدث شيء.

فتح باب الغرفة فأصدر صريراً يذكره بباب حجرة الكشف عند طبيب الأطفال. الخوف من الحقن وسماحة الطيب الباردة وتلك الملعقة الخشبية التي يضعها على فمه فيكاد يتقياً.

وصل أخيراً إلى الصلاة ليجد بعض الأكواب والملاعق والحلل في مكانها.
مذا هو الغذاء الأخير لمجموعة من الطلاب المسيحيين.

يوم كسر الفازة واختبأ تحت السفرة. الخوف وآلام البطن والتفكير في العقاب الذي سيناله.

نظر حوله ليجد صلباناً خشبية وصوراً للمريم العذراء وجدول امتحانات.
كم كان يخاف من ورقة الأسئلة وأن يحصل على مجموع أقل من أقرانه
وأبناء صديقات والدته.

الخوف من نسيان كراسة الإملاء وعقاب مدرسة اللغة العربية.

الخوف من سخرية أقرانه في المدرسة التجريبية.

الخوف من معايرة زملائه في المدرسة الأمريكية أنه قد صعد إليهم من
مدرسة تجريبية.

الخوف على أخته.

على ضوء محموله رأى ساعة حائط ميتة حتى لو أشارت إلى الوقت
الصحيح مرتين كل يوم. تأمل شريف الشقة على ضوء محموله فبدت له
حياته بعيدة وكأنه شخص آخر يتابعها. تمنى لو رآته أخته الآن في جوف
الشقة التي كانت تقلق مضاجعها الحكايات عنها.

اتجه إلى باب الشقة الذي لم يفتح منذ فترة طويلة، وفتح الباب غير الموصد
من الظلام اندفع إلى نور السلم ليخرج من رحم الشقة وقد ولد من جديد.

الفصل السادس

- 1 -

عندما عرض شريف على هدى أن تنتقل للعيش في فيلا سامي بالتجمع الخامس وافقت فورًا واستسلمت دون قيد أو شرط.

تركت منزلها بعد أن خنقتها تلك الحوائط.

هذا لم يعد منزلها بل هو السجن الذي أعدمته فيه شبابها وقتلت فيه ابنها دون عمد.

تأملت الأثاث والملابس والذكريات والصور وكأنها ترى فاتورة حياتها بالتفاصيل. بدلة زوجها العسكرية ورتبته، طرحة فستان زفافها، مفارش، بالطور قديم حين كان الشتاء أدفأ والقلوب أصفى والوسط أرفع.

لم تودع أحدًا ولا حتى سلمى وانتقلت مع شريف وأربع حقائب إلى منزل زوج ابنتها في سيارة سامي وسائقه الجديد.

دخلت السيارة إلى جراج الفيلا الصغير. نزل شريف وساعد جدته على النزول من السيارة وأرشدتهما السائق إلى الحديقة الشاسعة الملحقة بالفيلا المكونة من ثلاثة أدوار والتي تعتبر كقصر صغير. تأمل شريف قصر والده الجديد بينما ألقّت هدى نظرة على منفاها. استقبلتها نوال بالأحضان والقبلات. بدت هدى كملكة هُزمت في الحرب مستسلمة وهي تدخل إلى الفيلا تتبعها أربع حقائب يحملها الخدم والسائق.

وفي منتصف الحديقة وقف سامي مزهوًا بلحظة قد انتظرها كثيرًا. سلم على حماته وتبادلا نظرة لخصت ثلاثين عامًا مضت ليحتضن بعدها ابنه ويحتويه سائلًا إياه كما هي عادته لم أصبح أكثر نحافة.

وفي الحديقة جلست نوال وهدى وسامي وشريف، وللحظات خيم عليهم الصمت كما حدث في منزل المهندسين. التوتر ما بين هدى وسامي كان جليًا يكاد يصم الأذان. حاول شريف أن يلطف الجو وقد تراخت قبضة الغرور الصبياني عن لسانه فابتلت ردوده الجافة المعتادة بندى المشاعر التي أذن لها أن تخرج من مكمناها أخيرًا وبدأ يحكي لوالده ما حدث له منذ أن ترك فيلته.

ضحك الجميع عندما أخبرهما عما حدث له وهو جالس على أريكته فوق السيارة النصف النقل. ورويدًا ورويدًا شعر سامي أنه كان على حق عندما ترك ابنه ليعاني قليلًا كي ينضج. هو يشعر بالفعل أن هناك تغييرًا ما طرأ عليه.

وفي موعد الغداء انتقلت العائلة إلى غرفة الطعام والتي علق سامي الساعة القديمة ذات العصفور لتحتل حائطاً بأكمله. هذه الساعة التي انتقلت من بيت الجيزة إلى المهندسين وأخيراً إلى التجمع الخامس. ابتسم شريف وهو ينظر للساعة ولمح نظرات بها شيء من التشفي في عيون والده، أما جدته فالتجهدت لمقعد الصدارة كما اعتادت ثم توقفت فجأة واتجهت إلى مقعد آخر، جوار ابنتها.

وبعد الغداء عرض شريف موضوع هدم العمارة وإخراج السكان على نوال وهدى باعتبارهما الوريثتين الشرعيتين للعمارة وأرضها. هزت هدى رأسها بلا معنى ونظرت نوال إلى سامي الذي قال لشريف إنه يوافق على إمداده بالمبالغ اللازمة لدفع تعويضات إلى السكان مقابل نسبة من ثمن بيع الأرض ثم غاص في مقعده مزهواً بنفسه وقد وضع ساقاً فوق الأخرى.

لم ترد نوال لأنها سلبية.

لم ترد هدى لأنها تشعر بالقهر.

لم يرد سعيد لأنه متوفى.

سألها شريف ما إذا كانت موافقة. لم ترد هدى وأشارت إلى علبة سجائر سامي فناولها إياها شريف وقد أشعلها وسط ذهول ابنتها.

- ماما.. إنتي بتشربي سجائر؟ تَو تَو تَو.

غاصت هدى في مقعدها بدورها ونفثت دخانها بهدوء ورمقت سامي بنظرة تحدُّ قائلة:

- مين قال لك ان السكان هيمشوا؟ لو طلعت أم منير وسلمى ومنصور مش هتعرف تطلع أميمة ولا فاطمة ولا لبنى.

حكى لها شريف ما دار بينه وبين لبنى وموافقها الضمنية، بل وعرض عليها المساعدة كي يتم الأمر. سكتت هدى للحظات بينما ظلت نوال تنقل نظرها ما بين أمها وزوجها كحكم التنس. دفنت الجدة سيجارتها رغم أنها مازالت في ريعان شبابها قائلة إن لها شرطاً واحداً كي توافق، وهو أن يشرف شريف على هدم العمارة وبناء عمارة أكبر بدلاً منها، ويخصص لها شقة بنفس المساحة ولكن في الدور الأخير.. لقد ملت الدور الأرضي وتلك القضبان الحديدية على الشرفات والشبايك.

قال شريف لجده إنه لا ينوي أن يعمل في المقاولات وإنه ليس مهتمًا إلا ببيع العمارة بدون سكانها وعلى من يتاعها أن يقوم بأعمال الهدم والبناء.
- ده شرطي الوحيد.. أنا مش هموت إلا في شقة على أرض جوزي.

هكذا قالت هدى جملتها الأخيرة بصرامة وثقة وبدا واضحًا أنها غير مستعدة للنقاش. ربتت نوال عليها وهي تقول كلمات مثل: «بعد الشربا ماما»، وما إلى ذلك. تبادل شريف وجدته النظرات لكن بدا واضحًا عليها أنها لن تتزحزح عن قرارها قيد أنملة. هز سامي رأسه موافقًا وسط اعتراض شريف الذي قال:

- أنا صيلبي.. ماليش دعوة بالهد والبناء يا تيتا.

تدخل سامي قائلًا بحزم: إنه على شريف أن يحترم رغبات جدته، وإن كان هذا هو شرطها فعليه احترامه. وافق شريف على مضمض وهو يقسم بينه وبين نفسه إنه عجز تمامًا عن فهم هذه العائلة وعلاقة أفرادها بعضهم ببعض.

- 2 -

أدركت الشمس أرذل اليوم فدفنت نفسها بنفسها في الأفق تاركة شذا الوانها في سماء الليل الشاب. توقفت سيارة منصور جاد الله أمام أحد الفنادق بمنطقة الدقي ليعبر المدخل بثقة فيحييه عامل الاستقبال النحيل رافعًا يده لنخفي علامة الثلاثة نجوم التي تصنف هذا الفندق طبقًا لوزارة السياحة ونوعية رواده. صعد إلى الدور الثالث ومشى في الطرقات وقد أزكمت أنفه رائحة المبيدات التي تنبعث من الموكيت. طرق باب الغرفة ففتح الباب نصف فتحة.

- ده أنا يا منمنم.

فتح منصور الباب ودخل إلى الغرفة ليجد منال بقميص نوم أخضر شفاف وقد أغلقت ستائر الغرفة اعتمدت في الإضاءة على تليفزيون يعرض فيلمًا قديمًا.

ابتسم منصور وهو يفتح الستائر ليلقي نظرة من شباك الدور الرابع على غابة من أطباق استقبال الأقمار الصناعية⁽¹⁾ فوق أسطح العمارات ترمقه

(1) الدش.

في سخرية. أعاد غلق الستائر ليضيء نور أبا جورة واهنة فقفزت إلى الفراش. واختبأت منال كعادتها تحت الأغطية كلما أضيئت الأنوار.

في بداية علاقتها الجسدية والتي بدأت حتى قبل أن تتوفى زوجة منصور، كانت تعتمد إلى إطفاء النور خجلاً وحياءً مما تفعل فحتى مع وجود ورفه الزواج العرفي كان هناك شعور بداخلها أنها تفعل شيئاً خاطئاً. أما الآن فهي تعتمد إلى إطفاء الأنوار حتى لا يلاحظ حبيبها طعن السنوات لجسدها بمداه الزمن.

خلع منصور باروكته الشهيرة ودخل إلى الحمام بوقار طبيب إنجليزي. يستعد لإجراء جراحة في القلب. وبعد أن انتهيا اقتربت منه وهي تريح رأسها على صدره. في هذه اللحظات تعود طفلة، كل مشاكل الكون تحمل في لحظة. بعثرت شعرها المصبوغ في محراب شعر صدره الأبيض قرباناً للحب ونكاية في الزمن وهروباً من الحاضر وتضرعاً للمستقبل أيًا كان المستقبل.

تعشق منال تلك السويغات التي تختلي فيها بمنصور خارج دهاليز ماسيرو، بعيداً عن الجو المعبق بالمؤامرات ودون شعره المستعار وكان الباروكة التي يرتديها هي تاج لملك يضطر أن يبدو حازماً أمام رعاياه، ولكنه ما إن يخلعه حتى يعود لطبيعته حبيباً رائق البال وغير متكلف وأصلع.

لقد أحبه صديقاً وحبيباً وعندما تزوج دفنت نفسها في برنامجها لتتخاض من جمهورها المحطمة قلوبهم عائلة وسنداً وكفي تشعر بأنها ليست وحيدة. وعندما عاد إليها واتخذها عشيقه يقابلها سرّاً من وراء زوجته اكتشفت أنها

ت معه كل أشكال العلاقات ما بين الرجل والمرأة عدا أن تكون زوجته
العلن.

وفي اليوم الذي قرر فيه مصارحة زوجته أنه ما زال يحب حبيبته الأولى
، أن زواجه كان خطأ فاجأته زوجته أنها حامل . كم كانت المفاجأة قاسية !
، اكن منصور الذي تعرفه .. هذا الرجل النادر قد اضطر أن يضحي بسعادته
: ، لا يخرج ابنه إلى النور دون أن يكون أبوه بجواره . لقد تحطمت منال
، اكنها تفهمت تضحية حبيبها فقبلت أن تعود لدور العشيقة على أن
، تكون زوجة الأب هادمة البيوت . هكذا ترى منال قصتها مع منصور مثالا
التضحية والإيثار .

أما رأس منصور الأصلع المسجى على الوسادة فكان مزدحماً بالأفكار
التي عادت بعد أن هدأ كل شيء حسيًا . هو لا ينكر حتى بينه وبين نفسه أنه
لم يجب أحدًا في حياته كما أحب منال . ارتبط بزوجه ليثبت لمنال أنه يستطيع
أن يتزوج من هي أحلى منها . وبعد سنوات قليلة أيقن أن هذا ليس سببًا كافيًا
لاستمرار زيجته؛ فقرر بينه وبين نفسه أن يطلق زوجته في أقرب فرصة .

يوم أن تصالح مع منال عادا وكأنهما كانا معًا بالأمس القريب . وكان
السنوات التي تخصها فيها لم تكن أكثر من بضعة أيام . اشتاق إليها واشتاق
إلى نفسه معها فتحولا من حبيين إلى عشيقين يتقابلان سرًا في أحد فنادق
وسط البلد والتي يمتلكه أحد أصدقائه . أضافت السرية ومغامرة اللقاء
طعمًا حريفًا لقصتها وتحولت منال من صديقة إلى حبيبة إلى عشيقة .

ولكن منال التي تحطت الثلاثين وقتها لم يعجبها دور العشيقة فأصرت على أن يطلق منصور زوجته ويتزوجها هي. ويوم أن تشجع وكاد أن يخبر زوجته بنيتها للطلاق منها كانت الزوجة قد حَضرت له مفاجأة. لم يكن حملها كما قال لمنال، بل ترقى حماه ليشغل منصباً هاماً جداً بوزارة الإعلام. منصور لن يطلق الترقية أبداً.

هنا جاءته مكالمة تليفونية من شريف يخبره فيها أنه جاهز بالمبلغ وعليه تحضير أوراقه للتنازل عن الشقة. أعادت المكالمة إلى منصور الحياة وضخت بعض الدماء في عروقه وخرج من الحمام ليطفئ الأنوار في إشارة منه أن يريد أن يحاول في الجولة الثانية فإن أصاب فله أجران وإن لم يستطع فعلى المتضرره أن تجتر أورجازمات الماضي البعيد السعيد.

- 3 -

استيقظت سلمى من نومها المتقطع لتجد أن الملاءة التي تضعها على فاترينة المكتبة قد تحركت من مكانها أثناء الليل وأن الابن الأكبر لفاطمة يراقبها وقد جرى فزعاً عندما رآها تستيقظ. لعنت كل شيء وتشاءبت وهي تعد كوباً من الشاي.

أخبرها شريف بالأمس عن كل شيء.
فتح لها قلبه.

رأته شاباً قوياً ورجلاً له قدرات أسطورية وقلب طفل.

قرأت سلمى يوماً في أحد الكتب الخفيفة عن الطرائف والعجائب من
مخلف العالم أنه أدرج في أحد كتب الطهي طريقة عمل الفيل المحشو بالأرز.
مقادير الوصفة كانت عدد واحد فيل إفريقي متوسط نخلي، ونصف طن أرز،
مائة كيلو زيت ذرة. أولى الخطوات كانت: ضعي الفيل في حلة حتى يسلق.
الوصفة صحيحة نظرياً ولكنها مستحيلة عملياً. تماماً كما ترى سلمى الآن
استحالة ارتباط حفيد الباشا من بياعة المكتبة التي لم تتم تعليمها الجامعي.

هل يمكن أن يفكر فيها شريف كزوجة؟

هل يمكن أن تعد طبق الفيل المحشو؟

نظرت من خلال الفاترينة لتجد نجوى توشك أن تركب سيارتها ومن
حلفها سيارة نقل عملاقة شحنت فيها تاريخها.

جرت من المكتبة مسرعة كي لا تفوتها هذه اللحظة ولكن سيارة نجوى
انتهت قد انطلقت بالفعل إلى فيلتها بالساحل الشمالي حيث قررت أن تعيش
بأبقي لها من عمر بعيداً عن عمرها الذي مضى.

لسنوات طوال حلمت سلمى بهذه اللحظة التي ستتقم فيها من
نجوى وتراها مذلولة ومكسورة. سنوات وهي تكتم في قلبها ذلك الغضب
من العريس الشاذ ابن إحدى صديقاتها، الذي أحضرته لها كي ينفي عن
نفسه هذه التهمة. لم تصدق سلمى هذا العرض ولكن نجوى حاولت أن
تفريها بمبلغ المهر والشبكة الأماظ. ذهلت سلمى من هذا العرض الرخيص

واقترحت أن تزوجه لأخت شريف. لم ترد عليها نجوى ولكنها رمقتها بنظرة لم تنسها سلمى حتى الآن، ومن يومها وهما لا يتحدثان.

تأملت سلمى السيارة التي تقل نجوى وهي تبتعد وعادت إلى المكتبة بعد أن اكتشفت أنها ما زالت ترتدي البيجاما وهي في الشارع. رشفت رشفة من كوب الشاي خلف مكتبها ودخلت إلى الحمام الصغير لتغير ملابسها.

تذكرت وهي طفلة عندما كان أبوها يحني رأسه عندما يراها ويناديها ست نجوى. لم تنس عندما كانت تلعب مع شريف وأخته في الشارع وتراها نجوى فتنهر شريف وأخته وهي تصرخ فيه أن أولاد عز الدين باشا لا يلعبوا في الشارع زي ولاد البوابين ثم تنظر إليها نظرة ذات مغزى.

نجوى تراها مثل عزيزة وفاطمة ولوتو.

كم تشابه مع ابنة فاطمة!

كم من الليالي باتت تحلم أن تذهبا وتطردها من العمارة وتبتاع شقتها. لا يمكن أن تصدق أن هذه اللحظة أتت وهي تعد كوبًا من الشاي في المكتبة. ابتسمت في قرارة نفسها ورأت أمامها فاطمة وقد ارتدت عباءة جديدة. قامت سلمى من مكانها لتحيي فاطمة. ما زالت سلمى تحمل لها جميل إنقاذها من مرزوق. حيثها سلمى فقالت فاطمة وهي شاردة:

- بكرة الدور ييجي علينا.

نظقتها فاطمة وتركت سلمى غارقة في ألف سؤال. صوت خفيض
مكيم داخل رأسها قال لها متشياً من الكافيين إن طرد نجوى ما هو إلا
مدمة لإخلاء العمارة من السكان وأنه عاجلاً أم آجلاً سيأتي عليها الدور.

صعقت سلمى من الفكرة فالمكتبة لا تمثل لها فقط مورد رزقها الوحيد بل
هي منزلها في نفس الوقت. لن تتحمل الحياة في إمبابة وسط جاراتها اللاتي لا
:أغل هن سوى الثرثرة والنفاق ونسج المكائد حول أزواجهن لضمان عدم
:رهم على الزواج بأخريات. في إمبابة لن تجد إلا النفاق والكآبة والضجيج
:الحسد أما في هذا الممر فكل شيء يتم في هدوء ورقي حتى السرقة والزنا
:الحقد.

رن جرس الباب ليفتح شريف الباب وهو شبه نائم ليجد أمامه سلمى
التي أشاحت بوجهها بعيداً ليكتشف أنه يقف ولا يرتدي سوى بوكسر
:رسوم عليه وجه سمايلي أهدته إليه إحدى صديقاته السابقات في عيد ميلاده
:داعبته بأن الوجه الأصفر الباسم لا ينقصه سوى الأنف.



اختطفت سلمى نظرة إلى أكتافه العريضة وصدره العاري. اختلس هـ نظرة إلى صدرها ووسطها. انتابه نفس الشعور الغريب الذي يلزمه منذ أن عاد إلى عالمه القديم. ذاك الشعور بالمزيج الغريب من الألفة والغربة في نفس الوقت لكل الموجودات البشرية أو الجماد النابض بالذكريات.

هو الآن يقف مع فتاة يعرفها جيداً ولا يعلم عنها شيئاً في نفس الوقت من المفترض أن يعاملها كأختها ولكنها في نفس الوقت كانت أول صديق يلمسه في حياته. بعد أول لمسة من المستحيل إعادة عقارب العلاقات إلى الوراء. كما أن جيناته الموروثة من رجل الكهف الأول تدفعه أن يغض الطرف عن تعقيدات المدنية وهم الحضارة.

اللجنة على ماسلو والهرمونات وحر الصيف.

دار داخل رأسه حوار ما بينه وبين رجل كهف يشبهه إلى حد ما، إلا أن شعره كان أطول ولحيته كثيفة وبوكسره مصنوعاً من جلد الماعز. غمز له شريف رجل الكهف وأشار إلى مفاتن سلمى وأصدر حركات بذئثة بمعنى أنه عليه أن يضاجعها الآن. نظر له شريف المدني مرتدياً البوكسر قائلاً له: «الحوار الداخلي» عيب.. ده احنا مرتبين مع بعض يا همجي». أصدر شريف الكهف أصواتاً وإشارات سافلة قائلاً «إنت هتمثل بالآ؟».

انتقلت حرب الهرمونات إلى سلمى. لقد صار صديق طفولتها رجلاً ذا شعر صدر لذيذ وعضلات ليست مفتولة ولكنها شهية وكتفين عريضتين. تستطيع أن تحملها بفستان فرحها إلى غرفة النوم في فندق الماريوت بعد أن تلتقط صورة لها على سلمه الشهير.

قطع ملحمة الهرمونات سقوط جسم ما في المنور ليندفع شريف إلى شباك المطبخ. بينما لم تتحرك سلمى من مكانها وظلت واقفة تلتقط أنفاسها وهي شكر الله على سقوط كيس الزبالة في الوقت المناسب قبل أن تضعف وتنهار ،
نفض على شريف بشراصة نمرة جائعة على محل جزارة.

فتح شريف شباك المطبخ ليفاجأ بأكوام من أكياس القمامة الملقاة وأطنان امصاب السجائر. قفز إلى المنور من الشباك بحركة رشيقة وهو يشاهد تابلوه المذارة في عمارة كانت يوماً ما مقصد أهل الفن والسياسية.

نظر لأعلى ليجد أجهزة التكييف وقد وضع البعض فوقها حواجز شبيهة لحمايتها مما يسقطه الجيران بالأدوار العليا. حواجز تشهد على أن هناك العديد من المشاجرات قد نشبت. أكوام من القمامة وقطط تمرح وفئران بعيدة وتتعايش مع القطط؛ فالغذاء وفير وكفي للجميع. شبكة معقدة من اسير مواتير المياه حكمت قصصاً مضت.

صرخ شريف بأعلى صوته ليردد المنور صدى صرخته:

- مين الزبالة اللي بيرمي الزبالة؟

أطلت سلمى من شباك المطبخ وهي تضحك قائلة:

- إنت لسة فاكر يا شريف.. أنا وانت وأختك قعدنا سنين بنحاول نعرف

قفز شريف إلى أعلى ليعود إلى الداخل بحركة أكثر رشاقة فلفحت رائحته

ال مستقبلات العصبية لدى سلمى وبدأ عقلها يستجوبها بجنون.

هل ستجبه؟

كم فتاة عرفها؟

هل يحب النوم على الجانب الأيمن أم الأيسر للسريـر؟

هل سيحنو عليها ويقبلها عند العودة من العمل؟

تري ماذا سيكون شكل أطفالهما؟

هناك أكثر من تفسير لاندفاع شريف في مشاعره ناحية سلمى رغم أنه لم يرها إلا منذ فترة قصيرة نسبياً. التفسير الأول أنه يعرفها بالفعل منذ أن ولدت أي منذ خمسة وعشرين عاماً. التفسير الثاني هو أنه غير متزن بعد ذلك ما خبر في فترة قصيرة وقد يدفعه هذا الاتزان إلى التثبت بأي أحد ولكن التفسير غير منطقي لأن شريف قادر على أن يصاحب العديد من الفتيات من الشلة أو خارجها. ربما كان لمشاكله المادية دخل في اندفاع مشاعره، فهو معتاد على أن يكون الملك المتوج ولحين ينتهي من مشروع هدم العمارة فإنه يستطيع أن يظهر بمظهر الشاب الكريم وسلمى على الجانب الآخر فإنه يسهل إرضاؤها. قد يكون التفسير الأخير قاسياً بعض الشيء ولكنه احتمالاً لا يمكن نكرانه.

التفسير الأخير أنه قد أحبها وكفى بهذا سبباً لأن يلقي بكل ما قيل له. أقرب صندوق للقمامة الفكرية.

سلمى هي الحقيقة الوحيدة الباقية من ماضيه ولم تهدم بمعوله.

كان يقرأ معها المجلات المصورة مجاناً في المكتبة ويطلق هو وهي وأنها.

على من يتعاونها لقب زبائن.

نذكر حين فشلوا في قراءة مجلة ميكي لأن صفحاتها كانت ملتصقة من
الأعلى فكان شريف يفتح الصفحة ويحكي القصص المصورة للفتاتين.
هذه هي لحظاته الحقيقية.

يوم ضرب الصبية لأنهم عاكسوا أخته سلمى. حينها شعر بالفخر.
يوم حل العجلة للسطوح.

يوم كف عن شد ضفيرتها وبدأ يتحسس شعرها.

سلمى ما زالت كما هي كمجلة ميكي القديمة التي كانت تصدر عن دار
اللال ما زالت صفحاتها ملتصقة من أعلى حتى وإن تلصص رجل أو أكثر
من القراء.

نظرت سلمى إلى الشاب نصف العاري الذي يجلس أمامها وقد لاحظت
طاراته وفجأة انتابها خاطر أن يحاول شريف اللعب بقلبها كي تتنازل له عن
الكتابة. وهو تفسير لا يخلو من المنطق على أي حال.

قررت أن تواجه بطريقة مباشرة

- إنت ناوي تطردنا وتهد العمارة؟

- هدف تعويضات.

- مش عايزة تعويض، أنا عايزة مكتبة بابا وجدو وعلى فكرة العقد باسم

أنا. يعني أنا الوريثة...

- مش عايزة مكتبة زيبا في برج طويل؟

طرقت برأسها إلى الأرض فبدت وكأنها تنظر إلى البوكسر وهي تسأله عن طوله. ضحك شريف. اندهشت سلمى للحظة ثم فهمت الدعابة فاحمرت وجنتاها وقالت:

- أنت سافل.. أنا ماشية.

- استني بس.. أنا لما ههد العمارة هديكي مكانها مكتبة أكبر.

- مش عايزة.

- يعني عايزة تبقي زي عم سعد المصوراتي اللي في آخر الشارع؟

- الرجل ده يا ما اتصورنا عنده واحنا صغيرين.

جلس شريف أمامها في الصلاة وأشعل سيجارته وأعطاهما واحدا، فأشعلتها وهي تحسد قطرة عرق تنساب فيما بين شعر صدره. أخبرها شريف أن عم سعد يرفض بيع الكاميرات الحديثة ولم يطور محله حتى أن البعض يظنه محلاً للأنتيكات وليس استوديو تصوير. أردف شريف قائلاً: إن سبب نكبة عم سعد أن محله إيجار قديم يدفع له شهرياً ثلاثة جنيهات فقط. هذا هو سبب نكبة عم سعد. سلمى رأسها ومطت شفيتها متسائلة عن معنى ما يقول. هتف قائلاً:

- لو كان بيدفع إيجار مناسب كل شهر.. كان زمانه اضطر يطور نفسه

كان زمانه استفاد وصاحب الملك استفاد.. لكن عبد الناصر ماكانش عنده فكرة غير إنه يسرق من الأغنياء علشان الفقراء يصقفوا له.

صرخت سلمى دون داع وهي الناصرية أبا عن جد موجهة كلامها لشريف وأخبرته وهي تضغط على حروفها أنه بسبب عبد الناصر تم...

مامي المياوي والده هو شخصياً من أن يصبح طبيباً وأنه حتى بعد وفاة
امر بعقود مازال يحميها هي وعم سعد من أمثاله. أطفأت السيجارة وقد
مد طعمها في فمها ليسود الصمت لحظات حتى همس شريف.

- طب وهو العدل أن يبقى عندي عمارة في شارع مراد بتطلع لي ثلاثين
منه في الشهر؟ عارفة ليه فيه أزمة سكن؟ علشان أصحاب العمارات بطلوا
أحروا.. كله بقى تمليك.. مافيش دولة في العالم كده.

قررت سلمى أن تنهي المناقشة حتى لا تتطور إلى مشادة. اقترب منها
شريف وقبل أن يتفوه بأي كلمة سمع صوت طرق شديد على باب المصعد.
لقد انقطعت الكهرباء فعلق أحدهم في المصعد. اندفع شريف ناحية باب
المنزل فصرخت سلمى وأفهمته أنها لا تريد أن يعرف أحدهم أنها كانت
معه في الشقة وهو بالبوكسر. خرجت هي من الشقة ودخل شريف ليرتدي
أبشيء. وحين خرج فهم أن المصعد معلق ما بين الدور الأول والثاني
وأحدهم يصفق الباب بشدة متحدثاً بلغة هي أقرب للإيطالية أو الإسبانية.
نظر شريف حوله فلم يجد سلمى. تحدث مع الرجل بالإنجليزية ليخبره بأن
النجدة في الطريق، وعليه أن يلتزم الهدوء. عندما سأله الرجل بالإنجليزية
عمن يكون. تردد شريف قليلاً ثم أخبره بأنه صاحب العمارة. صمت الرجل
المحبوس بالداخل وهو يتمتم بكلمات لم يفهمها شريف. هنا عادت سلمى
معه لوتو المرشم. ضرب شريف جبهته وهو يسألها:

- ماتلاقيش غير المسطول ده؟

- قال إيه اللي رماك على لوتو.. قال اللي ألت منه.. فاطمة مش موجودة.

في الظروف العادية لم يكن شريف ليهتم بإنقاذه ولكن بظهور سلمه وخروج زوجة ابن أميمة الأربعينية ذات الجمال الفتان والتي ابتسمه لشريف بخجل تحول الأخير إلى رامبو الذي سيسحق الجيوش حتى يحرر الرهائن. بعد فترة خرجت أميمة وهي تنتقد صيانة العمارة. قال لها شريف - أولاً: يا طنط أميمة الكهرباء قطعت.. ثانياً: بالتلاتة جنيه الإيجار اللى حضرتك ساكنة بيهم كويس قوي إن فيه سلام مش أسانسير.

أخبرته أميمة أنها هي الوحيدة التي دفعت مصاريف إصلاح المصعد، عن موضوع الثلاثة جنيهاً إيجاراً فأخبرته بلهجة تفضح أصولاً شعبية أنه لو كان متضرراً فعليه أن يقاضيهم وليأخذ حقه بالقانون.

تدخلت سلمى وهي تنظر لشريف نظرة لائمة ووجهت كلامها لأميمة، بأن شريف لا يقصد ما فهمته ولكنه منفعل لأن أحدهم يستخدم المصعد دون وجه حق وأعقبت كلامها بأن نظرت له نظرة لائمة.

تدارك شريف الموقف بسرعة فهو لا يريد استفزاز أي من السكان في هذه المرحلة. عليه أن يسمو فوق كبريائه وعنجهيته التي غذتها فيه هذو، ونجوى لكونه حفيد عز الدين باشا لأنه لو لم ينجح في إخراج السكان فسيكون لفشله عواقب وخيمة.

اقترب شريف من أميمة وأكد ما قالت سلمى قائلاً بهدوء إنه منفعل لأن أحدهم قد استخدم المصعد دون وجه حق، وسبب عصبية هو أن أحدهم المحبوس في المصعد أيًا كان يستغل ما ليس حقاً له ولم يدفع ثمنه.

هدأت أميمة قليلاً وهي تسب وتلعن الشخص بالداخل الذي بادها
الاباب بالإيطالية وأعقب وصلة رده بصوت اعتراضى من حلقه.

صرخت أميمة بأعلى صوتها أنها تريد أن تعلم لمن من الجارات العاهرات
ان سىصعد هذا الرجل.

استيقظ محمود زوجها وخرج ليحاول هو أيضاً التحكم فى أميمة التى
أدت فى هذه المرحلة إصدار تلك الأصوات الاعتراضية رداً على تلك
الأصوات التى يصدرها الشخص المحبوس بالداخل وهو يطلق وأبلاً من
السنائم بالإيطالية وتحولت العمارة لزريرة خنازير تسب بعضها البعض.

وأخيراً نجح محمود وابنه فى التحكم فى أميمة وأدخلاها فى المنزل وهما
مقان شريف بنظرات بها الكثير من الخجل.

وبعد أن دخلت أميمة هدأ كل شيء فجأة وكأنها مثل عصفور الساعة
الذى يملأ الدنيا صياحاً ثم يختفي. استل لوتو مفتاح المصعد وفتحه
هو يقول:

- يا جدعان خضتوني على الفاضى، ده الأستاذ منير عبد العال.. آمال
تقولوا خواجه ليه؟

خرج منير عبد العال القاطن فى الشقة رقم خمسة بالدور الثالث من
المصعد قائلاً للتو: «وأنا يعنى علشان منير ومش خواجه تسييني محبوس
بالوتو الكلب؟». ضحك لوتو الذى وجد فى سباب منير جواً مألوفاً من
الحميمية.

نظر منير إلى لوتو الفاتح فمه ببلاهة فصفعه منير برفق على رقبته و٨٠ يعطيه نقودًا لبيتاع له بعض البانجو من فاطمة زوجته. غضب لوتو و٨٠ يقول إنه لا يعلم شيئًا عن البانجو. صفعه منير مرة أخرى برفق وهو يسلم والدته فابتسم لوتو وضحك واختفى ليترك شريف ومنير وحدهما على السلم.

من المعتاد أن الجار الذي يتمنى الوالدان أن يصبح ابنهما مثله يختلف عن الشخص الذي يراه الطفل نفسه مثلاً أعلى. فالآباء في الأغلب يتمنون أن يكون ابنهم مثل ابن جارهم العبقري ثقيل الظل والراسب اجتماعيًا. أما الابن فيرغب أن يكون مثل صديقه الفاشل دراسيًا المتفوق اجتماعيًا.

في حالة منير كان الموضوع مختلفًا تمامًا فهو كان من الأوائل دراسيًا وناجحًا اجتماعيًا ومبهرًا رياضيًا ومعشوق الفتيات والسيدات، ويُقال إنه كان على علاقة بنساء في الأربعينيات من عمرهن وهو لا يزال في السنة الأولى بكاه علوم؛ لذا كان منير المثل الأعلى لشريف على الصعيدين الدراسة والصياء.

- شريف...إيه اللي رماك علينا؟

- إنت بقيت إيطالي ولا إيه يا منير؟

- أصلي باخد كورس كده وعندي امتحان وقلت أتمرن على عماره العاهرات دي.

بسبب فرق السن بينهم كان شريف وأخته وسلمى ينظرون إليه على أنه من حكماء الجيل الأكبر. في الوقت الذي كان فيه ثلاثتهم في المرحلة الابتدائية كان هو في السنة الأولى من الصف الثانوي.

ملاً منير الفراغ الذي خلفه خال شريف بعد وفاته. فإذا كان الحال هو
اب شريف وهو طفل؛ فمنير هو أستاذه حين كان على أعتاب المراهقة.

وبطبيعة الحال كان منير هو الحب الأول لأخت شريف التي كانت
تراه في كل مرة تراه مع إحدى الفتيات. كانت تتخيل أنه يفعل ذلك عمدًا
لماظتها وتخلق روايات لسلمى مفادها أن منير يحبها ولكنه لا يريد أن
يح لها بمشاعره حتى ينتهي من دراسته. وظلت تعيش في هيستيريا الحب
من طرف واحد حتى انتقلت إلى المدرسة الأمريكية وهناك تعرفت على
اب آخر وصفته لسلمى بمدحت.. ولد عضلات وتاتو وعنده موتوسيكل
سببت منير ثم نسيت سلمى والعمارة كلها بعد ذلك.

رباه كم تغير منير! هكذا حدث شريف نفسه وهو يصعد إلى شقته بالدور
الثالث. لقد غزا الشيب شعره الطويل والذي يعقسه خلفه كذيل الحصان.
وهو النابت تحلله الكثير من الشعيرات البيضاء يرتدي بنطلون صاعقة
فميصًا متسخًا وأسنانًا ختمها التدخين بالسواد.

دخل شريف الغرفة ذات الرائحة الخانقة ليجد نفس الدولاب القديم
الذي كان صندوق الدنيا يومًا ما بالنسبة له، ممتلئًا دائمًا بالخيرات من أفلام
منسية وأحدث الألبومات الموسيقية قبل انتشار الإنترنت وزجاجات من
المعمر المستورد وخراطيش سجائر.

في طرف الغرفة مكتب منير القديم الذي كان ملكًا لوالده فيما مضى،
ملك المكتب الذي جلس عليه عقليتان كان من الممكن تغييرهما مصر إلى

وضع مختلف. وفوق المكتب صورة لوالده بجوار عبد الناصر قبل أن يترأ أولاده ويتزوج امرأة روسية.

تجول شريف بعينيه في الغرفة التي لم تتغير منذ أن تركها. كتب في كل مكان. كتب على الطاومات، كتب تحت السرير وعلى السرير وفي الدواليب وفوقهم المنزل كان به ثلاث مكتبات على الأقل إحداها في الحمام حسب ما يذكر.

دار حديث بطبيعة الحال حول تلك المشاجرة التي دارت بينه وبين أميه. منذ قليل. أشار منير إلى سلسلة مفاتيحه قائلاً إن مفتاح المصعد قد أ- نسخة منه من لوتو مقابل عشرة جنيهات ولم يشأ أن يفضحه.

وبعد لحظات من الصمت ابتسم وسأل منير عما إذا كان قد التحق بوظيفة في مكان بحثي كما كان حلمه دومًا. بلهجة لا هزل فيها قال له منير - أخذت البكالوريوس وعملت ماجستير وورميتهم في صحيفة الزبالة ويدرر إيطالي علشان أكت من المخروبة اللي احنا فيها دي.

بدأ منير في حكي ما حدث له في السنوات الماضية. في سنوات الدراسة، كان يذهب عند قريب لوالده يعمل في aquarium⁽¹⁾ في فلوريدا حيث يمتزج العلم الذي يحبه بالمتعة التي يعشقها. كان يقوم مع قريبه بتنظيف الأحواض والكشف عليها ومتابعة الأبحاث على الكائنات البحرية ودراسة ال marine biology حتى أنه قرر أن تكون رسالة الماجستير في هذا المجال بعد التخرج. أما بعد أوقات العمل الرسمية فكان يذهب إلى الشاطئ لدراسة الأنثى الأمريكية والتي كانت تظهر بكثرة في موسم تزواج ال

(1) مربي مائي وأقرب مثال إليه مع الكثير من التحفظ في مصر حديقة الأسماك.

homo sapiens⁽¹⁾ مرتدية ما قل ودل من ملابس وتمتلك عينين لم ينهكها الماضي لا تفكر في المستقبل كثيرًا.

عاد إلى مصر عند بداية الدراسة وهو على وشك الانتحار.

- جالك الـ ARTOS؟

هكذا سأله شريف وهو يسعل من كمية الحشيش الرديء المبالغ فيها. سجائر منير شارحًا لمضيفه أن أحد أصدقائه وهو طبيب نفسي أفاد أن الشعور بالغثيان الذي يتزامن مع عودة المصري لأم الدنيا هو عرض شائع جديد من الاكتئاب الشرطي، أسماه «أعراض ما بعد العودة لمصر» After returning to Egypt Syndromes أو اختصارها ARTOS.

ضحكا معًا وأكمل منير حكايته أنه في آخر ثلاثة أسابيع في أمريكا تعرف على ملكة جمال المراهقات لولاية أوكلاهوما. وآخر ليلة قضاها معها على الشاطئ. وبعد أقل من أسبوع وفي أول يوم في الدراسة في كلية العلوم بمصر، بخته إحدى الطالبات التي لم تنل أي حظ من الجمال أو الثراء أو الكياسة، لموسه على مقربة أقل من نصف متر منها. لم يفهم منير في بادئ الأمر مفسدها إلا أنه قد فهم أنها تظن أنه يعاكسها. كانت المقارنة ما بين ميس أوكلاهوما والفتاة هي نفس المقارنة ما بين مصر وأمريكا في عدد الميداليات الأولمبية.

- طب ليه ماخذتش الشهادة وكتيت؟

(1) الإنسان.

- دي كانت النية يا شريف، بس للأسف بعد 11 سبتمبر العملية ما بقتش سهلة... كلمة ذكر أعزب مصري مسلم اللي مكتوبة على البطاقة بتاعتنا دي لما بيشفوها برة بيعرفوا إنك مش راجع إلا لو كنت أهبل.. وهم لا عايزين الهبل ولا الناس اللي عايزة تكت... المهم اشتغلت في معهد للبحوث.. شغل حكومة... وهناك لقيت ناس من أيام أبويا حالتهم زبالة.. آه والله... ساعتها حمدت ربنا إنه هرب من أمي وسابنا ومشي.

أصر منير على أن يشاركه شريف الشراب فاعترض الأخير وهو يلهم بأن من يشرب قبيل العصر هو في الغالب مدمن. هز منير رأسه موافقاً وأتمه إلى الدولاب ليخرج زجاجة من الخمر المصري الرخيص. تساءل شريف بينه وبين نفسه كيف تحول منير إلى هذا المسخ؟

سأله لماذا لم يستمر في عمله بمعهد الأبحاث؟ لم يرد منير واختفى خارج الغرفة وعاد بكوب صغير مملوء بالثلج وزجاجة مياه متسخة للغاية وبأ. يصب الخمر والماء في الكوب فتغير لون السائل من الشفاف إلى الأبيض. لتطفح رائحة أشبه بالروبوسوس في كل أرجاء الغرفة.

قال منير إنه عندما علم مدير معهد البحوث بحصوله على بكالوريوس علوم وماجستير في الأحياء البحرية كلفه بمهمة خطيرة للغاية. اتسعت عياف شريف سائلاً إياه:

- وداك جتينة الأسماك؟

- ياريت.. طلب مني أروح مع مراته السوق أنقي لها السمك.

انتظر منير حتى انتهى شريف من وصلة الضحك المستيري التي أصابته
معه أن ما أفرعه حقاً أن مديره الحاصل على شهادة الدكتوراه من جامعة
الاهرة لم يكن يتعمد إهائته ولكنه كان صادقاً في طلبه فلقد كانت مقتنعا
ام الاقتناع بأن من درس المارين بيولوجي وعمل لمدة سنتين في aquarium
أبكا لابد وأن يفهم في انتقاء الأسماك ولديه من الخبرة في تحديد طرق
ها ما إذا كانت سنجاري أو بالردة أو صينية زيت وليمون.

لا يذكر شريف متى كانت آخر مرة ضحك فيها بهذه الطريقة حتى أنه
مر بتقلصات في عضلات بطنه. طلب من منير أن يكمل حكايته فسأله
الآخر إن كان معه حشيش. أو ما شريف برأسه موافقاً وهو يخرج من علبة
جائره جوينت الطوارئ وناوله لمنير الذي أعاده إليه مرة أخرى قائلاً:

· عيب يا شريف.. من رَلَّ أشعل ولو بعد حين.. ولع انت الأول.

أشعل شريف الجوينت فهز منير رأسه وهو يضحك قائلاً:

· شريف اللي كان كبيره يركب عجلة في الشارع من ورا مدام نجوى بقى

بمطبخ!

أكمل منير قصته وحكى أنه بعد فترة ذاع صيته في أروقة وزارة البحث
العلمي وبدأ وكلاء الوزارة وكبار الموظفين يطلبون من مديره خدمات منير
وهوبته في انتقاء الأسماك فبدءوا يرسلونه مع زوجاتهم إلى السوق في موكب
اسمه رسمي لانتقاء الأسماك والجمبري والإستاكوزا. وصار تحت تصرفه
..سائق يتبع الوزارة وأكثر من ساع ليحمل الطلبات. دفن منير الجوينت في
لمغاية كريستال بدت غريبة في هذه الغرفة.

أكمل منير قصته قائلًا إنه مع مرور الوقت سعى البياعون إلى كسب ربح
بشты الطرق وبدءوا يرسلون إلى منزله كميات لا بأس بها من الأسماك -
جاء اليوم الذي طلبت منه زوجة أحد وكلاء الوزارة أن يساعدها في الطهر
فهم منير الرسالة على الفور واستمر على علاقة بزوجة الرجل حتى افته
أمرهما وتم فصله.

وفي الصالة أنهت أم منير صلاتها كما هو المعتاد بدعواتها أن يصلح
ابنها. بكت من فرط سعادتها بسماع هذه الضحكات من غرفة ابنها الصا.
منذ سنوات. فأم منير تستغل أي فرصة كي تجهش بالبكاء.

لم تكن زينب أم منير طوال عمرها كتلة من النكد والبؤس والشقاء.
هي الآن، فوق السفارة ستجد لها صورة مع زميلاتها بكلية الإعلام والسءاء.
تزين ثغرها بابتسامة أكبر من فساتينهن القصيرة نوعًا ما.

فوق السفارة برواز ذهبي يحتوي على صورة لزوجها أحمد عبد العا
النحيف الوسيم وهو بالبالطو الأبيض في معمل لكلية العلوم.

التقت الأعين في كافتيريا كلية التجارة والكفان في حديقة الأورءاء.
والشفاه في المنتزه بالإسكندرية. كانت تبيت معه في أحد الكبائن
الزواج. كانا مثالا لثورة الشباب والثورة الثقافية والجنسية وكل الثوراء.
المحلية والمستوردة القديمة والمستحدثة.

تخرجا معًا وعملت هي بالصحافة وتم تعيينه بالكلية. رغم الحالة الثوراء.
التي كانا يعيشان فيها فإن زينب لم تكتب أي مقال سياسي واهتمت
بباب المرأة وبدأت تكتب في إحدى المجلات عن أحدث طرق الوقاية

• صاف البشرة في فصل الصيف. اعترفت زينب بعد مرور السنوات أنها لم
• من مؤمنة تمامًا بمبادئ الثورة أو أي مبادئ ولكنها كانت تريد ألا تفقد
• محاب أحمد بها.

أحمد هو الذي كان يتنفس كلام جيفارا ويحلم مع عبد الناصر بالوطن
• من الكبير من المحيط إلى الخليج. بعد التخرج حاولت إقناعه بأنه عليها
• اج. هذا من كلامها قائلًا إن الزواج هو مؤسسة برجوازية فاشلة ونواة
• مع عفن تحكمه عادات وتقاليد بالية.

أخبرته زينب بأنها لا تريد الحياة معه في الحرام وأن ضميرها يؤنبها لما
• من زنا. يومها ضحك أحمد وهو يسخر منها ومن الديانات قائلًا إن
• الهنة أو هموا الضعفاء بأن هناك إلهًا هم فقط من يستطيعون التواصل معه
• حكموا في الناس وتنتفخ صناديق ندورهم.

لجأت زينب بعدها إلى أقدم حيلة تعلمتها الأنثى لترويض الرجل. قامت
• مع نفسها عنه حتى استسلم وقرأ الفاتحة مع والدها وتزوجها في أوائل عام
• 1967. وتمر الشهور وزينب تصف لقارنتها طرق تنظيف الأسماك وأحمد
• درس للطلبة صباحًا ويسكر ليلاً في أحد البارات الرخيصة ويعني مع رفاقه
• امامي الشيخ إمام حتى أفاقت مصر كلها يوم 9 يونيو عام 1967 على خبر
• بة الجيش المصري وتنحي عبد الناصر.

تغير أحمد كثيرًا بعدها ولم يعد يستهزئ بالديانات بل إنه بدأ يدعو الله أن
• جي مصر مما هي فيه. لم تفهم زينب وقتها ما يقصده ولكنها فرحت بعودة
• وجها إلى رحاب الإيمان. بدأت صحته تتحسن شيئًا فشيئًا وهو يخبرها عن

بطولات حرب الاستنزاف ومن شدة فرحته وافق على أن ينجبا طفلها الأول هشام الذي أبصر النور عام 1969.

بعد ولادة هشام عاد أحمد لنوبات اكتتابه وعندما سألته زينب عما حدث، أخبرها أنه لا يريد أن يشب ابنه وهو يرى مصر جريحة مهزومة؛ لذا فلقد قرر أن يجبر عبد الناصر في عيد العلم القادم أنه يريد أن يطلعه على مشروع القنبلة الذرية، انبهرت زينب يومها وأحمد يخرج لها أوراقاً بها بعض الرسومات الهندسية، التي لم تفهم منها شيئاً وقبلت زوجها ونامت معه وهي تشعر أن أمن مصر النووي يشاركها الفراش.

وفي أحد الأيام وقبيل وفاة عبد الناصر بشهور قليلة عاد إليها بطفاه، كريستال. سألته زينب من أين أتى بهذه الطفاية بديعة الصنع، فأخبرها أنه لديه سر خطير. اقترب منها هامساً رغم أن ابنيها الأكبر هشام لم يكمل عاماً الأول وقال بلهجة جادة إن الطفاية هدية من مكتب أحد العلماء الروس بمفاعل أنشاص النووي. اتسعت عينا زينب كعادتها وهي تتأمل الطفاه وقد بدت لها أنها محملة بأسرار الدولة العليا. قال لها أحمد إن عبد الناصر شخصياً قد أوصى بأن ينضم أحمد لزمرة العلماء الشباب المصريين في مشروع تصنيع القنبلة والتي ستلقى على إسرائيل بعد عام من الآن. شدد عليها أحمد بأن هذا الكلام لا يمكن أن تبوح به لأحد. هزت زينب رأسها موافقة. وبعد شهر ودع أحمد زوجته الحامل واتجه إلى روسيا ولم يعد حتى الآن.

لم تتلقَ منه أي اتصال ولم يرد على أي من جواباتها، حتى عندما أخبرها بأنها على وشك أن تضع مولودها الثاني. وفي منتصف عام 1971 أنجبت

وطلبت من أهلها أن يصوروا له الطفل ويرسلوه على عنوانه بالاتحاد
سوفيتي لعل قلبه يرق ويرسل لها جوابًا يطمئنها.

طوال هذه المدة والجميع يسأل عن زوجها فلم تشأ أن تعرض مهمته
احطرت فاكثفت بالقول إنه يدرس في الاتحاد السوفيتي.

وبعد أن بدأ هشام يسأل على والده وبدأ منير في السير اندلعت حرب
البر 1973. جاءت الأخبار بعبور قناة السويس فملأت الدنيا سعادة
وانتضت طفليها وهي تقول لهما إن والدهما قد أوفى بوعده ولم تستطع
أن السر أكثر من هذا فبدأت تخبر الجميع أن هناك قنبلة نووية ستلقى على
اسرائيل في خلال فترة الحرب.

ولكن لم تلق القنبلة ولم يتصل أحمد بها فلم تعد تتحمل المزيد ونقضت
عهد الصمت الذي قطعه مع زوجها وذهبت لتسأل عنه في كلية العلوم
اخبرها زملاؤه أن أحمد قد سافر في بعثة علمية للاتحاد السوفيتي عام
1967 ولم يلتزم بالدراسة ولا أحد يعلم طريقه منذ أكثر من عامين وتم
عمله منذ عام.

صرخت فيهم أن زوجها يصنع القنبلة الذرية لمصر فكيف يكون الفصل
من العمل جزاءه. وبدأت في الصباح بهيستيريا حتى خرج رئيس القسم
ودعاها للحديث في مكتبه.

اخبرها أن أحمد قد سافر إلى الاتحاد السوفيتي لدراسة الماجستير وأنه
لا علاقة له بأي مهمة تتعلق بأمن مصر النووي. ابتسمت زينب وهي تهز
أسها متفهمة أنه لا بد وأن يقول هذا للحفاظ على سرية المهمة. أخبرها

رئيس القسم أنه يقول الحقيقة فعلاً وأن أحمد قد تزوج من الدكتورة المشرفة على رسالته منذ عامين وترك الدراسة وهو يعمل الآن ساقياً في أحد المطاعم وأعطاهما رقم تليفون الدكتورة كي تتأكد.

حكى له ما أخبرها به زوجها عن العلماء الروس واستدعائه لمفاعل أنشاص. هز رئيس القسم رأسه محرّجاً وهو يقول إن أحمد ليس أول من يستغل منحة الدراسة للحصول على تأشيرة خروج من مصر ولا يعود بعدها.

خرجت زينب من عنده مذهولة ومشت من جامعة القاهرة حتى المنزلة وعقلها لا يستوعب حقيقة أنها ليست زوجة، تركها زوجها مع طفليها بسبب مهمة تتعلق بالأمن القومي المصري، بل هي مجرد امرأة هرب زوجها من البلد ومنها ومن مسئولية تربية أبنائه.

داهمتها الحقيقة الكبرى بأن الموضوع أبسط مما تتخيل. أحمد هو مجرد شاب مصري عادي كان سعيداً بالنوم معها قبل الزواج. وعندما تمنعت عنه وأغرته بالسكن في الشقة الجديدة التي استأجرها لها والدها وكتب العقار باسمها. تزوجها لينتقل من الحي الشعبي الذي يسكن فيه وحيداً بعد وفاة والديه. استغل بعدها منحة الماجستير ليهرب من مصر ويعيش في دولة أوروبية ويتزوج امرأة أكبر منه سناً.

وفي الطريق لفت انتباهها محل يضع في فاترته طفاية كريستال. لم تهز زينب كما كانت أبداً. خضعت لعلاج نفسي لمدة طويلة حتى اتزنت وعاد عملها تصف للقارئات كيف تجعل من بيتها عساً هادئاً للزوج.

في المساء صعد شريف إلى الدور الثالث ومعه الأوراق اللازمة فاستقبله منصور وجلسا معاً في الصالون. استرق شريف النظر إلى الزجاج الفيميه وهو يغالب شعوره بالخوف منه. من خلف هذا الزجاج كان الأخ الأكبر يراقبها كما في رواية 1984. من خلف هذا الزجاج كان منصور يرى ولا يرى.

أقسم بينه وبين نفسه أنه بعد تسلّم الشقة سي مارس الجنس خلف هذا الزجاج وسيقيم احتفالاً مهيباً أقل ما سيقال عنه إنه ماجن. عاد منصور ومعه الأوراق فقرأ شريف إعلام الوراثة وسأل عن باقي الوراثة.
- إخواني هيجوا كما ن نص ساعة.. بس قلت أجيبك بدري.
- ليه؟

- بص إنت عايز الموضوع يمشي ولا لا؟

نظر شريف إلى منصور نظرة متوجسة، إلا أن الأخير لم ينتظر منه الإجابة فأردف قائلاً:

- إحنا هنقول لإخواني: إنك دفعت مائة ألف جنيه بس ورفض تدفع مليم زيادة.. المائة وخمسين ألف الزيادة دول إنت ماتعرفش عنهم حاجة..
استبيننا⁽¹⁾؟

(1) اتفقنا؟

ليت والده كان معه ليرى الرجل رمز الأخلاق وحامي الشرف وهو يسرق إرث إخوانه. كم تمنى لو فتح الشباك الآن وصرخ بأعلى صوته في الشارع أن حامي الشرف والأخلاق ما هو إلا لص رخيص قد استحل إخوانه. ها هي اللحظة التي طالما تمنّاها هو وأخته وسلمى بأن ينتقما من منصور قد أتت.

وفي مخيلته توصل إليه الأطفال الثلاثة (هو وأخته وسلمى) أن يفعلها.

خطوات تفصل ما بينه وبين الشباك ذي الزجاج الفيومي.

ترجاه شريف الطفل المسك بخده بيد وباليد الأخرى سيجارة أن يفعلها. كانت تلك الصفحة الأولى من والده.

ترجته أخته شبه المراهقة وهي تحاول أن تطيل الجيبة قليلاً لتصل إلى تحت الركبة خوفاً من تعليقات منصور أن يفعلها.

توسلت إليه سلمى الباكية ذات الاثني عشر ربيعاً ومن خلفها ابن بوز العمارة المقابلة أن يفضحه كما فضحها.

كاد الرجل صاحب الكشك أن يقبل يديه، أن ينتقم للسنوات الثلاث التي قضاها في السجن بعد أن أبلغ عنه هذا الرجل الذي ارتفع لمقام الأنبياء فلا يكذب ولا ينطق عن الهوى، بينما شريف يستطيع الآن وبعد مضي ١٥ السنوات أن يقول لهم عن حقيقته.

أفاق شريف من أحلام يقظته وأشعل سيجارة أمام منصور جاد الله ونهض من مقعده وقام بفتح الزجاج الفيومي لينظر منه لأول مرة في حياته

من مكانه دفع ما تبقى من سذاجة مراهقته إلى الأسفل، ووقف يتأمل جثة
أضيه وهي تدعي الأكاذيب والأخلاقيات والاحترام والشرف. سأل
منصور وهو يمضغ الحروف مع الدخان:

- ولو أخواتك رفضوا؟

- أنا أخوهم الكبير وما يقدروش يكسروالي كلمة.. إحنا اتربينا على كده

- واضح إنكم عيلة مترية.

- قصدك إيه يا ولد؟

قالها منصور وهو يقف منتصبًا أمامه بقامته الفارعة وصوته الرخيم
فجلس شريف ووضع ساقًا على ساق وأشار إليه بيده المسكة بالسيجارة
أن يجلس قائلًا:

- موافق.. حط الفلوس دي جوه وسيب المية ألف دول على الترابيزة.

هدأ منصور قليلًا وابتلع إهانة شريف وابتسم سائلًا إياه ما إذا كان يريد
أن يشرب شيئًا.

لم يعد يتلقى مصروفًا من والده ولا راتبًا هو بمثابة رشوة لوالده.

هو يتقاضى أتعابًا نظير ما عجز عنه الأولون.

هو يتحكم الآن في رجل كان يخشاه والداه وخاله وأونكل محمود زوج
طنط أميمة ووالد سلمى ويومي والد لوتو ومنير وأبناء منصور أنفسهم.

هو يملكه الآن.

ليتهم يرونه.

لقد تغير كل شيء.

وبعد أقل من نصف ساعة وصل رجلاان وامرأة تبدو عليهم رقة الحال، حتى أنهم قد صعبوا على شريف حقاً ولكن بينه وبين نفسه كان يكرر لضميرهم إذا كان أخوهم الكبير قد سرقهم فلم يهتم هو لشأنهم؟

حاولوا التحايل عليه كي يرفع السعر قليلاً. منصور نفسه قد شارك في المحايلة حتى يبعد الشبهات عنه إلا أن شريف كان صارماً. وبعد أقل من نصف ساعة وقعوا على العقد وأختهم تبكي وهي تقرأ الفاتحة لوالديها.

خرج شريف من الشقة وأولج مفتاح المصعد ليجد منير يخرج من المصعد. أصر منير حين رآه على أن يدعوه إلى منزله، إلا أن شريف أصر هذه المرة أن ينزل هو معه إلى منزل جدته فوافق منير.

وفي صالة هدى حكى شريف لمنير باختصار ما دار بينه وبين منصور جاد الله. نظر منير بعينين خاويتين وابتسم ناظراً إلى علبة سجائر شريف سائلاً ما إذا كانت تحتوي على جوينات. أشعل له شريف واحداً وناوله إياه. وبعد ثلاثة أنفاس ودقيقة من السعال المتواصل قال له منير:

- إنت مخضوض من إيه؟ ماتعرفش إنه رجل أفاق وحرامي؟

- لا عارف.

- لا يا شريف... إنت مش عارف حاجة.. إنت مشكلتك إنك فاكِر إنك

صايح وانت غلبان من جواك.

- ماشي يا عم الجامد.

ابتسم منير وهو يناول شريف الجوينت قائلاً:

- منصور جاد الله ده قدر... وعمتك... الي كانت فاتحة بيتها مشيخة...
• اتزعلش مني مش بس حرامية.. دي مدورة الشقة رقم 7 للدعارة..والي
نجيب لها النسوان فاطمة.

- هي هبت معاك ولا إيه يا منير؟

لوفي ظروف أخرى لثار شريف وماج وماج وهدد وتوعد ولكنه الآن
ذير العائلة وعليه مسئولية مسايرة الجميع حتى يوقعوا على عقود التنازل.
ابتلع منصور إهانة شريف كي يحصل على النقود وي بعدها بدقائق يجلس
شريف يتتلع إهانات منير الذي تفوح رائحة كريهة من جسده حتى يحصل
على التنازلات.

خارج عالمه الحياة قاسية وعادلة.

ابتلع شريف الإهانة مع دخان الجوينت واستمع لمنير وهو يقول:

- ما تزعلش... فاطمة كانت بتمضيهم ورق جواز عرفي وكده.. مش
علشان ربنا والدين... علشان لو البوليس طب يبقى فيه حاجة تطلعهم من
القضية... يا عم أنا فاطمة جابت لي حرمين كسر قبل كده بس لما كان معايا
فلوس... كل نسوانها كسر... أصل معايش فلوس أرافق واحدة جامعة
أمريكية.. دول بقى ليهم سعر تاني وماتسرحهمش فاطمة... تسرحهم حاجة
أنضف شوية ويبروحوا فنادق خمس نجوم مش 1 شارع عز الدين.

تأمل شريف منير وكأنه يراه لأول مرة وهو يتساءل كيف لم ينتبه إلى الأمر من قبل! منير مثله الأعلى والذي طالما تمنى أن يكون مثله ببساطة بهاء منه. لقد تعمد الآن أن يلمح إلى أن فتيات الجامعة الأمريكية تلك الجاهل التي التحقت بها أخته ما هن إلا عاهرات. الأمر أصبح واضحاً وضوح الشمس. منير الذي كان والده يتمنى أن يكون مثله هو في حقيقة الأمر يعاين من عقدة نقص تجاهه.

هي أشياء قد تبدو بسيطة ولكنها محورية في حياة المرء؛ أن تكتشف أنك مثلك الأعلى يحقد عليك. قد يعزز هذا الاكتشاف الثقة بالنفس لأقصى الحدود ويمتزج شعورك بالزهو بالندم على كل تلك السنوات التي قضيتها وأنت لا تعطي لنفسك حق قدرها.

طوال هذه المدة التي كان هو ووالده ووالدته يتمنون أن يشب كي يكونوا مثل منير لم يكونوا يدرون أن الأخير يتمنى أن يكون مثله. منير الذي لم ير والده كان يحسد شريف على عائلته.

منير الذي ربه امرأة وحيدة تعاني من مشاكل نفسية كان يتمنى أن يبيت ليلة في منزل طبيعي كشريف.

منير لم يكن يتجاهل أخت شريف بل كان يخشى أن تعايره بأن والده قاد هرب منه. لذا كانت معظم علاقات منير مع فتيات من أسر مفككة. عندما كان يستذكر دروسه كان يهدف إلى أن ينجح ويصبح من العلماء الذين يشار إليهم بالبنان فتصل سمعته إلى والده؛ عله يشعر بالندم على تركه وعدم رؤيته له.

فجأة سمعا صوت مشادة عنيفة وشجار وأصوات زجاج يتحطم...هرع
الانسان خارج الغرفة ليجدا أم منير وقد وقفت عند الباب وهي مذعورة
، تصرخ في منير بلا أي داع. خرج الاثنان ليجدا باب الشقة مفتوحًا والإخوة
. ساجرون على الأثاث.

وقف منصور في وسط الصالة ممسكًا بفازة كريستال، وأخته تحاول شدها
. ه بينما أمسك الأخوان بمقعد الصالون وهما يسبان بعضهما البعض وقد
اهسم أكبرهما بأنه لن يهنا به أحد إذا لم يأخذ الطاقم بأكمله فما كان من الأخ
الأصغر إلا أن ترك المقعد المتشيبث به ورفع مقعدًا آخر وحطم به الزجاج
العميمه لتتناثر أشلاء الزجاج اليميه في كل مكان.

جن جنون منصور وهو يرى ما يحدث فحاول عبثًا أن ينقذ المقعد إلا
أن الأخ الأصغر كان قد جن تمامًا فرمى المقعد من الشباك وهو يصرخ في
منصور الذي هرع إلى الداخل لينقذ النقود.

خرج سكان العمارة والعمارات المجاورة من الشرفات وتسمر المارة وهم
برون الأثاث والزجاج يتطاير من شقة منصور جاد الله. خرجت سلمى من
المكتبة وابتعدت قدر الإمكان عن تلك النافذة وبدخلها شعور بالتشفي
والخوف.

لقد عاد شريف من أجلها.

شريف عاد ليقاتل التنين ويتنقم من نجوى ومنصور.

عليها أن تستعد كي تعد طبق الفيل المحشو بالأرز.

وعلى صوت الصراخ والشجار والزجاج وتهشم الأثاث خرج لو،
من جحره ليتفادى في اللحظة الأخيرة مائدة صغيرة قذفها أخو منصور،
الأكبر من الشباك المحطم. علا صوت منصور وإخوانه وهم يتبادلون أقذع
السياب. صرخت الأخت بأن أخاها يريد أن يسرق أثاث أبيهم.

سب لو تو منصور وإخوانه وكان البوابين والعمال والسياس كانوا
ينتظرون من يفتح الباب لينهال سيابهم بدورهم على منصور وإخوانه.

نزل شريف مسرعاً ليعد سيارته من أسفل العمارة كي لا تتحطم من
الأثاث الذي يلقي من النافذة ولحقه محمود زوج أميمة ونزل أحد السكان
من العمارة المقابلة بملابسه الداخلية لينقذ سيارته من أمطار الأثاث.

خرج منصور من العمارة مهراً ولأ مقطعاً الثياب بلا باروكة محتضناً كيس
النقود بكل ما أوتي من قوة. نظر إلى سيارته ليجد المقعد الوثير الذي كان
يجلس عليه يوماً ما فوق سقفها وقد تحطم الزجاج من أثر السقوط. نزل
أخوه الصغير وراءه وهو يسبه ويجري وراءه وتزفها ضحكات وسباب
البوابين الذين انتقموا أخيراً من منصور عليهم. نزلت لحقت بهما الأخت
وقامت بقذف منصور الذي ابتعد نسبياً بحذائها وهي تتحسبن عليه، ثم
سقطت على الرصيف من الإنهاك بينما تركها الأخ الأكبر ليحاول إنقاذ برواز
صورة والدته من أحد سائقي الميكروباص.

هدأ كل شيء وبدأ ضجيج الماضي يتسلل إلى شريف الجالس وحده في
'فة جدته التي لم يعتد بعد على المبيت فيها وحده. تأمل حوض السمك
المتيق في الصالة. يذكر هذا اليوم الذي ابتاعه خاله بعد وفاة روميل الكلب
'اعترضت هدى لأن لبنى أخبرتها بأن تربية الأسماك في المنزل تجلب النحس.
ورغم اعتراض والدته فإن سعيد أصر على شراء أحدث المعدات وقتها
'ابتاع العديد من أسماك الزينة كانت تسبح في مشهد بديع باحثة عن الحرية
اصطدم بالزجاج لتعاود الكرة مرة أخرى في رحلة أبدية بلا أي هدف.

يوم أن توفي سعيد نفقت الأسماك واحدة تلو الأخرى وطففت فوق ماء
الحوض العكر الذي لم يهتم أحد بتنظيفه منذ فترة بسبب انشغالهم بتدهور
حالته الصحية. شكت له أخته أن نجوى قد أمرت فاطمة بأن تلقي بالأسماك
في صفيحة القمامة على السلم. بكت الصغيرة وهي تخبر أخاها أن القطة
بدأت تأكلها من صفيحة القمامة وجرت ومن فمها لوحث لها السمكة
النافقة بذيلها مودعة. تلك القطط التي لم تكن لتجسر على الاقتراب من
باب الشقة حين كان هناك كلب يحميهم يدعى روميل. مات روميل ونفقت
الأسماك وتوفي سعيد.

هذا البيت حاضر فيه الغائبون بشدة. وبعد مرور ربع ساعة أيقن شريف
أنه لن يستطيع أن يقضي الليل هنا وحده.

ارتدى شورتاً وقي شيرت وصندلاً ونزل ليقضي بعض الوقت . . . سلمى . جلسا معاً على الدكة وقد حنت عليهما الطبيعة ببعض النمسا . تأملها شريف بشعور غريب يجمع ما بين الحنان والاعتذار لها عن كل ما حدث لها في دنياها . لمس خصلات شعرها التي أرسلها له النسيم وهو ينسجم فخفق قلب سلمى فبادلته ابتسامة متوجسة تتلمس طريقها إلى السعادة تدفقت دماء لم توجه إلى وجنتي سلمى منذ فترة طويلة فقامت وهي تصفر للتهوجي على الرصيف المقابل فجاء إليها رافعاً بيده اليسرى صوته كالشارع مبحراً في الشارع عبر السيارات وما إن رسا على رصيفها حرم طلب منه شريف كويين من الشاي الثقيل . غاب القهوجي وابتعدت سلمى قليلاً عن الدكة ووقفت تتأمل أشلاء منضدة محطة من شقة منصور .

نظرت لشريف نظرة ولسان حالها يسأله عمّا إذا كان هذا سيكون مصيرها هي وسكان العمارة .

تساءلت سلمى وهي تحدق في شريف الجالس أمامها على الدكة . ذلك العائد الذي ألقته رياح التغيير في عالمه لم يأت ليتخذ منزله القديم بيتاً ووطناً لم يعد بل جاء . فالعودة من شيم الأقباء والأحباء ، أما الغرباء فهم يجيئون بنوايا مختلفة .

ألقت نظرة على لافتة مكتبتها وقد تنبّهت لأول مرة أنها بلا وطن أو بيت أو حتى منزل . لم تفرح برؤية منصور جاد الله الذي فضحها وهو يهان بل جرفها شعور عارم بالحزن لا تعرف سببه . قضت الليالي وكلما قرأت روايه بها نهاية مأساوية للشيرير تحيلت منصور مكانه . تأملت شريف الشارد ومن

١٠ ملها تردد صدى أصوات تشبه الصلاة أوريا هي مناجاة. أيها الغريب لم مات؟

أيها الحبيب لم جئت؟

أيها الصديق لم أعد أعرفك.. فقل لي من أنت؟

أما شريف فلقد كان حائراً بعد انهيار أصنام الشرف والأخلاق في عالمه القديم كمنصور جاد الله ونجوى وأخيراً منير قد جعله ينتبه إلى حقيقة كانت مائة عنه.

كم هو وحيد.

إن المثل العليا والأصنام والحكايات الأسطورية عن الكبار تحمينا من الضياع في تيه الحياة. لقد استرشد بمنير وافتخر بنجوى وأمن لحضن جدته واعتبر منصور وأمثاله هم الأعداء. وعندما سقطوا جميعاً لم يعد لماضيه أي رونق فتشبت بسلمى آخر ما تبقى له من جذوره.

وبسقوط الماضي ومعاناته الوهمية وكفاحه الوهمي ضد من سقطوا بمتهى السهولة أيقن أنه لم يحارب أي معركة قط في حياته فمن اعتبرهم إنجازاً لم يكونوا سوى صروح نسجوا من وهم خياله وسحر تكرر حكايات مزعومة.

إن سقط أعداؤك ماتت قضيتك وإن سقط أحباؤك تاهت بوصلتك وإن سقط أعداؤك وأحباؤك انتهت أسطورتك وبقت حقيقتك.

كم أنت وحيد.

- هترميني أنا كمان برة يا شريف؟

- أنا ماليش ذنب في اللي حصل لمنصور.

- يعني لو ماكتتش جيت، كان كل ده حصل؟

- هو اللي طلب مني بنفسه إني آخذ منه الشقة.

- رد على سؤالي.. لو ماكتتش جيت، كان كل ده حصل؟

هز رأسه نفيًا. تنهدت سلمى وجلست بجواره وهي تحكي عما فعا، مرزوق ابن عمها ومحاولته التعدي عليها هو وأصدقائه. بكت الفتاة ولكنها تماسكت حين عاد القهوجي بكوب الشاي. نظر إليهما وإلى سلمى التي تغالب دموعها وانطلقت عائدة إلى حصنها خلف مكتبها الصغير بالمكتبه دس شريف ورقة من فئة العشرين جنيهاً في جيب القهوجي وهو يخبره بان يحتفظ بالباقي ليرتفع صوته بالدعاء والشكر.

أمسك شريف بكوب الشاي ودخل وراء سلمى قائلاً:

- سلمى.. هاتي بيانات مرزوق ده وأنا هريبه.

- ده ابن عمي يا شريف.

- خايفة عليه؟

- لأ! خايفة عليك.

إن كان يشك في مشاعره لها؛ فالآن أيقن أنه يجبها بالفعل وهي تحتاجه وهو يحتاجها أكثر. يريد أن يرتبط بفتاة تعرف شريف القديم حتى يجده هو شخصياً. يشتاق إليها وإلى نفسه قبل أن يكبر ويخضع ويخضع. يحتاج إليها

١٠١ حلة نضوجه. لقد بلغ ولم ينضج. ولم يفهم كيف يكون رجلاً. تحمل
صاريق صديقاته ولم يتحمل مسئولية أي شيء من قبل.

١٠٢ تركته ودخلت إلى الحمام الصغير وأغلقت خلفها باب الأوكورديون
١٠٣ دفع خلفها وفتح الباب برفق يجدها تغسل وجهها. نظرت إليه وكل خلية
أدبه وتتوسل إليه أن يضرب بكل التقاليد عرض حائط الحمام.

١٠٤ لبي النداء واقترب منها ويحتضنها دون أي مقاومة تذكر بل إنها قد تشبثت
١٠٥ سمعها ونسط بكائها وهي ترجوه ألا يرمي بأثاثها خارج المكتبة. حشر
١٠٦ يف نفسه داخل الحمام وأغلق باب الأوكورديون ليغيبا في قبلة حاسمة
١٠٧ لم يعد لتكملة حديثها أي داع.

- 6 -

١٠٨ ترك شريف سلمى وصعد إلى مس لبنى كي يخبرها بما حدث مع منصور
١٠٩ ماد الله. رن جرس الباب فلم تفتح على الفور فأعاد طرق الباب ففتحت
١١٠ الشراع وهي مستلة لسكين وقد بدأت في هيئة غير طبيعية. سمع شريف
١١١ صوت فتح أكثر من مزلاج. دخل بخطوات بطيئة وقد شعر بأن هناك شيئاً
١١٢ ليس على مايرام. علقت لبنى السكين المربوط بها دبارة صغيرة وعلقتها
١١٣ بجوار المفتاح بالقرب من الباب.

١١٤ لم يعد هناك مجال للشك هذه المرأة في طريقها للجنون.

عزا صوتها المرتفع وعصبيتها لاختلال هرموني ما بسبب عدم الزواج
وسن اليأس وعدم الإنجاب والوحدة. لكنه الآن متأكد أنها ليست طبيعه
رق لحالها كثيرًا ورمى جسده المنهك بالأحداث على أريكتها. وعندما
أحضرت له الكيكة المعتادة ضحك ضحكة نادرة من القلب وسألها عن
وجود الكيك دائمًا عندها. ضحكت وأخبرته أنها عندما تقوم بخبز الكاكاو
تصمت كل الأصوات داخل رأسها فجأة.

سألها عن سر السكين الموجود بجوار الباب فأخبرته بأنها تتوتر كثيرًا من
الأصوات العالية وتهاجمها نوبة توتر وتتأقل أنفاسها. وحين نشبت نوبة
المشاجرة ما بين منصور جاد الله وأخواته كادت أن تحتنق وأغلقت الباب
واستلت السكين.

سألها عن ترشيحها للسكن التالي الذي يفاتحه في موضوع التنازل،
صمتت لبني لفترة وصرحت بأنها حائرة ما بين زينب أم منير وأبيه
وسلمى. أخبرها بالألتحمل هم سلمى. انتفضت لبني فجأة بلا أي دافع
وذهبت إلى المطبخ.

قام شريف وهو يتأمل المنزل. على الجدران هناك ورق حائط مقام
بالطول قد قشر في بعض أجزاءه. لقد ساءت حال المنزل كثيرًا. هذا المنزل
الذي كان مصدر تميزه عن زملائه في المدرسة. فهو التلميذ الوحيد الذي كان
يرى مس لبني بعد المدرسة بل ويدخل بيتها وتأتي هي إلى بيته لتجالس جدته
ووالدته وتستذكر له هو أخته دروسها.

بذكر يوم أن صعد للبنى كي تشرح له شيئاً ما استعصى عليه. وفي صالون
ورأى ورقة أسئلة امتحان الشهر الذي سيخوضه في اليوم التالي. ذهبت
بعضه له بعضاً من الكيك كعادتها فحفظ الورقة وكأنه ماكينة زيروكس.

ابتسم وهو يتذكر العبوس على وجوه زملائه في الامتحان في اليوم التالي
هم يحاولون حل الأسئلة الصعبة بينما يطير قلمه على ورقة الإجابة. يومها
فقيمة الغش وهو يرى أوائل الفصل وهم حيارى حتى تلك الفتاة
المسبحة ذات الضفيرة التي يكاد يقسم أنه تسكن فيها آلاف الأنواع من
المشروبات المنقرضة والمعاصرة والتي اعتادت على الحصول على الدرجات
النهائية.

رأى شريف أحد زملاء وهو يحاول الغش من زميله فرفع يده منبهاً مس
التي كانت تراقب على الفصل فأخذت منها أوراق إجابتهما وطردهما
من الامتحان وسط توسلاتهما وبكائهما وربتت على رأس شريف شاكرة
إياه على ضميره المستيقظ. وبالفعل حصل على الدرجة النهائية واستحسان
المميع.

سألته بعد أن عادت ومعها عصير مانجو ماركة قها المعبأ في صفيحة
سدنة ذاك العصير الذي كان يدمنه شريف وهو طفل وهي تقول:

- ماتلعبش بسلمى يا شريف.. بلاش ندالة.. البننت مش حملك.. ادفع
لما دي بنت غلبانة.

- يا مس لبنى.. أنا ما قدرش أأذى سلمى.. ده احنا متربيين مع بعض

- ماتلعيش بسلمى يا شريف.. بلاش ندالة.. البنت مش حملك.. ادفع لها دي بنت غلبانة.

لم يعد هناك من شك أن لبنى غير طبيعية وبدأت تكرر كلامها. هز شريف رأسه وهو يخبرها ألا تقلق ووعدها بأنه لن يأكل حق سلمى أو أي ساكر. مهما حدث. فجأة صرخت لبنى باسم أميمة. أخبرته بأن يبدأ مع أميمه ولكنه لا بد وأن يصل للشيوخ نشأت فهو معه مفاتيح رفضها وموافقته على أي شيء. سألتها شريف عن السبب الذي قد يرفض من أجله هذا النشأت أن تنازل أميمة عن شقته. هزت لبنى كتفيها وهي تمط شفاهها بمعنى أنها لا تعلم. سألتها شريف هل لها دلالة على أميمة فقالت:

- أنا وأميمة زي الأخوات... بس لو أبوها طلع من تربته وقالها حاجة ونشأت قالها حاجة هتسمع كلام الأراجوز بتاعها.

هنا عوت إحدى سيارات الإسعاف المتجهة إلى المستشفى العام القريب فانفضت لبنى.

لبنى على وشك الانهيار حقاً.

ودعها شريف فقامت لتتناول حبة مهدئة وتبتلعها بكأس من النيذنا هي عاداتها منذ عشر سنوات. ورغم كل التحذيرات على المنشور الطبي للمهدئ بعدم خلطه مع المشروبات الكحولية وبالرغم من تحذير الأطباء النفسيين لها؛ فإنها قد اختارت أن تتوقف عن زيارتهم وألا تتوقف عن عاداتها هذه.

في هذا الوقت كان شريف يجلس في الصلاة وحيداً. نظر إلى إحدى كراتينه همام وأخرج منها آخر زجاجة من الفودكا وقرر أن يحتفل بحصوله على شقة مصور ولكن فكرة أن يسكر وحده في هذا المنزل كانت كثيبة للغاية. وبعد ساعة كان في البار مع رانيا وأكرم وشيري وباقي الشلة ويحتفل معهم باقترابه من هدم عمارة عز الدين باشا.

- 7 -

أيقظت أميمة زوجها لصلاة الفجر الذي قام متثاقلاً إلى الحمام فتوضأ وأمهأ للصلاة. لم يكن دافع أميمة هو مصلحة زوجها كي لا تفوته الصلاة في موعدها ولكن لأن صلاة الجماعة ثوابها أكبر؛ لذا بدا محمود هو وسيلتها الوحيدة للحصول على الثواب المضاعف لأنها تعلم أن ابنها لن يستيقظ أبداً ابصلي معها الفجر.

أما السؤال ما إذا كانت أميمة تستغل زوجها أم تفيده فهو سؤال فلسفي لن يؤدي بنا إلى أي شيء.

في بداية عملها مع الشيخ نشأت في شركة السياحة الدينية الخاصة به كان لزاماً عليها السفر للمملكة العربية السعودية، لإنهاء بعض الأعمال هناك. إلا أن المملكة العربية السعودية تشترط وجود محرم مع الإناث المسافرات لأراضيها. ولأنها لم تكن متزوجة بعد وكان والدها وأخوها مشغولين بطبيعة الحال في عملهما فلم تستطع السفر وبدا أن هذا الشرط سيضع سقفاً لعموحها المهني ففكرت في الزواج.

كانت المواصفات المطلوبة رجلاً يستطيع السفر معها في أي وقت ولا مدة ولا يمنعها من العمل بالطبع فوجدت ضالتها في محمود قريها المدال العاطل الفاشل. عرضت عليه الزواج فوافق على الفور وبالفعل سافرا معا إلى السعودية وأصبحت أميمة أشهر من نار على علم في عالم السياحة الدب، للمصريين.

في منتصف الثمانينيات اقترحت أميمة على الشيخ نشأت أن يبدءوا بعمل رحلات مخفضة للشباب إلا أن الرجل أجابها بأن معظم من يرغب في الحج والعمرة شيوخ فانون. ابتسمت أميمة وهي تقول له إنه وجب عليهم تغيير هذا كله وقالت له إن رجال الدين الأزهرين الذين يسافروا مع عملاء الشركة لا يتحدثون بلغة الشباب. استمع نشأت باهتمام شديد فأردفت بأن الشباب بحاجة إلى شاب مثلهم كلامهم يخرج من فمه، وكلامه يدخل إلى قلوبهم ومشاكلهم تكون في حساباته ويرتدي ملابسهم باختصار، ألا يكون غريباً عنهم. فإن دعاهم إلى الحج أو العمرة مع الشركة لبوا طاه. اقترحت أميمة عليه أن يكون هو هذا الداعية الشاب فنشأت -ها الوارث للشركة من أبيه أحد مشايخ الطرق الصوفية لم يكن قد تمام الخمسة والثلاثين عامًا من عمره. وقد اشتهر بكاريزما وكان له درس دبر بالفعل في أحد مساجد حي الدقي فاقترحت عليه أميمة أن يقدم برنامجاً دبراً في التليفزيون بروح عصرية. وعن طريق منصور جادالله جاراها استطاع أن توجد لنشأت مكاناً على خارطة ماسبيرو مقابل هدية سخية بالطبع. الشيخ نشأت.

ذاع صيت الشيخ نشأت كونه رجل دين شابًا لا يرتدي القفطان ولا يتحدث اللغة العربية الفصحى ويلقي بالنكات والقفشات ولا يملأ الدنيا صراخًا. باب السعير ولا يصرخ في العصاة ويتوعدهم بالدرك الأسفل من النار.

وما هي إلا سنوات قليلة حتى أصبح نشأت أشهر من نار على علم، بدأ برناجه يستضيف ويفرخ دعاة شبابًا جددًا كل له أسلوبه وجمهوره، ججت فكرة أميمة لتحبيب الشباب في الدين والحج والعمرة.

طوال هذه الفترة لم يكن لمحمود من عمل سوى أن يكون زوجها أكمل إجراءات إقامتها بالسعودية بكونه محرماً وأعطائها بعض المتعة في الفراش. ثم بتلقيحها أكثر من مرة حتى أنجبت ابنها بصعوبة، ويؤمها في الصلاة. ثم تحصل على ثواب أكبر.

ومر السنوات وتقرر أميمة أن تعود إلى مصر وتبأشر أعمال الشركة من معها بالقاهرة. وحين عادت صعقت عندما عرفت أن جارتها نجوى التي رثتها وهي تمشي بالمايوه في شوارع العجمي أصبحت تنظم واحدًا من أشهر الدروس الدينية في منزلها، وبدأت تنافسها في بيزنس رحلات الحج والعمرة. نبوخ سلفيين ولهم أضعاف مريدي الشيخ نشأت والدعاة الصغار.

فلم التنافس فيما بينهما على أشده وتحول لعداوة عندما بدأت نجوى في امتذاب بعض الحضور من درس أميمة الديني - الذي كان أحيانًا يعطيه نيات - إلى درسها الخاص وبطريقة غير شريفة من وجهة نظر أميمة.

لا حظت أميمة انسحاب بعض الفتيات من مقراتها الخاصة والذهاب إلى أمة نجوى. اتصلت أميمة بأقربهن إليها فأخبرتها الفتاة بأن الشبيخة درية

التي تعطي الدرس عند نجوى لديها أدعية تمكن الواحدة من حفظ القرآن كله في أسبوع واحد فقط. أخبرتها أميمة بأن هذا مستحيل فردت عليها بأمرأت ذلك بأمر عينها.

لم يكن الموضوع سحرًا، ولكن درية في بدايتها كانت بحاجة إلى أن تثبت نفسها في سوق الدعاة. فلجأت إلى حيلة أن تأتي بأزهرية حافظة لكتاب الله وتمثل أمام الحاضرات أنها لا تحفظ شيئًا، وتعود بعد أسبوع وتدعي أنها حفظت القرآن كله بفضل أدعية الشيخة درية. أما بعض الحاضرات اللاتي شككن في الأمر فأخبرتهن درية بأنهن لم يستطعن الحفظ بسبب بالهن المشغول بالمعصية وطلبت منهن الاستغفار.

الحق يقال إن نجوى لم تكن صاحبة الفكرة وشككت في بادئ الأمر، لكن ازدحام صالونها بفتيات الطبقة العليا وارتداءهن الحجاب وهفتهن على السفر للأراضي المقدسة قد جعلتها تغض الطرف عن هذه الخدعة. فالجرب خدعة وأعداء الإسلام كثر، هكذا حدثت نجوى نفسها وهي تعد عمولتها من أول رحلة حج. فالدولارات تبيح المحظورات.

وهدأت الحرب المشتعلة بينهما حين هدأت موضحة تدين الطبقة العدا أو آخر عام 2008 وانفصلت معظم الفتيات اللاتي تزوجن عن طريق نجوى عن أزواجهن وخلعن الحجاب وارتدين البكيني مرة أخرى، فعادت نجوى لارتداء المايوه على شواطئ الساحل الشمالي هذه المرة بعد أن باعت فيلا العجمي لتشتري أخرى بإحدى القرى السياحية. وقد فسرت ذلك في

١٠. أدى المرات حين قالت لنوال إن العجمي غزاه الرعاع فالبحر تنزله الآن
١١. ماء بالمابوه الشرعى.

ولكن أين محمود الذي انتهى من صلاة الفجر توًّا من كل هذا؟

حدثته أميمة وهي تخلع الطرحة أنها تريده أن يزور شريف غداً ليفهم منه
التطورات السريعة التي تحدث في العمارة. ولأن الكسل هو آفة محمود
أخبرها بأنه لا يوجد شيء يستدعي قلقها.

لم تثر أميمة ولم تغضب. لم تقل له إنه إذا لم ير في ترك نجوى وهدى
المهارة وما حدث في شقة منصور أي شيء غريب فهو أحق. لم تقل أي شيء
هذا، فقط أمرته بأن يذهب ويحاول أن يكون رجل البيت ولو مرة واحدة
في حياته، وتركته وعادت إلى فراشها.

شرد محمود للحظات وقام ليعد ساندوتشات المدرسة لحفيدته رغم أنها
مد تخطت المرحلة الابتدائية.

— 8 —

لم ينم منصور وظل طوال الليل يدخن في شقته بمدينة نصر. هاهي سمعته
التي تعب في الحفاظ عليها على وشك أن تلتخ للأبد. لم يعان منصور مع
أنيب الضمير فأخوته لم يسعوا إلى بيع المنزل ولم يبذلوا أي مجهود الآن، كما
أنهم لم يواجهوا سعيد فيما مضى عندما كان ينوي الاستيلاء على منزل والدهم
دون تعويض. العدل ألا يكون نصيبهم مساو لنصيبه لمجرد اشتراكهم في

اسم الأب ولقب العائلة. والآن وبعد تلك الفضيحة ندم على أنه لم يزور إمضاءاتهم. حدث نفسه بأن رقة قلبه ووجهه للحق يكلفانه الكثير حقاً.

فكر للحظات بأن يتصل برؤساء تحرير المجلات والصحف التي يعرفها كالكواكب ونورا والموعد وآخر ساعة والجمهورية ويسألهم ما إذا كان لديهم محرر قد كتب أي شيء عنه، ولكنه فكر في أنه قد يكون هو سبب نشر الفضيحة أكثر.

ومع انتهاء علبة السجائر الثانية ارتدى ملابسه وباروكته الأخرى الأغبر قليلاً بدلاً من التي مزقتها أخته ونزل إلى كشك السجائر القريب. ابتاع عا سجائر وكل الصحف والمجلات التي صدرت هذا اليوم. واتجه إلى مقهى قريب يعلم أنه يعمل على مدار الأربع والعشرين ساعة. فتح الباب ليحيا شلة من المراهقين يدخنون الشيعة ولا يعلم هل هم متأخرون في سهرتهم أم أنهم قد صحوا مبكراً جداً.

تعمد منصور جاد الله أن يشيح بوجهه بعيداً عنهم حتى لا يتعرفوا عليه، وأخرج نظارته الشمسية وفرد أمامه الصحف والمجلات. بدأ بجربان الأهرام فلم يجد شيئاً.

تصفح جريدة الأخبار فلقي نفس النتيجة، وكذلك كان الحال في جربان الجمهورية.

لا يوجد أي خبر عما حدث.

حمد الله وزفر زفرة ارتياح لفتت نظر أحد المراهقين فدفن منصور وجهه في مجلة الموعد التي لم يجد بها شيئاً، ثم تذكر أنها مجلة أسبوعية وفي الأغلب طبع

لأن تصل إليهم الأخبار. انتابه هاجس أنه ربما لم تعد أخباره تهم الصحافة.
ممن الفكرة تمامًا وخلع نظارته الشمسية وابتسم لشلة المراهقين وبحث بجنون
كل المجلات عن أي خبر عما حدث ولكن هذه المرة وهو يتمنى أن يجده.

بدأ في تصفح المجلات بعصبية شديدة ويلقي بها تحت المائدة حتى تكوم
سوله عشرات المجلات والصحف لا يوجد بها سطر عما حدث.

أتى إليه الجرسون في هذه اللحظة يسأله عما يريد أن يشربه فوقف منصور
اطمأ حوله وإلى أكوام المجلات ليخبر الجرسون أنه سيأتي غدًا، وغادر
المهم وسط ضحكات المراهقين ودهشة الجرسون.

في نفس الوقت كان الباشا المعتاد على الاستيقاظ مبكرًا يتصفح الجرائد
جدها كلها تكتب عن الصحفي الذي اختفى في ظروف غامضة، اندفع
الدم إلى رأسه وأبعد الصحف وخلع نظارته الطبية وأمسك رأسه وابتلع
دواء ما. وفي الساعة التاسعة تمامًا كانت فاطمة واقفة أمامه كما طلبها.

- شكلك مش نايمة كويس يا فاطمة.

- الدماغ فيها فكر يا باشا.

أشار إلى الجرائد فتناولت إحداها وبدأت تقرأ ببطء من تلقت دروس محو
أمية، ثم أعادت الصحيفة إلى مكانها على سطح المكتب وهي ترقب الباشا
الذي سرح بنظره ناحية الشباك وكأنه ينتظر شيئًا ما.

سرحت فاطمة بدورها في الغرض من طلبها اليوم وعلى وجه السرعة.
هل قرر أن يستغني عن خدماتها؟ لقد لمحت إليه بالأمس عن موضوع

شريف ونجوى وما حدث في العمارة لعله يتدخل بنفوذه ويعيد نجوى إلى العمارة، فنجوى هي الأساس لحياتها كما أن الباشا هو العمود الذي ستر عليه مستقبلها ليعلو شأنها أكثر وأكثر. لم يرد عليها الباشا حينها لأنه في التوقيت لم يكن ليهتم لو هدمت العمارة ونجوى نفسها بداخلها هي والسكان. ما يشغله حقاً هو أن عالمه الذي يعرفه يتداعى ويوشك على الهام. ولكنه يعلم أنه لن يقع وحده بل سيقع الصرح كله وستكون السقطة مدوية، ليهتم يعلمون.

سعل الباشا وهو يخرج سيجاره، نظر إلى الساعة ليجد الوقت مبكراً، التدخين فاكتفى بشمه دون أن يشعله وقال:

- فيه مثل شعبي بيقول «ما تخافش من الهابلة خاف من خلفتها».. العالما
الجدد دول يا فاطمة هيودوا البلد في داهية... عملوه بطل زي ما قلت لك

- وعملوا كده ليه؟

- عايزين يعملوا كارت إرهاب.

- بس ده صحفى مايسواش..

- مش ليه يا فاطمة.. كارت الإرهاب ده ليا أنا وكل الحرس القديم

بيحاولوا يورونوا إنهم أسرع وأقوى.. شغل أمريكاني يعني... دي عا... شافت مصر من ورا إزاز عربياتهم، وكل علاقتهم بالشعب صوانه، ناس متأجرة تسقف وكلام الشغالات والسواقين مع مراتاتهم. دول جهاه، وصدقوا أنفسهم..

هَمَّ شباب اليومين دول كده.. حضرتك شفت شريف عمل إيه في
الامت نجوى؟

إنتي بتقولي إيه؟

بيدو أن قلقها وتوترها قد أفقدا ذكاءها الفطري، القدرة على اختيار
الوقت المناسب. نظر لها الباشا للحظات ثم أخبرها أنه ليس لديه وقت لمثل
هذه الأمور، كما أن شريف هذا قد رفض وظيفة يلجأ بها أي شاب في هيئة
الاستثمار وتحديث الصناعة. فجأة انتبه الباشا بعد أن فهم أخيرًا سر توترها
والها إن كانت خائفة أن يطردها شريف من العمارة. ردت عليه ردًا مقتضبًا
والله إن من يعيش تحت حماية الباشا لا يمكن أن يقترب منه الخوف. ابتسم
الباشا وضحك ضحكة قصيرة قائلاً لها:

- مش أنا اللي هحميكي يا فاطمة..

أسقط في يديها. بدأت تشعر بأنفاسها تضيق والكلمات تخرج من فمها
مثل أن تنضج فلا تفهم.. نظر إلى الساعة وأشعل السيجار وهو ينظر إلى
مقارها يتحد ويقول:

- إنتي اللي هتحمي نفسك، مش أنا..

- يا باشا أبوس إيدك أنا مش فاهمة حاجة.

- أنا قررت افترج العيال بتوع امبارح بتوع الفكر الجديد إزاي اللعب
بقي على الهادي. فاطمة؛ جهزي نفسك أنا حطيتك على القوايم بتاعة كوتة
المرأة... إنتي هتبعي نايبه مجلس شورى يا أستاذة فاطمة.

مادت الأرض بفاطمة وتضاربت مشاعرها حتى رست على شاطئ
من الفرح الحذر. شرح لها الباشا أنه ينوي عمل لوبي من المرشحين الجدد.
ليكونوا عوناً له في صراع البقاء في الحزب. لم تجرؤ فاطمة على سؤاله عن
اختياره لها حتى لا يتراجع في قراره. أخبرها الباشا أن من سيهزمون العبال
الجديدة لا بد أن يكونوا رجالاً ونساء قد خبروا مصر وشوارعها وحوارها
وأناسها ويعلمون كل شق وكل بلطجي ومرتش وقواد وعاهرة وكبير عانا،
في الدائرة الانتخابية التي سيرشحهم فيها الباشا ليظهر مرشحي الجبهة
الأخرى بمظهر من لا يفقه شيئاً أمام الرئيس. وختم كلامه بجملة.

- أنا مش هاخذ أوامر ولا هدِّي تمام لشوية عيال.

سحب الباشا يده سريعاً عندما حاولت فاطمة أن تلمسها وتهدج صوتها
وهي تلهج بالدعاء للباشا. تمتت في هذه اللحظة أن تحتضن ابنتها وأن تذهب
لقبر أمها كي تحكي لها عن ابنتها التي جاءت إلى مصر مجرد زوجة للابن
الفاشل لبواب تافه في عمارة متداعية حتى أصبحت نائبة في البرلمان.

مرت حياتها أمامها كومضة منذ أن عبث بئديها الوليد موظف الصوم
وهو يقوم بتسنينها لاستخراج شهادة ميلاد لتتزوج. تذكرت يوم وهاء
والدتها ورائحة العرق ونومها في المكان المخصص للحقائب أعلى المقاعد
القطار. تذكرت يوم وفاة والدتها وسباب حمايتها ويوم أن اكتشفت أن ابنها
معوقة. ولسبب ما تذكرت بائع الخضار الوسيم ذا القسمات القوية. تخيلت
نفسها نائبة وتبتاع مبرد مياه صدقة على روح والدتها.

بينما هي مع الباشا وقد أغلقت محمولها لم تكن تعلم أن حماها قد أصيبت
الطاعنة. دخل لوتو ليجد والدته لا تنطق فطلب الإسعاف من المستشفى
القريب من المنزل ولكن المستشفى رفض استقبالها فاتجهت سيارة
الإسعاف إلى مستشفى آخر ولكنهم لم يجدوا سريراً في العناية المركزة.

طوال هذا الوقت ولوتو يتصل بفاطمة كالمجنون حتى ردت بعد
ساعات من عند الباشا لتجد صوته كالطفل المدعور على الناحية الأخرى
وهو يبكي ويخبرها أنه "محتاس بأمه".

عادت إلى مكتب الباشا الذي طلب منه أن يعود للمستشفى العام الذي
رفض استقباله، وحين ذهب هذه المرة وجد مدير المستشفى بنفسه يفتح
باب سيارة الإسعاف ويشرف على إجراءات دخول والدته وقام بنفسه
الكشف عليها وتم عمل كافة التحاليل والأشعة ودخلت العناية المركزة في
أول من ساعة.

دخلت فاطمة إلى المستشفى وحين سألت عن حماها وجدت سيدة تتشح
بالسواد تنقض عليها وهي تسبها وتدعو عليها. ألجمت المفاجأة فاطمة.
دخل التمريجية حين عرفوا أنها من طرف عزيزة التي أوصى عليها وزير
الصحة شخصياً وقاموا بضرب السيدة التي عرفت فاطمة أنها ابنة الرجل
الذي طرده من العناية المركزة ليوفروا لحماها مكاناً.

لم تأبه فاطمة بما عرفته، ونظرت إلى السيدة المنهارة والتي بدأت في لطم
مديها وأخرجت من صدرها ورقة بهائة جنينه حاولت أن تدسها في صدر
المرأة التي بصقت عليها. فما كان من أحد التمريجية إلا أن صفع السيدة وهو

يعتذر لفاطمة. هنا هب زوج المرأة ولكم التمرجي فخلع أحد العسا،
الفايش وضرب به الرجل والمرأة.

اتجهت فاطمة إلى المصعد وحولها عدد من التمرجية وعمال النظاه،
يدعون لها ويعتذرون عما بدر من المرأة، فنقدتهم بعض المال فالتهبت ألسنتهم
بالدعاء لحمايتها بالشفاء.

وفي المصعد تنهدت وقالت في سرها: سبحان مسبب الأسباب! لقد كنت
لعزيزة أن تعامل معاملة كبار القوم وأن يوصي عليها وزير وهي التي تروى
زوجها ولم يجدوا حق الدفن لولا تدخل نجوى.

اليوم هي السيدة فاطمة القوية المحترمة والنائبة - بإذن الله - وعليها
تعتاد هذه المعاملة فهذا حقها. وحين خرجت من المصعد كانت قد نسي
صراخ المرأة وتذكرت المثل الذي كان يلوكه والدها دائما «إن جالك الأعداء
اسرق عشاها، ما انتاش أرحم من المي عماها».

وأمام باب غرفة العناية وجدت العديد من النسوة والرجال والأطفال
يفترشون الأرض. وفي ركن قصي وجدت زوجها ولديها يفترشون الأرض
وهم في حالة انهيار. بدت ابنتها بملابسها النظيفة وحذائها اللامع غريبة عن
هذا المشهد.

إحدى السيدات كانت تتفحص زيبا المدرسي بينما ترد عليها الابنة
بمزيج من اللغة العربية والإنجليزية. ضحكت النسوة وقد ظنن أنها أجنبية
حاولت سيدة أن تشد قرطها بينما لمحت بخبرة السنوات أحد الرجال ينهار
لطفلتها باشتهاء.

اتجهت فاطمة إلى ابنتها واحتوتها ونظرت شزرًا إلى الرجل الذي كان
حسب عضوه الذكرى من داخل جيب بنظونه فقام من مكانه ليختفى بين
مات المستشفى بينما صمتت عيون النسوة وساد الهدوء النادر للحظات.

احتضنت ولديها ولأول مرة يرق قلبها لمنظر لوتو الذي كان ينتحب، وما
أرأى فاطمة حتى قام ودفن رأسه في صدرها وبلبل طرحتها بدموعها فبكت
الطفلة وأمسكت بذراع أمها بدورها وأمسك الولدان بأطراف ثيابها فربت
مل الجميع.

عندما دخلت وحدها لرؤية عزيزة فاجأتها دموعها عند رؤية حماها
مل هذه الصورة رغم أنها تمنى هلاكها أكثر من مرة بسبب تعمدتها إذلاها
التحقير من أي شيء تقوم به حتى لا تقوى شوكتها على ابنها. ولكنها اليوم
لا حول لها ولا قوة وفاطمة لم تعتد أن تنظر للوراء وتصفي حساباتها.

- 9 -

جلس منير مع ياسمين زميلته في الكورس الإيطالي على أحد مقاهي
وسط البلد يراجعان المراجعة النهائية قبل الامتحان الذي يحين موعده بعد
ساعتين من الآن. انشقت الأرض عن قهوجي ذي نظرات محايدة. طلبت
ياسمين «فيروز أناناس كانز»⁽¹⁾ وكوبًا ممتلئًا بمكعبات الثلج وشيشة تفاح
ابنها طلب منير شيشة معسل وقهوة على الريجة. هجرهما القهوجي ليحضر

.Cans (1)

الطلبات ووضع ياسمين كتاباً معنوناً باللغة الإيطالية على المائدة متعاملاً، أن يكون الغلاف لأعلى، وهنا جاءتها مكالمة هاتفية فتلفتت بتوتر:

- يا دي النصيبة.... باخاف أكنسل⁽¹⁾ على حد واحنا في حنة أوبن⁽²⁾ ليكون حوالياً وعاملها اشتغالة. استنى يا موني لما ارد.. ماتفتحش بقك دن، البت مريم ومش عارفة اننا بنخرج..

وضعت المحمول داخل طرحتها السبع أذوار والتي تكشف عن خصلات ناعمة مكوية برداءة ومصبوغة بهاء الأكسجين والذي يتناغم مع بشرة درجة لونها لن تجدها حتى على أحدث برامج الفوتوشوب. ماكين صارخ وعدسات خضراء وحجاب متعدد الأذوار والطبقات وينظرون low waist وبادي عليه طفلة صغيرة ومن تحته بادي كارينا بلون الجلد. ومن خلال طرحتها المثبت بها محمول صيني يحاول أن يكون أي فون كانت تضحك بخنقان وهي تدلل من تكلمها بألقاب مثل: يا جزمة وانتي زباله، وأنت المكالمة سريعاً.

أحضر القهوجي قهوة منير الذي شكره ووضع لياسمين ال-cans يخترقها الشاليمو وكوباً شبه مغسول به ثلج فاخر خال بنسبة كبيرة من الذباب. نظرت ياسمين إلى القهوجي وهي ممسكة بالشيشة التي حضر الآن وأشارت إليه بطرف لِي الشيشة وكأنها رمسيس الثاني يشير بصولجانه بأن يفتح العلبه ويصب لها المشروب. نظر لها القهوجي باستنكار واندهاش

(1) Cancel.

(2) Open أي في منطقة مفتوحة (في الشارع).

فماهلهت ياسمين وهي تتظاهر بالنظر لطلاء أظافرهما المقشر. فتح القهوجي العلبه بعيداً عن الوجوه وصبها بنفس النظرة المحايدة وابتعد عنهما ليتخلل الخان المنبعث من شفاهما بعض الكلمات الرقيقة.

منير وياسمين هما أسطورة الكورس الإيطالي. تبادلوا في خلال السنة الأولى من الدراسة المركزيين الأول والثاني ولكن جاءهما التهديد من امرأة وانس لا تفعل شيئاً في حياتها سوى الالتحاق بالكورسات المختلفة.

كانت محافظتهما على هذين المركزيين بالنسبة لمنير مسألة حياة أو موت منى يحصل على منحة الدراسة بإيطاليا ويغادر مصر، أما بالنسبة لياسمين وحصولها على أحد المركزيين الأولين هو الحياة نفسها حتى تهرب من أمها وكل ذكرياتها. وبعد فترة من مذاكرتها معاً اضطررا أن يجبا بعضهما البعض على سبيل التحفيز رغم أنها تصغره بأكثر من خمسة عشر عاماً، واتفقا على الزواج قبل السفر وستكون الدراسة هناك بمثابة شهر عسل.

حكى لها منير عن عودة شريف ودفع تعويضات للسكان كي يخلي الشقة من السكان. برقت عينها وهي تقول إن هذه النقود ستفعلها في سفرهما. هز منير رأسه نفيًا قائلاً إنه لن يبيع الشقة فتضطر والدته أن تعيش مع أخيه فهو لا يشق فيه وفي زوجته التي كانت تلمح في كل مرة تزورهما أن لزوجها مثل منير في هذه الشقة. كانت الأخيرة تحشر هذه الجملة حشرًا بلا مناسبة في الكلام. فعندما وقع طبق من شقيق منير وانكسر قالت بابتسامه مصطنعة: إن على شريف دفع نصف الثمن فقط تعويضًا وبعد ضحكة سمجة أضافت:

لأن كل شيء هنا بالنصف ما بين منير وأخيه. ففهم الجميع ما ترمي إليه.
فعاتبها زوجها بنظرة لائمه:

- بيع الشقة وودي طنط زينب دار مسنين!!

- أنا ما بحبش التهريج ده يا ياسمين.

- أنا مش باهرج.. دار المسنين فيها رعاية وهتلاقي ناس من سننها
يعني عاحبك قعدتها لوحدها؟. إنت بتقعد معاها؟ إنت ممكن تقعد باليوم
ماتشوفهاش.

نقد منير القهوجي نقوده وذهبا معاً إلى المعهد، وعندما تسلم منير وره
امتحان اللغة الإيطالية شعر أنها اختبار الحياة نفسها، فلإن نجح خرج إلى
الجنة وإن فشل فسيبقى في مصر. كان ما يفصله عن تأشيرة الجنة خمسة أسناه
يعلم إجابتها جميعاً. نظر إلى ياسمين فبادلته ابتسامة ارتاح لها قلبه. ركز في
الامتحان وكأنه جراح يقوم بعملية توسيع شرايين الأمل التي انسدت تماماً
نتيجة تراكم السنين والهموم والأحلام الضائعة.

شعر بالغبطة عندما وجد أن جميع من في اللجنة يتوقفون عن الكتابة
بنظرات من اليأس. تخيل نفسه في شوارع نظيفة كتلك التي عاش فيها شهوا
الصيف في أمريكا فيما مضى. سيكسر الفيزا ويحصل على عمل كريم ثم يطل
من أمه أن تأتي للعيش معه وسيعيشان في هدوء أو صخب، المهم أن يعيشا
انتهى الوقت المخصص للامتحان وسلم ورقته وخرج وقدماه تكادان لا
تحملانه من السعادة وفي يده ياسمين وكأنها خارجان من بيتي شعر للدكتور
إبراهيم ناجي في قصيدة الأطلال:

ومشينا في طريق مقمر

تثب الفرحة فيه قبلنا

وضحكنا ضحك طفلين معاً

وعدونا فسبقنا ظلنا.

فاجأ منير ياسمين بطلبه أن تأتي للاحتفال معه في منزله فلم تمنع. وفي
أول من عشرين دقيقة كان منير يندفع من باب الشقة وهو يطمئن أمه ويقول
لها أن تدخل إلى غرفتها لأن معه بعض الأصدقاء ويريدون الاحتفال معه.
دخلت الأم إلى غرفتها وأغلقت الباب لتدلف ياسمين إلى الشقة وهي
مذرة. صحيح أنها قد سرقت بعض القبلات واللمسات والمكالمات الساخنة
من قبل إلا أن هذه أول مرة يكونان معاً في غرفة نوم.

كانت أول أنثى يلمسها منذ زمن بعيد؛ لذا بدا متعجباً بعض الشيء.
حاولت ياسمين أن تهدئه إلا أن النار كانت قد اشتعلت في كل جسده.
دفعها على السرير فانزعجت وهددت أنها ستصرخ. في لحظة انتبه منير إلى
أنه كان قاب قوسين أو أدنى من اغتصاب شريكة عمره في المستقبل القريب
في البلاد البعيدة السعيدة. جلس بجوارها على السرير وأمطرها بوابل من
الاعتذارات. اقتربت منه وقبّلته قبلة غرقاً فيها. قبّلها سريعاً بحكم عادة من
اعتاد على سرقة القبلات. ثم تبادلا النظرات وهما يضحكان.

- هي مامتك ممكن تسمعنا؟

- لا.. وأنا قافل بالمفتاح على العموم.

وبحركة سريعة وثبت من فوق السرير متجهة إلى المرأة. نزع الدبايب،
عن طرحتها التي تهاوت من على شعرها كتهأوي خيمة ارتخت أوتادها
وقف منير وراءها ومد أصابعه النحيله داخل شعرها المكوي فبدت كعائنا،
من الأبراص السمراء تمرح في غيمة من الهاموش. مد يده الأخرى ليتحسس.
صدرها فأبعدته عنها قائلة:

- بالراحة يا منير يا حبيبي.. ماينفعلش تخش طشم كده..

- طشم؟

- لازم تاخذ الأمور بالراحة.. يا واش يا واش. عايزني أأذن لك يا
ودنك.. الله أكبر الله أكبر..

هبت مع نسمة هواء صيفية حارة رائحة عطرها وعرقها وزبوت شعرها
واقتمحت أنفه بثقة ضابط آداب يكبس على بيت دعارة ومعه إذن تفتيش
وترجمت كل هذه المعطيات البصرية السمعية العطرية وظرفي الزمان والمكان،
ومفهوم الفرص المتاحة والضائعة على بعض المشاعر والفراغ والسعادة والأمل
والحرمان إلى أمر واحد. سأنام مع ياسمين وليحترق الجحيم وتبتل البحور.

اندفع ناحيتها مرة أخرى وفي عينيه نظرة كلب جائع رأى أنثى تمسك
بقطعة من لية خروف في فمها ورافعة ذيلها في نفس الوقت. أمسك خصرها
من الخلف وهو يقبلها ويتأمل صورتها المنعكسة على المرأة محاولاً إضافتها
إلى مكتبة أفلام البورنو الشخصية داخل رأسه. أبعده برفق لتجلس على
السرير قائلة له كلمة واحدة وضعت بها كل الدلال الأنثوي المصري.
«ما عندكش حشيش؟»

لم يفهم في بادئ الأمر ما قالته جيداً ثم نظر إليها متسائلاً: «حشيش؟!». سمعت في براءة كطفلة ترى الدر فيل لأول مرة «نفسى أجر به.. إنت مش بتحشش منك؟». ارتبك منير؛ فهو كان يعتمد إخفاء موضوع تعاطيه للمخدرات عن اسمين ظناً منه أن هذا قد ينفرها منه. ابتسم واقترب منها وأومأ برأسه مؤيداً للإلامها أو ربما معترفاً لا فارق الآن. صفقت بيديها في جذل وتابعتة وهو يخرج مص البانجو وبدأ في لف السيجارة. هي لن تعلم الفرق على أي حال..

- أصل يا حبيبي احنا لما نتجوز مش عايزة أبقى ست خنيقة.. لازم نفضل أنا متصاحبين.. مش عايزاك لا تبقى جوز بكرش ولا أنا أبقى جوزة نكدية..
- أهو كله جوزة..

ضحكا معاً ثم اكتشفت أن ضحكتها ربما تسمعها أم منير بالخارج فوضعت يدها على فمها. انتهى منير من لف السيجارة وأشعلها معطياً إياها لرفيقة السطل الجديدة في درب الحياة فشدت نفساً يحسدها عليه أعتى المجرمين في أحقر الغرز ونفتت الدخان كتنين مخضرم قائلة:

- ده بانجو يا معفن..

- الله؟؟؟؟ ده انتي حلوة أهوه..

- بانجو الحبيب قشطة وزبيب..

ضحكا معاً وقد بدأت في نفث الدخان على شكل حلقات فانبه منير وقال:

- إنتي بتعرفي تعملي دواير بالدخان؟ ده أنا مابعرفش أعملها.

- إنت طلعت مابتعرفش يا منير؟ أحيه على بختك يا سوسو!

وبعد خمسة أنفاس أعطته لمنير الذي نظر إلى الجوينت المغتصب بشفه،
ليتأوبا الاعتداء عليه حتى تركاه في حالة إعياء في الطفاية الكريستال الخاصه
بوالده. اتجهت ياسمين إلى دولاب منير لتخرج زجاجة من الخمر المصري
تشممتها باشمئزاز ووقع بصرها على مجلات علمية وأخرى إباحية.

- إنت مش كبرت على المجلات السكس؟ أنت حاططهم مع مجلات السمك؟
- دي مش مجلات سمك.. دي كائنات بحرية.. البحر فيه حاجات تاذه
غير السمك.. القناديل مش سمك.. الحوت مش سمكة.
- أمال الحوت إيه؟

- ثدييات.. زيك كده.. بترضع وبتخلف.

- هي الحيتان بتعمل ساكابنص مع بعض؟

- ساكابنص!!!؟

- أيوه يعني بتعمل قلة أدب؟

- أيوه بيعملوا ساكابنص... ماتيجي نسكابنص؟

- طب هو إزاي الحوت يُملك الحوتة؟ إزاي هي مش اتزفلط منه؟

- شوفي! أنا قعدت في كلية علوم كثير، وماجاش في دماغى موضوع

سكس الحيتان ده.

بدأ منير في الإعداد لجوينت ثانٍ وقد خلعت ياسمين حذاءها الهاف بودا
الزين بفرو وأرنب مسكين وجلست على السرير وهي تتأمل ملامح منير
تأمل ذاك الوجه الذي سيصاحبها في الغربة وسيضحى أنيسها في المجهول.

هناك حيث لا تنتمي. تحاول إخفاء خوفها من المستقبل الذي سيحدد بعد يومين بإعلان النتيجة.

لم يكن الدافع لهجرتها هو كرهه البلد كما هو الحال عند منير بل لأنها رأت صديقات أقل منها جمالاً وذكاءً وقد تزوجن في الغربية ولم يزد وزنه بعد الحمل ولم يضطرن إلى الحياة كأمهاتهن. رأتهن على الفيسبوك أو كما تطلق عليه «الفيس» هن يركبن سيارات فارهة مع أن أزواجهن يعملون في وظائف عادية. هي لن تكون أبداً كأمها التي كان سقف طموحها يوماً ما غسالة أوتوماتيك لم يشترها لها والدها إلا عندما ضبطته متزوجاً بفتاة صغيرة السن بورقة عرفي في السر. لن تكون مثل أمها؛ فحياتها أئمن من أن تضيعها على مناقشة سعر الطماطم وحامات الشعر والحلاوة وكيف ترضي زوجها ليلة الخميس.

- منير بابيبي! إنت محضر بقية الأوراق؟

- حضرت كل حاجة كان ناقصني شهادة الثانوية العامة.. جبتها امبارح من مدرستي.. وسمعت خبر سعيد وأنا هناك..

- خير؟

- عرفت إنهم هيهدوها..

- شكلك ماكتتش بتحب مدرستك..

- مدرستي دي إحدى القلاع التعليمية في مصر. المدرسة دي بتخرج كل سنة آلاف الكائنات المشوهة والمسئولة عن زراعة كل حاجة تعيسة جوة الأطفال البريئة واللى بتخليهم يكفروا بكل ما هو إنساني وجميل.

- يهدوها ازاي؟ هي مش تبع الحكومة؟

- أرض المدرسة أصلاً مملوكة لحد من أهالي المنطقة وكان متبرع بالأرض
 علشان يبني المدرسة ويفيد أهله والمجتمع والناس، ومنه برضه يظبط علاقته
 بالحلي والحكومة، لكن يظهر إن الراجل أخيراً فاق واكتشف حجم الجريمه
 اللي ارتكبها في أهل منطقته، فقرر يهدّ المدرسة، ويبني عمارة كبيرة، طبعاً بعد.
 ما أسعار الأراضي والشقق بقت نار، أهو منه يفيد ويستفيد، وعشان أهالي
 المنطقة ما يهيجوش عليه، وعدهم إنه هيبني جامع تحت العمارة، لكن بالرغم
 من ده، لسه في شوية كفرة بيعترضوا على هدم المدرسة وبناء الجامع.

- طب وانت فرحان ليه يا بابي؟

- بجد إحساس رائع إنك تشوف المبنى اللي اتمارس فيه كل أنواع الجرائم
 الفكرية ومختلف أنواع انتهاكات حقوق الإنسان والحيوان والحشرات وهو
 بيتهد قدام عينيك، منظر يديك شعور بالسعادة والنشوة، مايتفوقش على
 السعادة دي غير إني أشوف المبنى وهو بيتطبق على نافوخ جميع المدرسين
 والمدرسات والتلاميذ وأهالي المنطقة الكرام نفر نفر.

شعرت بالمخدر يقوم بدوره الفعال على رأسها فمد منير يده ليستكشف
 الأحياء المختلفة في جسدها فلم تمنع وبعد أقل من ربع ساعة علم منير
 أمرين مهمين: أن قدراته الجنسية قد انهارت تماماً منذ آخر مرة مارس فيها
 الجنس. الأمر الثاني أن ياسمين ليست عذراء.

قامت رانيا من النوم وهي ممسكة برأسها من أثر الصداع. لثوان لم تدر ابن هي وما الذي يفعله شريف بجوارها حتى عادت لها الذاكرة بصورة مشوشة وإن كانت مفهومة عما حدث ليلة أمس. ارتدت ملابسها وبحثت من الحسام وحين غادرته لم يبد على شريف النائم أنه ينوى أن يستيقظ قبل مرور ساعة على الأقل. بحثت عن علبة سجائرها لتجد أن علبتها وعلبة شريف خاويتان. سألته عن السجائر فرد عليها بكلمات غير مفهومة. خرجت إلى الشرفة لتجد سلمى جالسة على الدكة أمام العمارة فنادتها. نظرت إليها سلمى لتندفع دماء القهر إلى قلبها ويغلي رأسها وهي تلوم نفسها على تصديقها أن شريف قد يجيها.

شريف لن يتغير وفي نفس الليلة التي شعرت أنه قد يكون حصنها الآمن تكتشف خيائته لها.

نادت رانيا سلمى التي وقفت مصعوقة وطلبت منها أن تبتاع لها ولشريف علبة سجائر ظناً منها أن سلمى الجالسة على الدكة ما هي إلا ابنة البواب أو زوجته.

لم ترد سلمى واتجهت إلى المكتبة وأغلقت الباب من خلفها وأنفاسها تتلاحق.

اختطفتم سلمى حقيية يدها وأغلقت باب المكتبة عائدة إلى مسقط رأسها بإمبابة. وفي الطريق إلى هناك علمت أنها ساذجة وبحاجة أن تنضج.

إن زواج ابن الباشا بابنة البياعة لا يوجد إلا في الروايات التي كان والدها وجدها يبيعانها.

لا يمكن إعداد طبق الفيل المحشو أبدًا.

تذكرت كلام جدها عندما قال لها: إن انتصار الخير على الشر وزواج الأغنياء من الفقراء لا يحدثان إلا في الروايات ولو حدثا في الواقع لما أصبحا مادة تصلح للسرود والأحلام والسينما والمسلسلات.

مشت في شارع منزلها ولم تهرول كعادتها لتختصر المدة التي تضطر أن تمشيها. مشت واثقة ولم تشح بوجهها عندما رأت الشاب اللزج صاحب محل الموبايلات بل إنه أقسم لأصدقائه على القهوة ليلتها أنها قد ابتسمت له. صعدت إلى السلم وهي تحمي جاراتها اللاتي لا يغلقن أبواب منازلهن إلا وقت النوم. لم تصدق الجارات أنفسهن ولكنهن رددن التحية وهن يتبادلن النظرات.

فتحت باب الشقة وتأملتها مليًا في محاولة منها أن تعتاد على وطنها الحقيقي. لقد خيرها مرزوق ما بين ترك المكتبة أو الشقة له. سترك له المكتبة على أن يتنازل لها عن نصيبه في الشقة وليقف هو أمام شريف فهما يستحقان بعضهما البعض. فإن قهره شريف بنفوذه فمرزوق قد سعى إلى هذا المصير بنفسه، وإن تعدى مرزوق عليه بمساعدة أصدقائه فشريف يستحق أضعاف هذا على ما فعله.

دخلت إلى غرفة والديها التي نادرًا ما تدخلها. فتحت دولا ب والديها وانتقت منه طرحة وبدأت في لفها حول رأسها. نزلت بحجابها إلى جارتها

ادعت أنها تريد منها بعض الليمون. لم تكن تحتاج إلى شيء سوى إلى الشعور
الانتشاء إلى مكان ما حتى ولو كان هذا المكان يعج بتلك الكائنات وهؤلاء
السوة اللاتي تمقتهن ولكنها على الأقل تنتمي إليهن.

نظرت إلى الداخل لتجد أن الجارة كانت تتابع مسلسلًا ما، فسألتها
سلمى عما حدث بالحلقة السابقة. وقفت الجارة لا تصدق أن الفتاة التي
كانت تعابرها بأميتهما تستلف منها ليمونًا وتسألها عن أحداث مسلسل
"ركي".

لقد ظنت الجارة أن سلمى ليست مثلها. وبعد ربع ساعة كانت سلمى
مع ثلاث جارات يتجاذبن أطراف الحديث والضحكات. صحيح أن
الحديث كان معظمه عن الجنس ونصائح لسلمى في ليلة الدخلة إلا أنها
اندمجت معهن. ورغم أنها كانت تحاول نسيان ما حدث فإن منظر رانيا في
الشرفة لم يبرح مخيلتها. رأته سلمى واقفة كفرس بظهرها المشدود وشعرها
الذهبي يتبعثر حول وجهها. هناها إحدى الجارات على ارتداء الحجاب
أخيرًا فتصاعدت عبارات كمبروك والحمد لله من أفواه تدعي الفرح وعيون
غبية لا تستطيع حتى مداراة الدهشة. وانتفضت سلمى فجأة وشكرتهن
وغادرت الشقة. نظر بعض النسوة إلى بعض في دهشة. وفي الطريق إلى
الكوافير خلعت الحجاب ووسط الشارع وسط نظرات الاستهجان من المارة
ودخلت المحل وهي تنوي أن تخرج من هذا الباب شقراء.

- 11 -

فتحت لبني باب منزلها لترى تلميذها المفضل وحفيد جارتها العزيزة وابن من هي في منزلة ابنتها التي لم تلدها مهموماً وعلى كتفيه ثقل الحباء نفسها فاحتضنت شريف الذي ارتمى على كنبتها كعادته وغابت هي لتحضر إليه الكيك وعلبة عصير المانجو كعادتها.

لقد بدت لبني أفضل حالاً ولم تفتح له الباب وهي تستل السكين وبياء على وجهها أنها قد حصلت على قسط وافر من النوم هذه الليلة.

عادت لبني وهي تضع صحنًا مليئًا بالكيك وكوب عصير جوافة مارته قها أمام شريف. قضم قضمه وهو يتساءل كيف يمكن لهذه الكيكة أن تكون هي طعم الحنين ذاته؟

ابتسمت لبني وهي ترى مدى استمتاع شريف بالكيكة لتندم للدمر المليون على أنها لم تتزوج وتنجب من يقدر أشياء صغيرة كهذه. كان أكثر ما يؤرقها أنها عندما تموت لن يترحم أحد على طعامها ولن تدمع عين أحدها عندما يأتي أول إفطار في رمضان دون أن تكون موجودة.

شريف بدأ يشعر بأن لبني مسكينة حقًا. حكى له هدى أنها كانت مخطوبه لأحدهم ولكنه تركها قبل موعد زفافها بثلاثة أيام فتحطمت نفسيته تمامًا خاصة أن نجوى قد أخبرت البعض أنه قد تركها لأنها ليست عذراء، فصدت كل الشباب الذين حاولوا أن يقتربوا منها ظنًا منهم أنها سهلة فحصلت على لقب مترتبة. وحين قابلت زميلها في المدرسة وأحبته وصارحها أنه لا يهتم

الك الشائعات عن عذريتها أقسمت له أنها عذراء. واتفقا على الزواج ولكنه
في قبل حفل الزفاف بشهر فأشاعوا عنها أنها نحس.

ولم تسمح لأحد بأن يقترب منها حتى شارفت على الأربعين فختمت
امب «عانس» وهو اللقب الذي لازمها حتى خرجت على المعاش منذ عدة
سوات.

للبنى أخت واحدة وأخ توفي منذ عامين.

بقدر ما شعر شريف بالأمان في منزل لبنى بقدر ما أزعجه أنه لا يزال
امبدأ يهرع إلى حضنها عندما تتأزم الأمور. اجترع العصير من العلبه على
فعة واحدة ثم حكى لها باختصار ما حدث بين رانيا وسلمى بعد أن ظنت
الأولى أنها ابنة بواب العمارة وطلبت منها أن تتاع لها علبه سجائر.

لم يخبرها بتفاصيل ما حدث بينه وبين سلمى في حمام المكتبة بالطبع.
انساحت لبنى برأسها بعيدًا وهي تحاول أن تستوعب، أن الطفل الذي كان
يستأذنها فيما مضى في دخول الحمام في المدرسة يعترف لها بأنه كان يضاجع
فانة في شقة جدته. لم تدرك كيف لها أن تشعر حيال ذلك سوى أن تعترف
أن العمر قد مر بها.

مالت عليه وقد وضعت ساقًا على ساق لتكشف عن بوصتين مغطاتين
النمش والبقع السوداء وهي تقول إنه لا بد أن يعتذر لسلمى بطريقة عملية،
وأردفت قائلة:

- بعد ما تقولها الكلمتين دول بتوع أنا كنت سكران وآخر مرة والكلمتين
دول... خرّجها معاك.. ودّيتها نفس الأماكن اللي انت بتخرج فيها علشان

تحس إنها مش أقل منك وإنك مش مكسوف منها.. طبعًا إوعى لها
تشوف البنت السنكوحه دي.

كان كلامها به الكثير من المنطق. شكرها شريف وقبل أن يغادر
أخبرته بأنها ستذهب إلى أميمة التي طلبت أن تجتمع بها بخصوص العار
طمأنت شريف أنها لن تخبر أميمة شيئًا وأنها ستذهب إليها لتعرف
وتجس نبضها. شكرها شريف وتركها وحيدة في الشقة.

وفي منزل أميمة ومع رشفات القهوة تبادلت المرأتان الحديث
منصور جاد الله وفضيحته أمام الجميع. لم يكن خافيًا على القاضي وال
أن أميمة لم تكن تستسيغ منصور بسبب سوء معاملته لزوجته الراحلة
كانت صديقة أميمة، ورغم ذلك توددت أميمة لمنصور كي يساعدنا
في الظهور على شاشات التلفزيون الذي نقل الشيخ من مرتبة المشاهير
إلى الأساطير وتدفع الناس إلى شركات السياحة أفواجًا تبغى زيارة
الحرام بصحبة نسات.

أميمة كانت تحب وتشفق على أرملة منصور التي كانت على علم بأن
زوجها لا يزال قلبه معلقًا بمنال جبه الأول. تعايشت السيدة مع الأمر و
حقيقة لا فكاك منها وصبرت نفسها بأنه على الأقل يعود إليها في آخر الليل
نقل لها بعض معارف والدها أن منصور لا يخونها مع منال فقط بل مع فتيات
مراهقات في عمر ابنتها. انهارت يومها واعترفت لأميمة التي أخبرتها بأنها
لا بد أن تطلب الطلاق.

«مها عرف منصور ما حدث وخشي على منصبه إن انفصل عن زوجته
اسة أن والدها كانت أسهمه تعلقو كل يوم عند وزير الإعلام، فما كان منه
أن طلب منها أن تقطع علاقتها مع أميمة تمامًا وتشاجر معها أمام الجميع
ادلا السباب، ولم يقف في صف أميمة يومها إلا منير الذي نزل مخمورًا من
له ولكم منصور أمام الجميع في أنفه فأدماه.

لم يستطع منصور الانتقام من أميمة بسبب نفوذ الشيخ نشأت، فاتصل بأحد
ارفه لتداهم الشرطة منزل منير ويتم اعتقاله يومين في الحجز كقرصة وذن.
تخيل منير حين عاد إلى المنزل وأخبر الجميع بما فعله هذا الرجل في أحد
اب العمارة أن يتم نبذه من الجميع، إلا أنه فوجئ بأنه لا يزال يعامل
اترام من والد شريف وفاطمة ونجوى وحتى زوج أميمة الذي لم يدافع
وها بل اكتفى بسباب منير. أما أميمة فلم تشأ أن تحوض معركة ليست
مركتها، وندمت على أنها تسرعت وتشاجرت مع رجل ذي نفوذ من أجل
مض النميمة وأن زوجة منصور لا تستحق التضحية، فصالحت منصور
هي أيضًا وقامت بإلقاء اللوم على منير الذي شعر بظلم لا حدود له، فبدأ
الفي بأكياس القمامة في المنور اعتراضًا على سكان العمارة الذين رأى أنهم لا
يستحقون إلا أن يعيشوا وسط الفئران.

عادت المرأتان لتلوكا سيرة سكان العمارة كعادتهما، وتحولت دفعة الحديث
إلى نجوى وسرقتها لإرث هدى وولديها. سبت أميمة نجوى بأقذع الألفاظ
وطالت هدى أيضًا بقاموسها من الشتائم لأنها لم تثر على سلطة زوجة أخيها
وتتزوج مرة أخرى وسألت لبنى:

- بت يا لبني هو شريف ناوي ياخذ بقية شقق العمارة ولا استكفى كما
لم تشأ لبني أن تندفع بالإجابة وقررت أن تترث قليلاً حتى تكشف
مضيفتها كل أوراقها وقد فعلت كعادتها، فأميمة - رغم كل عيوبها - لم
الخطوط المستقيمة ولا تهوى اللف والدوران.

أخبرتها أميمة أنه لو فاتحها شريف في موضوع التنازل عن الشقة فهي
تقبل بأقل من ربع مليون جنيه كسعر عادل للشقة، ولكنها ستخبره بأنها
ثلاثمائة ألف كي يمارس شطارته قليلاً. هزت لبني رأسها مؤيدة وأخبرتها
أنها لو باعت فستضطر أن تترك شقتها هي الأخرى فهي لن تعيش في
أشباح.

- بس لازم أسأل الشيخ نشأت الأول.

- 12 -

ثلاثة أيام وبدأت حالة عزيزة الصحية تستقر وتم نقلها من العناية المرساة
إلى غرفة عادية. زارتها فاطمة وقد أخبرتها أن الحزب سيرشحها في انتخابات
الشورى. لم ترد عزيزة ولكنها شكرتها بكلمات مقتضبة لمساعدتها في ذلك
المستشفى. اقتحم لوتو الغرفة ليخبرها بأن أخاه الأكبر أمامه نصف ساعة
ليحضر. تبادلت المرأتان النظرات فهما كانتا تعلمان ما يريد أن يقوله لوتو
الذي كان يحاول أن يتجنب لقاء فاطمة معه حتى لا تحدث مشاكل. نظر
فاطمة إلى زوجها ثم إلى حماتها وقالت بشيء من التحدي:

ما يجي.. أهلاً وسهلاً.

فغر لوتو فاه ببلاهة فهذه هي المرة الأولى التي لا تنتفض فيها فاطمة عند
سماعها اسم أخيه. أعقبت فاطمة كلامها بأن أخرجت من صدرها ورقة
من فئة المائة جنيه تعمدت أن تراها عزيزة، وطلبت من زوجها أن يبتاع
لها روبات وفواكه وغذاء للضيوف، وقامت بالتشديد على كلمة «ضيوف».
أول منها لوتو الورقة المالية وهو يهرش في رأسه ويخرج من الغرفة ليتركها
بدهما.

شعرت عزيزة بالاختناق وأنها محاصرة فعلاً بعد أن فهمت رسالة فاطمة
بأنها لم تعد تخاف من ابنها الأكبر وأنه هنا مجرد ضيف.

وحيث جاء الأخ الأكبر لم يُلق التحية على فاطمة كعادته فاستأذنت
الأخيرة قبل أن تفقد قدرتها على التماسك، وخرجت من الغرفة وهي تتمنى
أن يهلك، وتتحسر على أنها لم تزوجه هو وتزوجت الأخ الفاشل لهذه العائلة.

وحيث عادت فاطمة ولوتو إلى البدروم وبعد أن تناول الأطفال طعام
العداء نظرت فاطمة إلى لوتو وإلى ملبسه الرثة وحذائه البالي وقارنت بينه
وبن جلاب أخيه وعمامته التي تزين رأسه القوي. قارنت أيضاً بين ملابس
ابنها وولديها. نظرت إلى نفسها في المرآة فأدركت أن منظرها هي وعائلتها لا
يابق بعائلة نائبة في مجلس الشورى.

وفي أقل من ساعة كانت العائلة تنزل من التاكسي الذي أوصلهم إلى
.. سوق بولاق. وهناك ارتدت فاطمة أول جيبة وبلوزة في حياتها. ضحك
الأطفال ولوتو الذين يرونها لأول مرة بدون جلاب وعباءة.

وضعت فاطمة، فاطمة القديمة في كيس.

أما الولدان فاندفعوا يقيسان ويرميان ويجريان ويضحكان حتى إن أحدهما من فرط حماسته جرى وراء أخيه الذي صفعه في غرفة تبديل الملابس في الشارع بملابسه الداخلية.

الابنة هي الوحيدة التي لم تكن تشعر بالارتياح من الزحام ومن هنا السوق فابتاعت لها فاطمة بعض الألعاب وبيجات وملابس داخلية. مشى الولدان فرحين بملابسها الجديدة وفاطمة تضحك في سرها حين همس لها لوتو بعبارة بها شيء من الغزل معلقاً على ملابسها الجديدة التي ارتدتها.

أما لوتو فقد تحول هذا الرجل الأربعيني النحيل إلى طفل لا يصدق أنه يستطيع شراء ما يريد من ملابس. أمسك بيد فاطمة وكأنها أمه. وقف أمام بائع الأحذية الرياضية متغزلاً فيها. سأل البائع عن الخذاء فأجابته: بمائة جنيه، فأعاده إلى مكانه متحسراً. انفطر قلب فاطمة من منظر لوتو وإحباطه وأصر على أن تبتاعه له، فادعى لوتو أنه لم يعجبه وأمسك بخذاء أرخص ثمناً.

- وحياة ابنك يا محمد لانت جايب أبو تمانين جنيه.

- ورحمة أبويا أنا ماليش في الجزم أم رباط.. أنا عايز الجزمة أم لوزيق.

- حلفان على حلفانك لانت جايب الجزمة أم تمانين.

أدركت فاطمة من نظرة لوتو إلى الخذاء وهو يقيسه ويجربه أن الدنيا قست كثيراً على زوجها. أمسك الخذاء وهو يقول للبائع الشاب.

- فيه جزم مخصوص للجري وجزم للمراقص⁽¹⁾، بس الكورة دلوقتي جري مش زي زمان.

ارتدى لوتو الحذاء وصفر إلى بعض الصبية الذين يلعبون الكرة على الرصيف المقابل. ركل أحدهم الكرة للوتو الذي تلقاها بقدمه ببراعة فبدأت بعض العيون تتأمله وولداه يشجعانه. بدأ في استعراض مهارته في التحكم بالكرة مرتدياً حذاءه الجديد ثم ركل الكرة لأعلى وأوقفها بمهارة على رأسه. لفت انتباه المارة فلقد كان ماهراً جداً فيما يفعل وبدأت الدائرة من حوله تنسع والناس تهلل له في لحظات نجومية اقتنصها لوتو من الحياة. رأى لأول مرة نظرات الفخر في عيون أولاده وضحكت له ابنته واحمرت وجنتا فاطمة خجلاً حين قالت لها إحدى الفتيات إنها محظوظة لزوجها من هذا الرجل ذي المهارات.

عادت العائلة إلى البدروم ولكنها شدت لوتو والأطفال إلى المصعد وضغطت زر الدور الرابع ليقفوا أمام شقة رقم سبعة وفتحت فاطمة الباب ولوتو يسألها عما تفعله. ضحكت له بدلال وهي تقول: ألسنت زوجتك! فهم لوتو الرسالة وإن كان لم يصدقها.

دخلت العائلة إلى المنزل وفتحت فاطمة جهاز التكييف فصرخ الأطفال فرحاً ووضع أحدهم وجهه أمام فتحة خروج الهواء وتشاجر معه أخوه لأنه يستأثر بالهواء البارد وحده.

(1) يقصد: ترقيص بمعنى مراوغة ومهارات

قررت فاطمة أنها ستبت من الآن فصاعدًا في الشقة؛ هي تستحق هذه الحياة وهذه الشقة. أما عن شريف فإن طلب منها أن تتنازل عن البدرام فعليه أن يدفع لها تعويضًا كبيرًا عن أيام الذل التي عاشتها على أيدي عائلته خصوصًا نوال التي كانت تعتمد السخرية من جهلها أمام الجميع.

لقد شبت الجاهلة لتغدو نائبة في البرلمان بينما نوال مجرد زوجة لموظف مختلس تزوج منها طمعًا في نفوذ عائلتها والذي أوصلته نجوى إلى ما هم فيه من خير. ابتسمت فاطمة في قرارة نفسها هامسة لتلك الطفلة الفلانة الكامنة بداخلها أن نوال لا شيء بدون زوجها أما هي فعائلتها وعاناه زوجها لا شيء بدونها.

ولأول مرة تجلس العائلة في صالة مريحة لتشاهد التلفاز الذي كان يعرض فيلمًا قديمًا لإسماعيل يس انتزع ضحكات الجميع حتى الابنة التي كانت تعلق على ما يحدث بالعربية والإنجليزية. لم يغر منها أخوها كعادتها ولم يسخر منها والدها بل وربما لأول مرة يقبل رأسها.

وفجأة تم قتل أحد المشاهد عمدًا لضرورة تقديم وجبة إعلانية. طلب الابن الأكبر أن يأكل من أحد هذه المطاعم التي تعلن عن وجبتها الجديد. ابتسمت فاطمة وأعطت الابن الأكبر محمولها وطلبت منه أن يتصل بالمطعم الذي يريده ويتولى مسئولية إطعام الجميع.

أمسك الصبي بالمحمول المثقل بالمسئولية وطلب الرقم وهو يخشن صوته. وحين سأله الرجل على الناحية الأخرى أخبره بفخر بالعنوان: 1-1 شارع عز الدين، نظر إلى أمه التي أكملت له العنوان: الدور الرابع شقه

سبعة، فأعاد الطفل ما قالته الأم مردفًا أن يتذكر أنهم في الدور الرابع ولم يعودوا في البدروم. ضحك الجميع وجاء الطعام وأكلوا وناموا هم الخمسة في الشقة وبالرغم من اتساع الشقة فإنهم ناموا جميعًا على نفس السرير في حضانة فاطمة.

رأت فاطمة فيما يرى النائم أن عزيزة حماتها قد صارت أكثر شبابًا وتروي أرض الحديقة؛ فسرت المياه حتى وصلت إلى فاطمة ليتحول بلاط البدروم إلى أرض طينية مبتلة وبدأت تبتلعها شيئًا فشيئًا. حاولت أن تستنجد بأحد إلا أن شريف قد ظهر فجأة ليغلق الباب لتغرق في الظلام، وهنا ظهرت السيدة مريم العذراء تشع بنورها في الظلام وبدأت تتحرك من داخل الجدار وهي تنظر لها بلوم. اقتربت فاطمة من العذراء لتجدها بلا عيون. حاولت فاطمة أن تصرخ فلم تستطع ووجدت ابتها تضحك على حجر العذراء. اقتربت العذراء من رأس الطفلة لتجد أن بجوارها المسيح طفلًا كفيفًا. صرخت فاطمة وقامت من النوم غارقة في عرقها. لم يصح أحد فغطت أحد الأطفال جيدًا وقبلتهم وانتزعت حذاء لوتو من حوضه وهو نائم.

خرجت إلى الصالة لتشرب بعضًا من الماء وهي تتحاشى النظر إلى ذاك الحائط في الصالون. في صدر الصالة قام إسكندر المستأجر الأصلي للشقة برسم صورة كبيرة للعذراء وهي تحتضن وليدها. وبعد أن هاجر إسكندر بعد أحداث الزاوية الحمراء ظلت الشقة مغلقة ولم تحاول نجوى بيعها أو ناجيرها خشية أن يتم كشف استيلائها على الإرث لأن الساكن الجديد سيطلب بالطبع الاطلاع على الأوراق الأصلية للبيت.

أقنعتها فاطمة في أوائل الألفية الجديدة بأن تؤجرها هي بمعرفتها. في البداية لم توافق نجوى ولكنها إشفاقاً منها على حال ابنتها وافقت.

لم تنس فاطمة أول يوم رأت فيه هذه الرسمة فطلبت من نجوى أن تدهن الحائط إلا أن الأخيرة أخبرتها أنها لو دهنت حائطاً واحداً ستضطر إلى دها، المنزل كله، فالدهان الجديد سيجعل كل الحوائط المجاورة له تبدو شديداً، الاتساح.

أفتى أحد الشيوخ في صالون نجوى بأنه لا بد من طمس العيون، الرسومات فما كان من فاطمة إلا أن طمست عيون العذراء والمسيح على الحائط وغطت وجهيهما براويز عليها آيات من القرآن.

وحين علمت بإعاقة ابنتها خطر ببالها أن العذراء قد عاقبتها لما فعلت رفضت كلام عزيزة بأن الله قد عاقبها في ابنتها بسبب تسهيل الدعارة وتجارة المخدرات. يومها صرخت في عزيزة أن هذه ليست دعارة فكل من سكنوا الشقة كان معهم ورقة زواج عرفي ودافعت عن نفسها أنها لم تتاجر، المخدرات بل تاجرت في البانجو فقط.

أخبرتها إحدى العاهرات في يوم من الأيام أن السبب هو تعديها على أيقونات مسيحية لأن جن المسيحيين كافر وقوي لكن جن المسلمين طيب، ولا يؤذي مسلماً أبداً.

ترددت فاطمة للحظات ثم وقفت فوق الأريكة وخلعت براويز الآبار، القرآنية من فوق الجدار. مدت يدها بحذر وبيضاء لتلامس العيون المطموسة، جف ريقها وهي ترنو بلحظها لأعلى، وضعت يدها الأخرى على الحائط

وكانها تحتضن الجدار ثم نزلت من فوق الأريكة وبدأت في مناجاة خجلى
المرسمة:

- بلاش بنتي... إنتي أم وعارفة غلاوة الضنا..

تبادلت النظرات مع العيون المطموسة للسيدة مريم فارتبكت وهي
سذكر الحلم وقالت:

- زعلانة علشان مسحت عينيكى؟.. وحياة ابنك اللي هو ضي عينيكى
كنت جاهلة ولسة جاهلة.. ولادى التانيين هيطلعوا زي أبوهم.. بنتي مش
متعرف تطلع حتى زيي... أنا خايفة لتقع تحت إيدين واحدة زي أمها..
اشفيها.. اشفيها يا أم النور.

- 13 -

أسبوع كامل وشريف يحاول الاعتذار لسلمى وفي كل مرة تكتفي بأن
يقول له بأنه حر في منزله. أسبوع كامل وهي تحاول التأقلم على التعايش
مع جيرانها في إمبابة دون جدوى. تخيلت مصيرها هناك فجزفها شعور
الاكتئاب. تمت لو لم يصر والدها على أن تعيش جُلّ طفولتها في الجيزة.

لو لعبت هنا واتسخت من تراب هذا الشارع لكانت أسعد حالاً ولظل
شريف في ركن قصي بذاكرتها كحفيد صاحب العمارة المدلل الأقل رجولة
من رجال منطقتها. الآن شريف هو الشاب العابث الوسيم الأنيق القوي

الذي تمنى أن تزوجه ولكنها متأكدة أنه لن يرتبط بها. تذكرت وصف الفيل المحشو فزادتها اكتئاباً.

وبنهاية الأسبوع خلعت سلمى الحجاب وعادت إلى روتينها السابق وبدأت في المبيت مرة أخرى بالمكتبة. وفي الصباح فتحت باب المكتبة من الداخل لتجد وردة معلقة على الباب ومشبوكةً بها بخيط ورقة كتب عليها «آسف، بس كنت...».

نظرت سلمى إلى شرفة شريف وعندما رأته واقفاً تعمدت أن يراها وهي تضع الوردة والورقة في سلة مهملات في صندوق القمامة الكبير الأخضر اللون في الجهة المقابلة للعمارة.

في اليوم الثاني فتحت سلمى باب المكتبة لتجد وردة معلقة على الباب من الخارج وورقة كتب عليها «كنت عايز أقول لك...». أمسكت بالوردة والورقة وعبرت للجهة المقابلة ورمتها.

في اليوم الثالث استيقظت من النوم ووجدت نفسها تسرع إلى باب المكتبة لتبتسم عندما وجدت وردة وفتحت الورقة بلهفة لتجد مكتوباً عليها «إني...»

زمت شفيتها من الغيظ لأسلوب شريف التشويقي وقبل أن تتجه إلى صندوق القمامة فتحت الدرج لتضع فيه الورقة بجوار الورقتين السابقتين. اللتين لم ترمهما بل كانت ترمي ورقاً أبيض. أمسكت بورقة بيضاء من ماله التصوير الصغيرة وخرجت تمشي الهوينى وتأكدت أن شريف يراقبها وقام برمي الورقة أمامه ولكنها وضعت الوردة في صدرها دون أن يراها شريف،

وعدت أدراجها وفتحت باب المكتبة وعلى شفيتها ابتسامة جذابة. أخرجت الوردة الثالثة من صدرها وفتحت ديواناً لنزار قباني ووضعت الوردة بين مصفحي الكتاب بجوار الوردتين الأخريين. ليبتها نامت وهي تحلم بالزهرة الرابعة وتكملة العبارة التي كتبها في الأيام الثلاثة الماضية «آسف، بس كنت مايز أقول لك إني...». لم يكن هناك سوى كلمة واحدة لتكملة هذه العبارة.

وفي اليوم الرابع خرجت من المكتبة فلم تجد الوردة، نظرت حولها جيداً لم تجدها. نظرت إلى الشرفة فلم تجد شريف الذي تعمد الاختباء ومراقبتها من خلف شيش غرفة هدى التي تطل على الشارع.

ما إن رآها تبحث عن الوردة والورقة كالمدمنة حتى أيقن أن خطته قد نجحت وأن سلمى قد استعدت لأن تتقبل اعتذاره. اتصل بها على محمولها فمرأها تعود إلى المكتبة. استمعت لصوته وهو يخبرها بأنه في المنور ولا يستطيع الخروج منه. ابتسمت سلمى وقد أعجبتها تلك الحجة وقررت أن تسايره في اهتبه. لان صوتها قليلاً وهي تقول له إن مفتاح المنور ليس معها.

- بس مفتاح البيت معاكي.. تيتا اديتك نسخة.. افتحي لي شباك المطبخ
ملشان أخرج منه.

وفي المنور جلس شريف منتظراً وتذكر حين كان طفلاً وقد تسلل إلى هنا عبر شباك المطبخ في غفلة من والديه ولكنه لم يستطع العودة مرة أخرى. قضى نصف ساعة بدت له كالدهر وهو ما بين ذعره من حبسته وما بين صراخه وافتضاح أمره. قضى حينها الدقائق وهو بين مطرقة خوفه من الفئران وسندان عقاب والدته إن صرخ طالباً المساعدة.

وعندما دخلت مس لبنى إلى المطبخ لتقوم بعمل قهوة لها ولهدى سمعت صوت بكائه المكتوم بالخارج. أطلت من شبك المطبخ فرأته يبكي في صم. فنظرت له نظرة لائمة وأشارت بيديها أن يأتي إليها، فمدت إليه يديها وأنقذته، وبقي هذا الأمر سرًا بينهما حتى الآن.

أطلت سلمى برأسها من نفس الشباك لتقطع حبل أفكار شريف وسأله عما يفعل هنا، فأخبرها بأنه ينوي أن يحل لغز الساكن الذي يرمي أكياس القمامة في المنور.

- لسة مصمم؟

- تعالي.

- مش جاية.. خليك عندك.

- تعالي وأنا أقول لك الوردة الرابعة كنت هكتب فيها إيه..

الفضول قتل القطة.

فنزلت سلمى إلى المنور حيث الفئران وشريف.

ما إن استقرت قدماها في المنور حتى صرخت بعد أن شعرت بشي ١٠٠ يلامس ساقها، وضع شريف يده على فمها ليكتم صوتها وهو يخبرها أن ١٠٠ لمسها هي يده وليس فأرًا.

هزت رأسها وقد سرت فيها القشعريرة وارتعشت من فكرة أن فأرًا ١٠٠ يلمسها، وفي نفس الوقت اكتشفت أنها في أحضان شريف. فتحت أمه ١٠٠.

نباك مطبخها بالطابق الثاني بعد سماعها صوت سلمى فدق قلب الأخيرة؛
لأميمة هي ينبوع للنميمة لا ينضب. وشدته هي ليختبئ تحت السلم الخدمي.
تنفست سلمى الصعداء عندما سبت أميمة قوط السلم ظناً منها أنها
صدر هذه الجلبة. طلبت منه أن يعودا إلى داخل الشقة. أجلسها شريف
جواره على إحدى درجات السلم. أخرج سيجارة وأشعلها فطلبت منه
سلمى سيجارة هي الأخرى. ابتسمت وهي تقول له إنها كانت تدخن
السجائر من شباك حمام المكتبة الذي يطل على هذا المنور سراً.

- بحبك..

باغتها شريف بهذه الكلمة ولم ينتظر ردها. همس لها بحبه على درجات
السلم الخدمي ووسط أكوام القمامة والفئران. لم تصدق سلمى ما سمعته
حتى عندما كرر شريف اعترافه بحبه لها.

اقترب منها فجأة ليقبل شفيتها قبلة قصيرة فألجمتها المفاجأة. أبعده
منها برفق وغادرت المنور من شباك المطبخ فتبعها شريف الذي أمسكها من
دراعها قبل أن تصل إلى باب الشقة. استدارت إليه قائلة بحدة:

- عايز مني إيه؟ مش هينفع أسلق فيل..

لم يفهم شريف ما قالته بالطبع ولم تشأ هي أن تشرح. اقترب منها وطلب
منها أن تخرج معه الليلة. ابتسمت وهي تشكره ولكنها تحججت بأنها لا
ملك ملابس مناسبة في المكتبة لأن دولاها بالكامل في منزلها حيث تنتظر
أكوام ملابسها «الشيك» إصلاح الغسالة التي كسلت أن ترسل أحدهم

لإصلاحها. كانت تكذب ولكنها لم تكن تملك ثقة كافية بنفسها وليس مستعدة كي تواجه إنائه.

- طب نخليها غدا دلوقتي؟

- روح اتغدى مع صاحبتك.. وأنا هروح أجيب لكم عليه سجاير.

- سلمى.. دي بنت تافهة.. وبات هنا.. وماعملناش حاجة.. كل واحد بات في أوضة.

- يا سلام!! هبله أنا بقى؟

- لو هي كانت بايئة معايا في نفس الأوضة كانت خدت من عا، سجايري.. أنا عندي خراطيش في أوضتي.. هي أفورت من الشرب فيبها هنا لحد الصبح.

لم تقتنع سلمى بالطبع ولكن من داخلها أدركت أن شريف يقدم لها تأشيرة خروج آمن لكرامتها من هذا الأمر. كل ما عليها أن تصدق القصة الركيكة أو على الأقل أن تدعي التصديق.

استقلا تاكسي إلى مدينة نصر ودخلا معاً من باب سیتی ستارز، ذاك المذاق الذي سمعت عنه الكثير ولكنها لم تزره من قبل. مشيا معاً وقد أمسكت كطفلة مبهورة حتى إنها صفقت بيديها جذلاً حين رأت القطار الصغير يسير بين الممرات.

أوقف شريف السائق بإشارة من يده وصعدا معاً على متنه، وجلست
جواره وهي لا تصدق نفسها. وخلال رحلة القطار القصيرة تمت سلمى
أن تموت وهي في هذه الحالة من الانتشاء.

نزلا من القطار وسلمى مبهورة بما ترى. فجأة طلب منها شريف أن
بغمض عينيها. فابتسمت بخجل وهي ترفض بدلال هو أقرب إلى الموافقة
الضمنية. وضع شريف يديه على عينيها ومشى بها بعض الخطوات وقد بدأ
أن لفت أنظار رواد المكان. وخلال الظلام حاولت أن تسترق النظر من
ملال أصابع يديه القويتين إلا أنها فشلت.

فكرت في ألف احتمال للمفاجأة التي يعدها لها..

- فتحي عينك.. هاه؟ مش ده اللي كتتي عايزاه؟

لم تفهم سلمى ما يقصده شريف بالضبط وما الغرض من وقوفها في محل
بغير للأدوات الكهربائية في قسم الغسالات.

- 14 -

وصل منير أخيراً إلى المعهد الإيطالي ليستعلم عن إجراءات السفر إلى
إيطاليا. وجد ياسمين في الحديقة مع بعض الزملاء فجرت ناحيته إلا أنه
استقبلها ببرود وقح..

- منير.. أنت فين؟ من ساعة النتيجة ما سمعتش صوتك، كلمتك في

البيت مامتك ماتعرفش حاجة عنك وموبايلك مقفول..

- جيت نمرة جديدة..

خرجت ياسمين من المعهد وقد تأكدت شكوكها التي حاولت ان تتجاهلها منذ أن انتهت من أداء الامتحان النهائي. لقد استغلها منير علمًا وجنسيًا. هو شاب مصري عادي جدًا حتى وإن ملأ أذنيها بقصصه عن ضرورة تحرر المرأة والثورة الثقافية والجنسية. هو شاب مصري عادي تركها بعد أن نال منها ما كان يتغيه مثله مثل الثلاثة رجال الذين وثقت بهم من قبل. كلهم تركوها بعد أن ناموا معها. خطرت ببالها فكرة أنه من الممكن أن يكون محرّجًا منها لأنه لم يكن بهذه الفحولة بل بدا مرتبًا. هل جرحته ولكنها بالغت في رد فعلها وادعت الاستمتاع حتى لا تخرجه. هل اكتشف أنها كانت تدعي النشوة؟ هل بالغت فظن أنها فتاة سيئة السلوك وتتنفخ فنون الفراش كالمحترفات. ولكنه بالفعل لم يشبعها وهي أشعرته أنه الفحل المغوار.

عندما عاد منير إلى غرفته أشعل جوينت في انتظار شريف الذي اتصل به في وقت مبكر وأخبره أنه يريد أن يقابله لأمر مهم. وعندما دخل شريف إلى غرفة منير الذي اتخذ ملامح جدية وهو يقول رافعًا جوينت أمام وجهه

- معايا وجاهز على الإشعال.. اتفضل يا شريف..

- عيب يا منير.. من رل أشعل ولو بعد حين..

- أصيل يا ابن نوال..

- إيه رأيك تتنازل عن الشقة يا منير وتأخذ تعويض كويس؟

- عايزني أبيع أمي يا شريف؟!

- لا..! أنا عايز الشقة من غير طنط زينب.. هي مش باسمها برضه؟..
حد رأيها طيب هي واخوك قبل ما ترد..
- مافيش اخويا.. الكلام معايا أنا، وأنا مش هبيع أمي.

قالها وعيناه زائفتان تمامًا فتأكد أن منير تحت تأثير عقار ما من الأدوية المخدرة. وقف صامتًا يتأمل منير المسجى على الفراش وهو يدخن.
- إنت محتاج فلوس يا منير.. وبعدين انت قلت إنك طلعت الأول في الإيطالي.. هتسافر وتسبب أمك من غير فلوس؟... بص، أنا مش مستعجل.. فكر وابقى رد عليّ..

- أنا مش محتاج فلوس يا شريف.. أنا عايز منك حاجة تانية.. عايزك لخرجني مع ناس شياكة⁽¹⁾.. عايز أسكر مع نسوان ريمحتها حلوة.. زهقت من الناس البيئة اللي اعرفهم.

- 15 -

وفي المساء ركب شريف بجوار سلمى في الكنبة الخلفية لسيارة شيري وركب منير بجوار شيري في المقعد الأمامي وما إن تحركت السيارة حتى قام منير بإخراج علبة معدنية فضية اللون من جيبه عليها نقشة بارزة لورقة الماريجوانا، وأخرج منها جوينت وبعد ثلاثة أنفاس أعطاه لشيري التي لم

(1) شيك.

تمانع بل أثنت على جودة المخدر الذي لم يكن سوى هدية من شريف. تأمل منير شيري وهي تسحب نفسين عميقين لتناول الجوينت لشريف في الكنبه الخلفية.

نظرت سلمى إلى الجالس بجوارها وهي تتساءل بينها وبين نفسها عما تفعله في هذه السيارة المعبأة بالحشاشين؟ وماذا تفعل في سيارة هذه الفتاه الممتلئة بالدهون؟

سعلت سلمى وقد بدأت تستسيغ رائحة الحشيش العطرية وسرحت في طريقة تدخين شريف للسيجارة فهو لا يكتم الدخان كما فعل منير ولا يمسك الجوينت من أطرافه كما تفعل الليدي شيري، بل هو يدخن الحشيش بمتهى الأناقة كأى حشاش متربي وابن ناس.

تذكرت من مسرحية هاملت جملة «هناك أشياء كثيرة بين السماء والأرض تفوق حلم فلسفتك يا هوراشيو» وفي هذه اللحظة تمت لو كان شكسبير بجوارها ليخلدها بإحدى تلك الجمل التي تردد صداها في مسرح الجلوب في العصر الفيكتوري وتناقلت عبر الأجيال والزمان حتى وصلت إليها في مكتبتها.

لسبب ما شعرت سلمى بأنها مستولة من شريف. لماذا؟ هناك أشياء ما بين السماء والأرض تفوق فذلكة أهلك يا هوراشيو، هكذا رددت العبارة بينها وبين نفسها وهي تضحك بصوت عال. ضحك منير الجالس في المقعد الأمامي وهو يبشرها بأن دخان الحشيش قد وصل إلى «نغاشيشها».

مغاشيش؟ أين سمعت هذه الجملة من قبل؟ أعطى لها الجوينت فنظرت إليه وقد تتأب زمانها.

ما زالت يد شريف ممدودة لها بالجوينت وفي عينيه تساؤل لم تقرأه جيدًا لأن عيني شريف ناعستان وشبه مغلفتين من أثر المخدر. اقتربت يد سلمى ووقفت في منتصف الطريق. خطوة قصيرة لسلمى، خطوة عملاقة للإنسانية.

ترى هل هناك حشيش على القمر؟

- أول مرة أشرب مخدرات..

وصلت السيارة أخيرًا إلى الجاز كلوب. أرادت سلمى أن تخبرهم بأن المقاعد الأمامية قد وصلت قبل الكنبه الخلفية ولكنها كانت نسيت ذلك وهي تنظر إلى المكان الذي سترتاده لأول مرة في حياتها.

وصلوا إلى الجاز كلوب أخيرًا ولفت انتباهها أنها أول مرة تجد هذا الزحام على أحد الكافيهات. ولماذا ترتدي الفتيات جيبات قصيرة في كافيه مهما كان شيك؟ أخذ أحدهم السيارة من شيري وفتح لسلمى الباب ليخرج دخان الحشيش ليحيي الجماهير المنتظرة إشارة من حارس المكان بالدخول.

وما إن خطت داخل المكان حتى اكتشفت الكارثة. الجاز كلوب ليس «كافيه» بل هو مرقص أو ملهى ليلي أو بار أو أي من هذه التعريفات التي فرأتها في روايات إحسان عبد القدوس ويوسف إدريس ولم ترتدها من قبل.

هذه أول مرة لها في مكان كهذا. المصيبة أنها لم تكن ترتدي ملابس مناسبة لهذا الحدث الجلل في حياتها، والمصيبة الأكبر أنها لا تمتلك ملابس أصلاً لهذه الأماكن التي قرأت عنها فقط في الروايات وشاهدتها في الأفلام.

أصابها الشعور بعدم الثقة بالنفس، بالضيق، وتمنت لو تنشق الأرض وتبتلعها أو على الأقل تجد ملابس مناسبة منسية في حمام السيدات. كانت ترتدي ملابس عادية وشعرها معقوص كذيل الحصان. أسرت إلى شيري، بموضوع أن ملابسها لا تلائم المكان فأخبرتها بأن الجاز كلوب ليس كباقي أماكن السهر فهنا كل شخص يرتدي ما يريجه. احتضنتها شيري وأمسكت بيدها عندما ذاب شريف وسط السلامات والقبلات والتحيات.

جلس الأربعة على مائدة بجوار الباب، وبعد فترة أحضر الجرسور زجاجة الويسكي الخاصة بشريف ومعها أكواب وبعض علب الكولا وشامبنيرا⁽¹⁾ بها الكثير من الثلج. صفق منير بيديه جذلاً عندما رأى زجاجة الويسكي الفاخر وتأمل الزجاجة وقبّلها ثم قام واحتضن شريف وفتح الزجاجة. رأت سلمى الإحراج على وجه شريف. كم هو رقيق ويرفض أن يشكره منير الأكبر منه. كم هو رجل خلوق!

أما ما كان يشعر به شريف فهو على النقيض لذلك تماماً، فكان يرى أن منير رجل أقل ما يطلق عليه هو لقب «سنكوح» مثله مثل أكرم وإد، كان الأخير يقدم شيئاً ما مقابل سنكحته. فأكرم من أسرة متواضعة مادياً ولكنه استطاع أن يتعلم الرقص ويبيده فأحبت الفتيات الخروج معه، كما أنه

(1) جردل صغير يوضع به الثلج.

بهدف للخروج حيوية ولا يدخل أي مكان دون فتاة سواء كانت شيري
أو الفتاة التي يخونها معها.

أما منير فهو شاب كئيب يدعي أنه يحتقر من هم دون درجته العلمية
ولكنه يحاول أن يجي كالشباب التافه الذي كان يسخر منه.

تأملت سلمى الدنيا الجديدة من حولها.

هذه هي إذا حياة شريف.

المكان يبدو مختلفاً عن قصص إحسان عبد القدوس وأفلام محمود
س. لا توجد تلك المفارش الحمراء ولا نساء تضحك ضحكات رقيقة.
راين تلك الأباجورات الصغيرة على الموائد. لم تر الشاب الذي يتراقص
المصعوقين كهربائياً كما في أفلام السبعينيات. الليلة أدركت أن صفحات
الروايات وسطورها بقدر ما فتحت عينيها على عوالم لم تعشها قد حجبت
منها العالم الحقيقي الذي كان عليها أن تحياه.

وكما توقع شريف وجد أكرم محضر متأبطاً فتاة، ولكنها كانت رانيا هذه
المرّة. الفرق الحقيقي بين رانيا ودينا أن الأخيرة كانت تحاول أن تتجاهل
خبايا شريف، أما رانيا فكان شريف يحاول عابثاً أن يجارها في الخيانة. أدرك
شريف منذ اللحظة الأولى أنه ورانيا وجهان لعملة واحدة. الاختلاف الوحيد
أن شريف كان عاشقاً للحشيش ورانيا شبه مدمنة للكوكايين وهو المخدر
الذي كان شريف يمنعه منعاً باتاً داخل فيلته حتى لا تتحول إلى وكر مخدرات.

جلس أكرم على المائدة وهو يتسم لشيري ابتسامة مفادها أنه يستطيع أن
يغضى بمن هي أجهل وأغنى. لم يسأل شريف عما حدث ولكنه متأكد أنها قد

تشاجرا بعد عيد ميلاده لسبب أو لآخر. لم يعد يهتم. شيري فتاة جدعة لها يقولون وتهتم لشأنه ولكنه إن اهتم في كل مرة تشاجر فيها مع أكرم لقفص حياته بجوارها. فتح أكرم الزجاجة دون استئذان وصب لنفسه كأساً وترا رانيا على المائدة ليراقص إحداهن.

تأمل شريف المائدة العجيبة حقاً. فأمامه رانيا التي من المفترض أنها صاحبتة ولكنها كانا أذكي من ادعاء هذا. بجواره الآن سلمى وشيري تحفزت سلمى كي تهاجم رانيا التي طلبت منها علبة سجائر ولكن على أنها يبدو أن رانيا لم تذكرها قط ولم تهتم بأنها بصحبة شريف من أساسه. هي تبحث الآن عن من يدفع لها ثمن الكوكاين ولن تغامر بالشجار مع شريف هنا أبداً. لم يضايقها ترك أكرم لها فلقد أخبرها بأنه سيبحث لها عن معه كوكاين في المكان.

مال شريف على سلمى وهو يسألها ما إذا كانت سعيدة بالخروج في الأماكن التي كان يخرج فيها، لم ترد لأنها قد بدأت تشعر بالاختناق من الدخان والزحام وتلك السيقان والنهود والمؤخرات الفاخرة للفتيات ورانيا. مال شريف على رانيا هامساً لها أن منير معه صنف عال جداً من الكوكاين. لمعت عينا رانيا وهي تسأل شريف بتشكك:

- ده معاه كوك ده؟ ده شكله شلحس قوي..

- أبوه أصلاً يعرف ناس في المافيا الروسي وجاب له ستاف سم من هناك.. حاجة عمرك ما حتدوقها هنا.

همس في أذن شيري بأن تحاول مداراة غيرتها من رانيا وأنه لديه خطة لأن يصاحب منير رانيا وتعود هي إلى أكرم ولكن عليها مساعدته. نظرت إليه شيري ودون أن ينتظر جوابها سألها إن كانت تستطيع أن تسافر مع منير و رانيا وأكرم الليلة إلى فيلتها بالعين السخنة، فهزت رأسها موافقة.

دفع شريف حساب الطاولة وترك باقي الزجاجات فريسة سهلة للطيور الكانسة. همس لمنير أنه يريد في أمر ما. وفي الحمام دس شريف في جيبه همسائة جنيه وسط اعتراض منير الرخو وكيس صغير به كوكاين.

همس له منير أنه كريم معه زيادة عن اللزوم، فابتسم شريف وهو يخبره أنه لأخيه الكبير وأنه عليه أن يدعو أكرم وشيري و رانيا على الكوكاين مقابل أن يقضي معهم يومين في فيلا شيري بالعين السخنة. احتضنه منير فتحمل شريف لزوجته ورائحته العطنة وخرج ليسلم على الجميع ونجا هو وسلمى من الصحبة.

وفي الطريق إلى المنزل فرح لأن خطته نفذت كما رسمها. لقد خرج مع سلمى في الأماكن التي يخرج فيها وجعلها تشعر بالضيق، وفي نفس الوقت عرف منير على فتيات لم يكن ليحلم بمصافحتهن.

- 16 -

في الطريق إلى العين السخنة التهمت سيارة شيري الطريق.

في الطريق إلى العين السخنة تحسست رانيا جلد سيارة شيري بحسد.

في الطريق إلى العين السخنة تحسس أكرم أفخاذ شيري في صبر.

في الطريق إلى العين السخنة وزن منير وضعه الحالي جيدًا.

علم أن شيري هي صاحبة السيارة والفيلا وقد رضيت أن تسافر طمعاً في عودتها إلى أكرم الذي بدا واضحاً أنه يرغب في العودة لشيري وسيارتها، فرانيا لم تكن لتسمح له بالاقتراب من سيارتها الجديدة رغم أنها من ماركه هيونداي. أما رانيا الجالسة بجواره فهي حتماً ستكون جائزته عن مجمل أعماله وتعويضاً له عن كل سنوات الحرمان من النساء الجميلات بعد عودته إلى أرض الكنانة بالإضافة إلى أن فكرة اختلاس شيء من شريف كانت تضاعف من متعته.

لم يكن أحد يعلم أن منير هو الساكن المجهول الذي كان يلقي بأكياس القمامة في المنور انتقاماً من سكان العمارة الذين لم يقفوا بجواره عندما تسبب منصور في اعتقاله يومين في قسم الشرطة. كثيراً ما كان يعبئ أكياساً بيوله وبرازه ويرميه في المنور لتفوح رائحة أشبه برائحة جنهم ونفاقهم وادعائهم الأخلاق والشرف والتدين. قال منير فجأة:

- أنا حقيقة العمارة الوسخة.. أنا بتاع المنور يا ولاد الكلب..

ضحك الجميع ففتح عينيه ليجد السيارة تسير في طريق مظلم لا فرق فيه بين لون البحر والسماء والجبال والأسفلت. الأسود يتسيد وعلى الجميع احترام الطبيعة وإلا عاقبتهم.

- ليه لما حد يفتح محل شاورما كل المحلات تفتح شاورما؟ ليه لما واحد

يفتح محل يماني ويسميه حضر موت كل الشارع يبقى حضر موت؟

لم يرد عليه أحد، ولكن أكرم ضحك ضحكة مبتورة وتشاءبت شيري
وتاملته رانيا منتظرة إجابة لم تأت قط.

نظر منير إلى سقف السيارة متابعًا سحابة الحشيش. تخيل لو أمطرت هذه
السحابة قطعًا من الحشيش. تساءل عقل منير العلمي: هل مثل هذه الأمطار
فد تشكل بحيرات وأنهارًا وتصب في بحار؟ فتح شباك السيارة فأصدر
مسفيرًا مزعجًا، وعندما لامته رانيا على ما فعل أخبرها بأن الصحراء تحتاج
إلى الأمطار ولولا ما فعل لأغرقهم الفيضان في السيارة. لم يضحكوا فأغلق
أكرم الشباك من لوحة التحكم بجواره.

بدأ أكرم في العبث بشعر شيري، فحذا منير حذوه وحاول أن يقترب من
خصلات شعر رانيا الأشقر ومد يده حذرًا كقط يقترب من إحدى الموائد. لم
تبد رانيا أي اعتراض فلم يصدق نفسه.

منذ صغرها ولا همّ لرانيا سوى أن تجرب كل شيء. أرادت أن تتذوق
كل الرجال والنساء. فضولها دفعها لتجربة كل أنواع المخدرات والنوم
مع أي غريب في أي دولة تسافر إليها. والليله لم تستطع أن تقاوم فكرة أن
تتشى بالكوكايين وفي أحضان رجل غريب. رانيا مدمنة الرجال وعاشقة
الكوكايين. ومن حسن حظها أنها لم تقع في فخ الهيروين أو حقن البيصة.

وما إن وصلوا إلى الفيلا حتى قام الأربعة بانتهاك عرض الكوكايين.
فتح منير علبة المعدنية وحصر المخزون فوجد أنه يكفي لثلاث سيجارات
من الحشيش واثنين من البانجو. فقام بلف سيجارة خلط فيها الحشيش

بالبانجو وأشعلها، وما إن شم أكرم رائحة الدخان حتى أطلقت رانيا بعض الصيحات الاستنكارية الوقحة وحذت حذوه شيري وقال له أكرم:

- بانجو يا معفن؟!!!

نفس كلمات ياسمين له.. فأبعد ذكراها عنه وقال:

- ده مش بانجو، ده «حشنجو».. حشيش على بانجو..

- لا يا راجل!!

- الحشاش اللي زيي لما يجيب صنف تعرفوا إنه ستاف ما بيطلعش لأي حد.

- وريني كدة العلبة اللي معاك دي؟

ابتسم منير وهو يعطي أكرم العلبة التي عاد بها من أمريكا. العلبة مصنوعة من النحاس المطلي بالذهب الأبيض وعليها نقش بارز لورقة الماريجوانا، وبداخل العلبة هناك أماكن لوضع الجوينتات ومخزن صغير للبانجو وولاعة ملحقة بها. أعجب أكرم بالعلبة وطلبت رانيا أن تراها. أعاد منير رأسه للوراء وهو ينفث دخان الجوينت منتظرًا - كالعادة - السؤال الذي يسأله كل من رأى العلبة فقال منير.:

- جبتها منين دي؟

- من فلوريدا.

- إنت رححت أمريكا؟

ابتسم وبدأ يحكي بفخر قصة حياته ما قبل أحداث 11 سبتمبر. كانت هذه هي طريقته الوحيدة للإبهار في ظل افتقاده للسيارة والمال اللازم لشراء

الملابس الأنيقة أو المحمول الحديث. كان يملك حكايات أحيانًا يضيف إليها أو ينقص منها حسب الظروف.

وظل يحكي والجميع يصغي ويضحك حتى قررت شيري أن تصعد مع أكرم لتلتهمه. وفي الغرفة اعترفت لأكرم - الذي قفز على الفراش خالغًا حذاءه - قائلة:

- إزاي شريف يسيب رانيا مع واحد مانعرفوش؟

- هو بيئة شوية بس مسلي ومعاها كوك جامد..

- يعني انت ممكن تديني لواحد صاحبك؟ أنا عارفة انك مابتجنيش ومستتخني. ساعات بحس يا أكرم إني بصعب عليك فبتنام معايا..

احتضنها أكرم وبدأ يقبلها. ومن داخلها ابتسمت شيري؛ فالطريقة الوحيدة لإثارة أكرم - الذي شبع من جسدها غير المثير - هي ابتزازه عاطفيًا. أما في قرارة نفسها فهي تعلم أن أكرم ينام معها من أجل سيارتها وفيلتها. هو عاهر يبيع نفسه من أجل النقود أو لمجرد أن يحيا بعيدًا عن حي بين السرايات. هي تعلم أنه إبان عمله بذاك البازار في الغردقة كان ينام مع السائحات العجائز مقابل كأس ويسكي.

هي تعلم ولكنها تحبه.

هي متصالحة مع نفسها لأقصى الحدود ولا تحب تزيف المشاعر.

لن يحبها أكرم وهي لن تتزوجه؛ لأنه أقل منها في المستوى الاجتماعي.

أكرم سيتزوج من تختارها والدته. وهي ستتزوج من يقبلها كما هي.

لن تتزوج مصرياً كما فعلت والدتها.

وفي الصلاة وجد منير نفسه مع رانيا وحدهما. أخرج من جيبه علبة بلاستيكية بها حبوب ما فابتلع إحداها دون ماء. سألته رانيا عن هذه الحبوب. وهل هي فياجرا؟ فهز رأسه نافيةً وأخبرها أنها دواء يستخدم لمرضى الصرع ولكنه «يعمل دماغ بنت حرام» على حد قوله.

اشمأزت رانيا بشدة من أن يقترب منها منير بعد أن رأته الآن مجرد شاب مبرشم قد انتهى كوكائينه فلم يعد له لزوم. نظرت له بقرف فلم يعبا واقترب منها وهو يلعن سوق العبور وتلك الفتاة القبيحة التي رآها أول يوم في الكلية. اقترب منها وهو يتمنى أن تراه باسمين الآن لتعرف أنه قد ضاجعها مضطراً كما يضطر المؤمن لأكل الميتة في الصحراء الجرداء التي لا حشيش فيها ولا نساء. وحين يعود لشريف سيخبره بأنها قد صارحته بأنه قد أمتعها أكثر منه. سيصف له علامات جسدها المميزة وأصواتها وحركاتها. ومن يدري ربما استطاع يوماً ما أن يضاجع سلمى التي حاول معها مرة في المكتبة وهو مخمور ولكنها صفعته. سيرد لها الصفعة.

اليوم سيضم صديقة شريف السابقة إلى ملفات البورنو الخاص به، ويوماً ما سيضم أخت شريف وأمه وكل نساء العمارة وسيضاجعهن في المنور وسط القمامة، وسيكون هو فوق القمة، وحين يفرغ منهن سيقف بقدميه فوق تلال لحمهن العاري المنهك من فحولته المسجى على القاذورات. ستصعد فتران المنور فوق النساء ومنها إلى جسد منير الواقف شامخاً ناظراً إلى السماء. سيقوم هو بقذف الفتران الصاعدة على كل الشبايك لتسكن المنازل ويجيا كل من عاير والدته بهروب أبيه وكل من وقف مع منصور ضده في مكانه الطبيعي، في المنور.

ابتعدت رانيا وقد بدأت تخاف من منير الذي جحظت عيناه ولمع فيهما بريق مخيف وهو يهز رأسه وبتسهم ابتسامة مخيفة. فجأة انقض عليها وكأنه ممثل في فيلم بورنو ألماني رخيص في السبعينيات.

لم تدر رانيا بنفسها إلا وهي تصرخ وتصفعه وتسبه بأقذع الألفاظ وقامت هي تقذفه بطفاية السجائر. نزل أكرم من الغرفة وهو عاري الجذع ومن خلفه شيري بملابسها الداخلية وفي أقل من خمس دقائق كان أكرم قد تمكن من السيطرة على منير وما هي إلا ربع ساعة حتى اقتاده ثلاثة رجال من أمن القرية السياحية خارج الأسوار ليقف وحده يسب الجميع في الظلام. شهر أحد رجال الأمن مسدسه فابتعد منير إلى منتصف الطريق السريع المقابل للقرية فأطلقت إحدى السيارات نفيها فعب منير إلى الناحية الأخرى ليقف فوق الجزيرة الوسطى. قام وهو ممسك بطوبة ليقذفها على السيارة التي كانت قد ابتعدت.

أمسك بطوبة وهو ينظر يميناً ويساراً وهو يلهث من فرط الانفعال. جلس على جانب الطريق ليتوسد يديه وينام.

- 17 -

في فيلا الشيخ نشأت بالتجمع الخامس يلتقي المتخاصمون والأعداء والمتنافسون والمنفسنون من بعضهم البعض تحت سقف واحد دون أن يسمحوا لخلافهم واختلافهم أن يعكروا صفو هذا اللقاء. تجدد مساعداً لوزير الداخلية يجلس بجوار أحد أقطاب جماعة الإخوان المسلمين ورجال

الحزب الوطني بجوار ممثلي المعارضة أو من يمثلون أنهم معارضة والجميع يصغون إلى حديث الشيخ نشأت العذب الذي تتخلله الضحكات الصافية والقفشات اللاذعة التي تفجر الضحكات الصافية.

لم تأت شهرة الرجل من فراغ، فلقد عرف عنه أنه لم يبارك صفقة أو تجارة من قبل إلا وربح صاحبها من ورائها المال الوفير ولم يغامر أحدهم بعدم الاستماع لنصائحه إلا وخسر ماله وبارت بضاعته. ولهذا لا يجروء أحد من مريدي الشيخ على اتخاذ قرار هام في العمل وفي حياته الشخصية أو حياة أبنائه إلا ويطلب المشورة ومباركة القرار. هكذا يقولون وهكذا يؤمنون.

ستسمع همسات وكلمات متناثرة هنا وهناك عن عشرات المسيحيين واليهود الذين أسلموا بين يديه حتى إن رجل اقتصاد مسيحيًا معروفًا قد توقف عن حضور صالون الشيخ نشأت بعد أن وصله أن كبار رجال الكنيسة يغضبهم هذا التقارب مع شيخ يقال إنه يمول عصابات لاختطاف الشابات المسيحيات في الصعيد وإجبارهن على الإسلام. ورغم أن رجل الأعمال المسيحي كان واثقًا كل الثقة أن هذه إشاعات مغرضة أطلقها بعض الشيوخ المنافسين للشيخ نشأت في المجال الإعلامي فإنه أثر السلامة وابتعد عن الشيخ ولكنه قام بإرسال مدير مكتبه المسلم حتى لا يفوته أي من القرارات الاقتصادية الهامة والتي تؤخذ في هذا المجلس المبارك.

لم تأت أميمة وحدها هذه المرة بل أحضرت معها حفيدتها شبه المراهقة وهي تضع لها (إيشارب) حول رأسها. عبثًا حاولت أميمة إقناع الشيخ بالعدول عن فكرة نقلها من المدرسة الخاصة التي ألحقها بها والدها إلى المدرسة الأمريكية

الإسلامية الجديدة والتي يشارك فيها الشيخ نشأت أحد أقطاب جماعة الإخوان المسلمين. بابتسامة صافية واضحة قصيرة قال لها الشيخ نشأت:

- يا حاجة أميمة، البنت كبرت وبلغت الحيض خلاص... الباشمهندس مجدي عنده مدرسة إسلامية وأمريكان كمان.. بتدرس كتاب الله وشرعه ومدرسين أجنب. يعني دنيا ودين... نقوم نسيب بناتنا المسلمة يتعلموا عند النصارى... مش مدير المدرسة نصرائي؟ طب ليه؟

ابتسم مجدي رجل الأعمال الشاب ذو اللحية الخفيفة قائلاً وهو يضحك ضحكة خفيفة:

- يا شيخ نشأت، سيهم على راحتهم.. يمكن البنت بتحب مدرستها. رأى نشأت بخبرته قلق أميمة من مصاريف هذه المدرسة الجديدة فرشف رشفة من كوب الشاي الأخضر قائلاً:

- ما تقلقيش من المصاريف، هي أعلى شوية من مصاريف مدرستها دي بس عندهم ملاعب وحمام سباحة طبعاً مش مختلط..

- يا شيخ نشأت ما انت عارف أبوها طلعتها من مدرستها الإسلامية القديمة لما لقاهم بيربطوا إيد البنت الشمال وراضهرها علشان تكتب باليمين؟ - المهندس مجدي نفسه أشول.. وبعدين ده كان تصرف منحرف متشدد من مدرستها مش معنى كده أن المدارس الإسلامية كلها كتبت.

سألته أميمة: هل كل المدرسين الأجانب مسلمون؟ ساد الصمت للحظات في المجلس فقال مجدي إنهم أجنب بل إن بعضهم بلا دين. فسألت

أميمة عما إذا كان هذا أفضل من وضعها في المدرسة الخاصة الحالية. تدخل نشأت قائلاً:

- المهّم الإدارة إيه يا حاجة أميمة؟ وبعدين لو مش عايضة ماحدث هيغصبك.. دي الناس بتجيب لنا وسايط من وزراء.. أنا عايز اخدمك.

اقترب رجل الأعمال من أميمة وهو يقدم لها «كارتة» الخاص ويطمئنها أنه لن يزيد عليها المصاريف حتى تنهي حفيدتها المرحلة الثانوية.

لم تشأ أن تستمر في حوار مدرسة الفتيات أكثر من هذا ففاتحت الشيخ في موضوع العمارة وما يحدث فيها وعن رغبتها في أن تتنازل عن الشقة. إلا أن الشيخ نشأت كان حاسماً جازماً وهو يقول:

- مال اليتامي ده نار في جوف الواحد والعياذ بالله، هو عارض كام؟

- هو لسه ماعرضش.. بس الشقة تساوي ربع مليون أو تلتمية ألف جنيه.. ده من بق كذا سمسار.

- قولاً واحداً يا حاجة أميمة.. قولي له مايش بيع.

شكت في أن رفض الشيخ نشأت لأن تتنازل لشريف عن الشقة كان رد فعل لعدم حماسها لإلحاق البنيتين بالمدرسة. فقررت أن تساومه هي أيضاً ولكن برسالة تفهم من بين السطور. مباركة التنازل مقابل نقل الفتاتين إلى المدرسة، فقالت لنشأت:

- ما أنا لو اتنازلت يا شيخنا ممكن بالفلوس دي ادخل البنات المدرسة الأمريكاني.

بغضب هادئ للغاية وبوجه بشوش نظر نشأت لمن حوله قائلاً بمزاح هو أقرب إلى العتاب إن الحاجة أميمة تساومه. فضحك الجميع ولكن الرسالة وإن كانت هادئة فقد وصلت إلى هدفها. حتى لو كان هناك مجال للتراجع من قبل الشيخ نشأت فبعد جملته الأخيرة حسم الأمر. لن يوافق نشأت على مباركة بيع أميمة للشقة وهي لن تغامر بالخروج عن طوعه.

- 18 -

كادت باروكة منصور أن تقتلع من جذورها وهو يغادر مبنى ماسبيرو من شدة الرياح. أوقف سيارة أجرة وطلب من السائق أن يتجه إلى مدينة نصر. كم يكره التاكسيات ولكن السيارة والتي سقط فوقها فوتيل الصالون ستكلفه مبلغاً كبيراً وهو يريد تجنب مثل هذه المصاريف الآن.

كل المشاريع ستؤجل حتى يتم حفل زفافه من منال مشروعه الأكبر.. لم يتوقف التاكسي أمام منزله بل أمام المقهى القريب منه. وما إن دلف إلى الداخل حتى وجد فتاة مراهقة تعاني سوء تغذية واضحاً في انتظاره. جلس أمامها وحياها وطلب لنفسه قدحاً من القهوة أما الفتاة فطلبت زجاجة من مياه غازية. مال عليها وهو يعطيها ظرفاً أبيض قائلاً:

- أنا بشكرك جداً.. بس للأسف مش هينفع نكمل.

- إيه ده يا أستاذ منصور؟

- دي حاجة بسيطة.

- والله يا أستاذ منصور ربنا يعلم أنا زعلانة قد إيه.
- معلش كل حاجة بتتغير.. وبعدين احنا لازم ناخذ بالناس وإلا منال
هتتعرف.

أخذت الفتاة المظروف وهي تنظر حولها بتوتر قائلة:
- والله يا أستاذ أنا ما بعمل كده علشان خاطر الفلوس.
- حطي الظرف في شنطتك والحقي المواصلات يا بنتي.
وضعت الفتاة الظرف ووقفت بقامتها الضئيلة وماكياجها الرخيص
ونظارتها الشمسية البلاستيكية قائلة لمنصور:

- إنت أجدع رجل في الدنيا ويا ريت كل الرجالة يقوا زيك.
وتركت منصور وحده يرشف من القهوة ويشير للجرسون أن يأخأ.
زجاجة المياه الغازية بعيدًا عنه وكأنه يخشى أن يُرى في صحبتها. لم تكن هذه
الفتاة أو غيرها من عشيقاته أو إحدى العاهرات الصغيرات كما يشاع عنه.
فمنصور لم يقرب إلا زوجته ومنال.

كل ما في الأمر أنه بعد عدة سنوات من زواجه عصفت بمنال موجة
اكتئاب حادة لعدم وجود متصلين ببرنامجها. لمح لها مدير المحطة أنه يفكر في
إلغاء البرنامج الذي يعتبر كل حياتها.

تفتق ذهن منصور عن فكرة لإسعاد حبييته فقام بطلب المعونة من ابنة
أحد الفراشين بإسبירו. كانت مهمة الفتاة ببساطة أن تتصل بمنال وتحكي
لها قصة عاطفية وهمية وتطلب منها الحل. ومع مرور الوقت استعانت الفتاة

بصديقات أخريات وأصدقاء لها ليقوموا بالاتصال ببرنامج منال التي عادت مشرفة كما عهدتها فلم يبلغ البرنامج.

بعد أن توفيت زوجته اقترح عليها الزواج ولكن دون حفل زفاف لم تعارضه ولكنه لمح في عينيها الأسى وسألته هل كبرا في السن إلى هذا الحد.

اليوم هو يمتلك مبلغاً يمكنه من إقامة حفل الزفاف وشهر العسل ويأتي بالفستان الذي وعد به حبيبته. طلب منها أن تعزل العمل الإذاعي وأن تنفرغ له فوافقت أخيراً، والليلة كانت آخر حلقة. اتصلت بها تلك الفتاة وهي في حالة حزن حقيقية. بكت منال وشعرت بالرضا عن حلقة اعتزالها وأهداها مهندس الصوت الحلقة مسجلة على شريط كاسيت هدية منه ومن كل العاملين بالهندسة الإذاعية في حفل صغير للغاية، حضره مهندس الصوت وفراش الاستوديو وموظفة إدارية وقاموا بالتهايم أربع قطع جاتوه مع بعض الذكريات والتقطوا صورة باهتة بموبايل رخيص.

لم يمارس منال ومنصور الجنس الليلة في الغرفة إياها بالفندق إياه في الدور إياه رغم أنها الليلة سيبيتان معاً. انهمك منصور في تسجيل وكتابة المدعوين إلى حفل الزفاف. أخرج فكرة تليفونات كبيرة ذات لون زيتي بهتان وقد أخذ يعلم ويكتب الأسماء على ورقة فولوسكاب، شبك فيها ورقة أخرى وبينهما ورق كاربون ليقوم بعمل نسختين. لم تشأ منال أن تزعجه وهي تشاهد الفرح الذي انتظره لسنوات وقد اقترب موعده.

كم تحبه منال! فهو رجل نادر في هذا الزمان يهتم بأدق التفاصيل. تشعر وهي معه بأنها تستطيع أن تترك نفسها تماماً. لقد اهتم منصور بكل تفاصيل

الفرح من حجز القاعة واختيار الأغاني للدي جي حتى أنه منذ ساعتين فا عقد اجتماعاً عاجلاً بالطباخين في الفندق الخمس نجوم معطياً إياهم تعليماته بطرق طهى الديك والفخذ الضانية ودرجة التسوية المطلوبة.

رأته وهو يدس مبلغاً مالياً في جيب كبير الطباخين وهو يوصيه بأن يقوم بنقع الديك في زجاجة نبيذ أحمر فرنسي قد أحضرها خصيصاً من باريس منذ عشر سنوات حين دعاه حموه هو وزوجته لمؤتمر ما عن الإعلام على حساب الدولة.

نفث منصور دخان سيجارته وهو يعد المدعوين للمرة الثالثة ويتصل بقاعة الأفراح ليلبغهم أن العدد قد زاد عشرين فرداً آخرين. لم يكتفِ منصور بكتابة اسم المدعوين وأرقام تليفوناتهم بل ورسم خريطة لجلوس كل مدعو طبقاً لأهميته الاجتماعية.

دعا منصور وزير الإعلام أنس الفقي ووزير الإعلام الأسبق صفوت الشريف وكبار رجال الدولة الحاليين ومديري المحطات الفضائية الحاليين كأحمد بهجت ونجيب ساويرس وإيهاب طلعت. وكذلك دعا الإعلاميين المشهورين مثل منى الشاذلى ومحمود سعد وعمرو أديب ولميس الحديدي وكبار رجال السياسة كالسيد البدوي رئيس حزب الوفد.

لم تعبأ منال كثيراً ولم ترد التدخل فهي لم تدعُ سوى والدتها وعمتها وبعض العاملين بالاستوديو، وبحسبة بسيطة وجدت منال أن المدعوين من ناحيتها لن يتعدوا عشرة أشخاص فقط، بينما المدعوون من ناحية عريسها قد تجاوزوا المائتي مدعو. سألتها منال عن مائدة أخواته وأولاده فلم يجب. عاودت السؤال ظناً منها أنه لم يسمعها، إلا أنه قال إنه لن يدعوهم.

- ليه يا منصور؟

لم يجبرها بالطبع عمًا حدث بينه وبينهم فاكتفى بقوله إنهم لا يوافقون على أن يتزوج بعد زوجته. لم تقتنع منال بالطبع بهذا الرد ولكنها لم تشأ أن تجادله فأتجهت إلى الشلاجة لتخرج منها زجاجة مياه غازية وفتحت التلفاز على برنامج منى الشاذلي «العاشرة مساءً». جرعت من الزجاجة وهي تتحدث إلى منصور دون أن تنظر إليه:

- هي منى مابتغيرش تسريحة شعرها ليه؟ إنت عارف بتاخذ كام؟

فوجئت بمنصور يمسك بزجاجة المياه الغازية ويتجه إلى الحمام ليسكب ما في الزجاجة في الحوض وهو يقول بلهجة أمرة:

- الفستان يادوبك داخل فيكي، الإزارة دي فيها على الأقل سبع معالق سكر، صورة فستانك هتملى مجالات مابيقرهاش غير ستات هيفلوا كل حته فيكي، بمناسبة منى الشاذلي، هي ليها جمهور كبير وناس كتير بتحبها مش عايزك تعاملليها وحش في الفرح، يمكن اروح عندهم دريم. على فكرة أنا عزمت بثينة كامل، بلاش البصات اللي من تحت دي.

سمعت منال كثيرًا عن العرائس اللاتي يصبن بهستيريا قبل موعد حفل زفافهن. سمعت عن أصابها الاكتئاب بسبب وزنها الزائد، هناك من صرخت في مهندسة الديكور بسبب لون الورد ولكنها لم تسمع أبدًا عن رجل يصاب بكل ما سبق.

وفي اليوم التالي، أي قبل موعد حفل الزفاف بيوم، بات منصور في القاعة ليشرف بنفسه على الزهور ونقحها زهرة زهرة بمعنى الكلمة.

ذاق من كل أطباق السلطات وتأكد من التسييلة التي سببت فيها الديك والخروف واطمأن عليهما وكأتهما من ضمن أولاده. تسبب في أن يسهر الجارسونات وهو يعطيهم التعليمات بكيفية معاملة كبار الزوار وبدأ في تدريبهم على كل السيناريوهات المحتملة والطوارئ كأن يحضر وزيران في نفس الوقت وكيفية أن يشعروا كل وزير منهما بأنه الأهم وأنه حظي بمعاملة خاصة جداً وأفضل من الوزير الآخر.

صعد بعدها لينام سويعات قليلة في غرفة أخرى قبل أن يستيقظ ليذهب بعدها بنفسه لإحضار الكوافير والماكير لمنال وحلاقه الخاص، ومن شدة تعبها نام والرجل يخلق ذقنه ويعد له باروكته ويصبغ فوديه باللون الكستنائي ليتناسب مع لون الشعر المستعار.

وقبل موعد الزفاف بنصف ساعة اضطر منصور لأخذ مهدئ عندما اتصلت به منال طالبة منه أن يصعد إلى غرفتها. دار في عقله ألف مصيبة من الممكن أن تكون قد حدثت لها. تخيل الفضيحة لو حدث لها مكروه أمام المدعوين الذين سيبدءون في الوصول خلال دقائق.

أسئلة كثيرة طنت في رأسه. هل ستنهار وتهرب؟ هل حدث مكروه للفيستان. هل احترق شعرها بمكواة الكوافير؟

عندما صعد إلى غرفتها استقبلته حماته ذات الاثنتين والسبعين عامًا بزغردة كادت تصيها بذبحة صدرية. دخل منصور ليجد منال وقد ارتدت فيستان فرحها وجلست على ذراع فوتيل وقد فرشت ذيل فيستانها حولها في لحظة انتظرتها منذ عقود مضت.

تأملها منصور قائلاً:

- خضيتيني، مبروك.. زبي القمر يا حبيبي.. نص ساعة وهاجي اخذك
علشان الزفة.

خرَج منصور من الغرفة تاركًا منال ترمم ماكياها بعد أن تساقطت
دموعها وفسدت اللحظة التي انتظرها كثيرًا. هونت عليها أمها الأمر قائلة
إنه مرتبك وأن رجلاً مثله لا يعرف كيف يكون رومانسيًا لأنه جاد وملتزم.
وبدأت الزفة. وعلى أعلى السلم أعطى منصور ذراعه لتتأبطها شريكة
حياته الجديدة. الشريكة جديدة وكذلك حياته القادمة. شعرت منال
بنبضات قلبه. خفق قلب منال وأشارت لأمها التي مشت خلفها وقد
أمسكت بذيل الفستان. همس أحد العاملين بالفندق في أذن منصور بكلمات
جعلت ضغط دمه يرتفع وهو يصيح:

- مش ممكن.. اللي بتقوله ده تهريج!

أشار منصور بعصبية إلى العازفين فتوقفوا عن العزف. حاولت منال
أن تستفسر عما حدث، فتركها وهو يهرول لأسفل السلم ليجد أن القاعة
خاوية على عروشها. وما إن اقتحم منصور القاعة حتى قام الربي جي بلعب
الموسيقى المتفق عليها فصرخ فيه منصور أن يتوقف.

حضر إليه مسئول القاعة فسبه منصور وهو يلعنه ويلعن مواعيد الناس
وعدم الانضباط. جلس منصور على الكوشة وحده وبعد قليل حضرت
منال ووالدتها لتجلسا وحدهما في القاعة منتظرتين حضور المدعوين. ولم
يحضر أحد حفل الزفاف حتى لحظة كتابة هذه السطور.

- 19 -

عندما خرجت عزيزة من المستشفى رفضت أن تبيت في الشقة رقم سبعة وأصرت على المبيت في حجرتها بالبدروم. رفضت كل محاولات لوتو والأحفاد لإثنائها عن قرارها. أخبرته بأن فاطمة لم تجعلهم يبيتون في الشقة من أجل سواد عيونهم بل من أجل أن تضع شريف أمام الأمر الواقع وأنها متأكدة من أنها ستقوم بحيلة قانونية ما للاستيلاء عليها. حذرتة من أن يحترق هو أيضًا بطموح زوجته والتي ستكون نهايتها حزينته.

هنا دخلت فاطمة إلى الغرفة وبيطء قالت لعزيزة إنها لم تسرق شيئاً. السرقة هي مخالفة القانون وهي الآن القانون نفسه. تحاملت عزيزة على نفسها وهي تتأمل ملابس فاطمة الجديدة بعد أن تركت العباية وارتدت البلوزات والتاثيرات الرخيصة. قالت عزيزة لزوجها إنها إن من ينظر إلى فوق يتعب. تنهدت فاطمة وجلست بجوار حماها وقبلت رأسها في حركة أدهشت عزيزة وابنها وقالت:

- يا اما عزيزة... احنا لو مابصيناش لفوق ننداس.. كتتي عايزاني أعمل إيه؟ بلاش أدخل بنت ابنك مدرسة غالية؟ أسيبها تشحت في الإشارات؟ هو ده العقل يا اما عزيزة؟

- ما انتي شحتي عليها يا مرات ابني.. مش قعدتي تتصعبني على البنت لحد ما الست نجوى إدتِك مفتاح شقة سبعة اللي انتي نجستها.

- يعني انتي يرضيكي أرجع البت فاطمة الشغالة اللي كانت بتجييها
لست نجوى تغسلها؟ هو ده اللي يرضيكي؟ ابنك دلوقتي بقى ساكن في آخر
دور ومعايا عقد شقة مضت لي عليه ست نجوى وعداد كهرباء للبدروم..
عايزة مني أعمل إيه ثاني؟ ولو أنا نجسة.. وافقتي ليه تتعالجي في المستشفى
بعد ما اتوسطت لك؟ حفيدتك بتكلم إنجليزي.. وابنك بقى له قيمة
وعيالي بقم ساكنين وياكلوا ويصرفوا ويلبسوا قدام صحابهم وانتي الحمد
له قمتي لنا بالسلامة. وبكرة هبقى في مجلس الشورى.. أعمل إيه علشان
برضيكي؟ من غيري كان الحال هيبقى إيه؟

ساد الصمت للحظات وكأن جدران البدروم تحاول استيعاب ما قيل.
نظرت عزيزة إلى فاطمة وأشارت لابنها الفاغر فاه ببلاهة قائلة:

- لو من غيرك.. الواد ده كان زمانه أسطى سباك قد الدنيا واشترى لنا
العمارة كلها ودخلني مستشفى خمس نجوم يا بنت بياعة الجبنة.

لم ترد فاطمة وغادرت البدروم وهي تقسم أنها لن تعود إليه مرة أخرى.
وفي اليوم التالي حضرت فاطمة أول اجتماع لها كمرشحة للحزب وجلست
بجوار المرشحين الآخرين. لا يمكن اعتبارهم بطبيعة الحال من مرشحي
الصف الأول للحزب ولكن يكفيها أنها الآن تضع اللبنة الأولى لعالمها الجديد.
دار حديث باهت محايد كلمبات نيون ممرات الحزب. حديث تتناثر فيه
كلمات عن حماية محدوددي الدخل ومحاولات الحزب لوصول الدعم إلى
مستحققيه. وبعد أن انتهى الاجتماع انفردت بالباشا لتسأله عن منافستها في
الدايرة بعد أن علمت أنها أخت زوج شانتيل.

- الست دي عارفة إن أخوها متجوز ولية بطالة؟

- إوعي يا فاطمة تقولي كده على حد من المنافسين.

- بس يا باشا، البلد كلها عارفة مين شانتيل.

- اسمعي الكلام.. أنا ماسمحش بالدعاية السلبية.

- يعني إيه يا باشا دعاية سلبية؟

- يعني تقولي انتي كويسة في إيه، لكن اوعي تطلعي تشنعي على أخو

المنافسة بتاعتك.. قولي انتي كويسة في إيه، الحزب هنا أخلاق في الأول والآخر.

- بتتعلم منك يا باشا.

- جهزي نفسك علشان بعد أسبوع هيبقى أول مؤتمر جماهيري ليكي.. انتي

مش غريبة طبعًا عن جو المؤتمرات.. بس المرة دي أول مرة ليكي فوق المنصة.

تركته فاطمة ومشت بين الممرات ولم تشرب القهوة كعادتها في المطبخ

تأتنس بكلام صغار الموظفين. لم يكن لديها مكتب تطلب من أحد السعاة

ليأتيها بالقهوة إلى هناك. استغلت غياب أحد الموظفين وجلست على مكتبه

وطلبت نمرة البوفيه وسمعت الجرس وهو يرن وهي تتخيل التليفون

الأبيض البلاستيكي هناك والذي كانت تردهي عليه أحيانًا حتى وقت

قريب. أتاها صوت كبير الفراشين فلم تجرؤ على طلب شيء وأنها المكاملة

الداخلية سريعًا وغادرت المبنى.

في نفس الوقت رن جرس أحد تليفونات الباشا المحمولة بنمرة سريه.

فاندعش لأن هذه النمرة لا يعرفها إلا أقرب المقربين. بصوت حذر هادئ

رد الباشا قائلاً:

- آلو.

- مساء الخير يا باشا أرجو إني أكون ما أزعجتش حضرتك، أنا بس كنت باطمئن على المكواة.. يا ترى وصلت البيت؟

أنهى الرجل على الجانب الآخر المكالمة دون أن ينتظر أي رد. اندفع الباشا خارج المبنى ومنه إلى منزله وهو يفكر في معنى الرسالة التي وصلته. استقبلته زوجته بدهشة لعودته مبكراً على غير عادته لكنه كان واجماً متوتراً. نادى الباشا على كل الخدم بصوت هادر، فهرول الجميع ليسألهم الباشا عن المكواة. نظر الخدم إلى بعضهم البعض بدهشة وحاولت زوجته أن تستفسر منه عما يقصد، فكرر سؤاله بغضب هذه المرة. هنا ارتعشت إحدى الخاديات وهي تشير للدور الأعلى.

صعد الباشا إلى أعلى وهو يلهث، دخل إلى غرفته وفتح الدولاب فقلبه رأساً على عقب حتى رأى شماعة معلقة داخلها ملابس ومغلقة في كيس كبير غير شفاف. مزق الكيس ولحقته زوجته وهي تسأله عما حدث فلم يرد عليها. فتح الكيس ليجد بداخله ما يشبه بدلة الإعدام حمراء اللون وجلاية أنيقة للغاية. فتش الملابس ليجد صورة لجثة الصحفي المختفي وهي مدفونة بجوار شجرة الليمون وقد تعمد المصور أن يظهر الحديقة كلها ليتأكد الباشا أنها حديقة فيلته الأخرى والتي يجب أن يسهر فيها. قلب الصورة ليجد مكتوباً عليها بخط أنيق للغاية «استقيل والبس الجلاية وإلا تهلبس البدلة الحمراء».

- 20 -

تحت إلهام شريف وافق سامي أخيراً على إقراض ابنه مبلغاً من المال ليعتاد به سيارة بعد أن قال له إنه سيخصم ثمنها من عمولته حال انتهائه من تسليم العمارة بلا سكان.

لقد تغيرت المعاملة كثيراً بين سامي وشريف الجالس الآن في حديقة فيله بالتجمع الخامس وبجوارهما نوال وهدي. اندهش شريف في بادئ الأمر من هذا التغير في المعاملة ولكن سامي فطن ربما متأخراً إلى أن هذه الطريقة أفضل حاولت نوال أن تدير دفة الحديث بعيداً عن أحوال العمارة بينما سألت جدته عما حدث مع منصور جاد الله وقالت إنها تشعر بأن ما حكته لها لبني في التليفون كان به بعض المبالغة. ابتسم شريف وهو يخبرها عن شجاره مع أخواته وهروبه بالنقود ونصبه عليهن وكيف تطور الأمر لقذف الأثاث من النافذة وهروله في الشارع بلا باروكة.

ضحكت هدي وقد راق لها ما سمعت، فهي تمقت منصور الذي لا تزال تراه السبب في وفاة ابنها. أما نوال الرقيقة فلم تتحمل أن تتم إهانة الرجل بهذا الشكل وفي سنه هذه. أما سامي صديق منصور القديم فلم يخف استياءه مما فعله أخواته به. ابتسم شريف وهو يسأل كيف يحترم رجلاً وهو يعلم أنه لص. قال سامي:

- يا ابني ولا كنت بحترمه ولا حاجة.. ده خلاص راحت عليه.. ساعتها كان بينفعنا.

- ده سرق ورث أخواته.

ابتسم سامي وهو يقول إن بعض العائلات يحدث بها هذا الأمر. وصلت رسالته كاملة مكتملة إلى هدى ونوال. ابتسم سامي وقد راق له ما قاله ونظرت له نوال نظرة لائمة، فمن غير اللائق أبدًا من وجهة نظرها أن يلمح إلى ما حدث من نجوى كما أنه بهذه الطريقة يبينها ويبين والدتها. ساد صمت كئيب بينهم وكادت هدى أن تقوم وتطلب من حفيدها أن يعيدها إلى شقتها حتى قرر شريف أخيرًا أن يفجر المفاجأة وقال:

- أنا عايز اتجوز سلمى.

اتسعت ابتسامة هدى وقامت من مكانها وهي تربت على وجنتي حفيدها وتهنئه بينما صممت نوال كعادتها حتى ترى رد فعل سامي وكأن الأخير هو من يملي عليها كل ردود أفعالها حتى مشاعرها الخاصة.

لثوان لم يستوعب سامي ما قاله ابنه فسأله إن كان يقصد سلمى «بياعة المكتبة» فأوماً شريف برأسه موافقًا. اندفعت الدماء في وجه سامي وهو بصرخ قائلاً إنه يتمني أن تكون هذه دعابة سمجة وسأل ابنه مستنكرًا: هل بتزوج ابن الدكتور سامي المنياوي فتاة متواضعة. ضحكت هدى ضحكة قصيرة وهو تنظر إلى سامي ودون أن تتحدث وصلت رسالتها هي أيضًا إليه، فسامي حين تقدم لخطبة نوال قيل له من نجوى كلام يحمل نفس المعنى. حدج سامي هدى بنظرة حادة وتوترت نوال التي تخشى المواجهات بطبعها. قال سامي:

- بس الزمن غير الزمن.. وأنا ماكتتش طمعان في بنتك.

انتفض سامي من مكانه ونوال تحاول أن تهذبه. أما هدى فغمرها شعور بالارتياح حين وجدت أن حفيدها لم يقع تمامًا تحت تأثير تربية والده الذي تراه رجلاً انتهازيًا تثق تمام الثقة أنه قد اتفق مع نجوى على عدم الوقوف مع سعيد ابنها مقابل الوظيفة التي توسطت له كي يحصل عليها. كان شعورها غريبًا خاصة أنها تلوم زوج ابنها على عدم مساندته لابنها ضدها هي شخصيًا. اليوم هي فرحة بحفيدها الذي شرب من أخلاقيات عاتاة عز الدين أكثر مما نهل من مستنقع عائلة المنياوي. ابتسم شريف بهدوء قائلاً:

- مش يمكن أنا اللي طمعان فيها يا بابا؟ عايزها تتنازل ببلاش؟ واضرب الربع مليون بتوع التنازل وافتح لي مخزن أدوية أحرق فيه بضاعة.

- إنت هيقى عندك أكبر أجزخانة تحت العمارة.

- تحت هيقى نصه صيدلية ونصه مكتبة.

تدخلت هدى قائلة بهدوء وهي ترشف قهوتها:

- طب خدو رأيي طيب.. أو استنوا لما أموت وخدو رأي بنتي الهبلة دي

انتحى به الأب جانبًا بعيدًا عن السيدتين وأمسكه من ذراعه. هده سامي أنه يستطيع أن يرميه في الشارع مرة أخرى. فيما سبق كان سيجن جنون شريف ويهدد ويتوعد ويغادر الفيلا وهو لا ينوي فعل أي شيء. أما الآن فهو يزن الأمور جيدًا وقد تعلم أن يعلم مفاتيح كل شخصية والأهم أن يستوعب مكانها في ميزان القوى الذي يتبدل كل يوم وكل ساعة.

قال:

- بابا، إنت رمتني في الشارع فعلاً.. وماصالحتيش إلا لما عرفت إن فيه
مهلحة.

- إنت بتقول إيه يا زفت؟

- بقول لحضرتك تعالى نتكلم بالراحة... دلوقتي أنا قاعد في بيت تيتا
وعندي ثلاث شقق فاضية يعني مش هقعد في الشارع.. لو على الفلوس اللي
نديهاني أنا ممكن بكرة بالتوكيل اللي عملتهولي ماما وتيتا أبيع لي شقة ولا
انين تمليك ولا حتى أأجرهم وأعيش بفلوسهم ومش لازم نهد العمارة.
إنت بقى عايزني أكمل في المشروع ده لمصلحتك ولا لأ؟

- مش عايزك تكمل.. وكنت ناوي أديك عربية ومش هديهالك.

- بصراحة حقك.... بص يا بابا.. مش عايز تديني فلوس أو عربية ده
حقك تمامًا. أنا مش عيل ومفروض أجيب الحاجات دي لنفسى.... بس انت
دفعت ربع مليون في شقة منصور جاد الله وخمسة وعشرين ألف لميشيل المحامي
ده غير مصاريف تانية.. يعني لو مش عايزني أكمل.. تبقى خسرت فلوسك..
أو تعتبر الشقة دي هدية لتيتا وماما.. هي ماما تستحق يا بابا بصراحة.

بهت سامي للحظات ولم يدر هل يغضب من طريقة كلام ابنه معه أم
يفرح لأنه أخيراً قد نضج وخبر الحياة وصار حديثه كالرجال المترنين. هز
رأسه ومن جيب بنطلون الترينج التسعيناتي الذي يرتديه أعطى شريف
مفتاح سيارة صغيراً ابتاعها له وابتسم وهو يحتضنه. قال له شريف بعد أن
شكره:

- على فكرة سلمى بنت كويسة يا بابا.

- يا ابني..منصور جاد الله قال إنها كانت ماشية مع ابن البواب.
- مش انت لسه قايل إنه رجل حرامي؟ هتسمع كلام نصاب يسرق أخواته؟
- سيك من منصور..إنت ترضى يا شريف تشرب من مطرح ابن البواب؟

- 21 -

دخلت سلمى إلى منزلها بإمابة الذي لا تعتبره بيتها حيث تقوم بغسل ملابسها والاستحمام والطبخ، ويزيد على أسباب الزيارة اليوم وضع عقود المكتبة في أمان بعيداً عن متناول شريف من منطلق أنها محرص ولا تخون.

وبعد أن استحمت نامت على سرير مازالت رائحة والديها عالقة به. تأملت نشع المياه على الحائط وتذكرت تلك اللعبة التي كانت تلعبها مع والدتها قديماً. كانت تتخيل النشع تارة بطه وتارة تيناً وتبدأ هي في سرد حكايات لوالدتها عنه. كانت مدمنة للقراءة ربما لأنها قد كبرت وهي ترى جدها يبيع الكتب.

وفي حوالي الساعة السابعة مساءً استيقظت فزعة على صوت طرقات عفيفة على الباب. قامت من النوم واندفعت ناحية الباب دون أن تتعل الشبشب أو حتى «روب» وفتحت لتجد مرزوق ومعه مصطفى ذلك الرجل الذي كان معه في المكتبة، فصرخت محاولة إغلاق الباب إلا أن يد مرزوق حالت دون أن تفعل ذلك.

اتجهت إلى البوفيه وأمسكت بشمعدان نحاسي قديم مهددة مرزوق بأنها ستقتله إن حاول الاقتراب منها إلا أن الأخير لدهشتها لم يحاول اقتحام المنزل بل اكتفى بالضحك بصوت عالٍ هو ورفيقه.

فُتحت الأبواب وتجمّع الجيران على صوت الصرخات والضحكات كما تنجم الحشرات على القمامة. قال مرزوق محدثًا للجمع:

- إيه يا جدعان اللمة دي؟ عاجباكي الفضايح يا بنت عمي.. أقول طيب؟

- تقول إيه يا كلب؟

بدأ الجيران في الدخول إلى منزلها كما تدخل الأبراص والقوارض من شبابيك الحمامات صيفًا. كانت سلمى خائفة ولم يزددها وصول الجيران إلا ارتجافًا. خطب مرزوق في الجمع المتعطش للفضايح والمشتاق للنميمة وهو لا يزال خارج المنزل:

- طب أنا هاشهد الناس الطيبين دول.. يا جدعان أنا مرزوق ابن عمها وعرضت عليها الجواز وقلت ألم الفضيحة في بيتها واسترها.. هي مش عايزة.

- إنت بتقول إيه يا وسخ؟

اقترب منه رجل أصلع يرتدي جلبابًا أمرًا إياه بأن يصمت صارخًا بأن سلمى فتاة شريفة وهو الذي قدرها ويعرفها جيدًا. علا صوت إحدى الجارات مطالبة الرجل أن يترك ابن عمها يتحدث حتى يحكموا بأنفسهم ثم نظرت إلى سلمى نظرة تشفّ.

- سلمى كانت متجوزة الجدد ده عرفني ومعاه ورقة وبعدين اتجوزت واحد تاني كويتي عليه من غير طلاق ولا عدة ولا أي حاجة وأتارها

مدوراها ومقضاياها عرفي وعرب وخلايجة. جيت قتلها أملك يا لحمي، بهدلتني. اشهدوا يا ناس؟ أنا غلطان؟

أنهى مرزوق جملة الأخريرة وأخرج من جيبه ورقتين بعقدين للزواج العرفي مذيلتين بإمضاء سلمى على كل منها، وقد أعطاهما للرجل الذي يدافع عن سلمى وسط ذهول الأخريرة وبسملة وحوقة واستغفار الجميع.

هنا أخذت منه سلمى الورقتين. كان التوقيعان بالطبع لا يشبهان توقيعها. قالت للجميع إن هذا ليس إمضاءها. بحثت عن قلم فلم تجده. فتحت حقيبتها وأخرجت منها قلم الكحل الخاص بها ووقعت على مفرش مائدة السفرة ليقارن الناس بين توقيعها والتوقيعين على العقود فلم يقتنعوا صرخت وهي توقع على الحائط وعلى الباب وعلى حواف الشباك، فسرت المهمات غير مقتنعة وتناهى إلى مسامعها من يشكر ابن عمها على أنه حاول لم فضيحتها. بدأت سلمى في اللطم والتوقيع بقلم الكحل على ذراعها ووجهها وبهستيريا انقضت بالقلم على وجه مرزوق، وأخيراً تدخل الجيران ولكن ليحموا مرزوق.

- 22 -

اتصل شريف بسلمى ليخبرها أنه قد قال لعائلته إنه يجبها إلا أنها لم ترد تأمل تابلوه سيارته الصغيرة الجديدة التي أهداها له والده فابتسم وهو يفتح المذياع على محطة الأغاني الأجنبية. لم تكن السيارة فخمة كسيارة الشرارة السابقة ولكنها ستؤدي الغرض.

رن محموله بنمرة لبنى وضغط على المقود بتلقائية ليكتشف أن هذه السيارة غير مزودة بخاصية الرد على المكالمات فأمسك المحمول ليأتيه صوت لبنى من الناحية الأخرى تحبره أن يتجه على الفور لأم منير التي نزلت إليها وأخبرتها أن ابنها لم يعد منذ ثلاثة أيام أي منذ أن خرج معه.

عقد شريف حاجبيه وأنهى المكالمة ليتصل بمحمول منير فوجده مغلقاً. اتصل بعدها بشيري فردت عليه ببرود. سألها عن منير فأخبرته بما فعله مع رانيا. عاد للسؤال عن منير، وعلى الناحية الأخرى صعقت شيري من رده وعدم اهتمامه بما قالت. تساءلت بينها وبين نفسها: هل هذا هو شريف الذي لم يكن يسمح لصديقة سابقة أن تظل في الشلة وكان محرماً على أفرادها أن يصاحبوا الصديقات السابقات لرجالها؟ لم تدرِ إلا وهي تسب شريف في رجولته. تضاعفت دهشتها عندما لم يسبها شريف بدوره بل وسألها عن سر تلك الموسيقى الصاخبة فأخبرته أنها في حفل عيد ميلادها في منزلها. بهدوء أخافها بعض الشيء، قال لها شريف «كل سنة وانتِ طيبة.. أنا جاي لك البيت».

أنهى شريف المكالمة واتجه إلى منزل شيري، ففتحت له الباب ليدخل وهو مندهش من أن تقيم الشلة حفلة دون أن تدعوه. هل طردوه من الشلة؟ لم يعد يهتم.

هو الآن في طريقه للخلاص من كل أوهامه.

فلتحترق السعرات الحرارية المدونة على عصيره المستورد وهو يسب هؤلاء الأندال.

فتيات حصلن على أجود ما يمكن شراؤه من شهادات دراسية ويحملن الحقائق غالبية الثمن ويضعن فيها تليفونات حديثة ويرتدين أحدث صيحات الموضة ولديهن كل ما تحتاج إليه الفتاة من مستحضرات تجميل، وانهرن عندما طلب منهن أن يتحملن مسئولية ابتياع احتياجات المنزل.

هو الآن في طريقه للخلاص من أوهامه.

فليستعد بتمرينات الإحماء حتى لا يصاب بشد عضلي وهو يصفعهن.

في داخل شقة شيري رجال يحملون بخمور السوق الحرة ومؤخرة كيم كارديشيان. شباب دللتهم والداتهم حتى فسدوا واختار لهم الوالد الكلبه والوظيفة واختارت لهم الوالدة العروسة ومقدار تدينها من عدمه واختارت لهم الجدة أسماء الأبناء.

لمح رانيا من بعيد تراقص أحدهم وهي منتشية كعادتها وما إن رآته حتى اقتربت منه وسكبت فوق رأسه كأسها. أمسكها شريف من ذراعها إلا أن أحدهم يفوقه طولاً وحجماً أمسك برسغه هو أيضاً فاضطر شريف إلى أن يفلت يدها. تصاعدت الهمهمات والنظرات وساد الصمت والقلق. لمح عال وجه شيري نظرات شهامة لم يهتم بتفسيرها وسألها للمرة الثالثة عن منير بصوت عال صاحت فيه شيري:

- أقولك.. منير كان هيغتصب رانيا الإكس⁽¹⁾ بتاعتك، تقولي المهم هو

فين دلوقتي؟ إنت مش راجل يا شريف؟

(1) ex بمعنى السابقة.

لم يكن ظرفا الزمان أو المكان ليسمحا لشريف أن يذوق كلامه لشيري.
هو لا يهتم حقًا لامرها أو لأمر رانيا ومن المؤكد أنه لولا الظروف الحالية
لما اهتم لأمر منير نفسه. بهدوء حاسم وبنظرات نارية قال لها شريف وهو
بنجاهل عن عمد نظرات الشلة المصوبة إليها:

- اخلصى بقى يا شيري.. مش انتي اللي هتديني دروس في الأخلاق.

- إحنا طردناه.. وأنا كمان بقولك اطلع برة يا (مش راجل).

- يلعن أبو تفاهتك.

- برة.

قالتها بصوت عالٍ، فوقف شريف ليواجه الشلة جميعًا ثم وجه كلامه لشيري:

- أنا همشي.. علشان شيري عرفت حقيقتي وشايفة إني مش راجل..

عارفين هي عارفة حقيقتي ليه؟ مش حقيقتي أنا بس حقيقتنا كلنا.. علشان

هي الوحيدة اللي نامت مع كل رجالة الشلة كلها.. أما رانيا ففاضلها ثلاثة

وتكسر السكور (score).

غادر شريف شقة شيري ولم يعد إلى الشلة مرة أخرى.

بداية شريف حياته الحقيقية لا بد أن تكون بداية جديدة لا تكلمة لما سبق.

ولحو ما سبق؛ عليه أن يهدم ماضيه.

وهو ما يفعله حرفيًا.

وفي السيارة ضرب المقود بيديه من فرط عصبيته. لم يكن يعنيه ما حدث

بقدر خوفه من أن يفسد ضياع منير المشروع الذي صار هو حياته نفسها.

حسابه في البنك يتراقص ما بين رضا والده عنه أو تدمره من بدء إجراءات إخراج السكان.

فتح الباب فجأة ليدخل أكرم إلى السيارة. تهاً شريف لمشاجرة إلا أن أكرم باغته بسؤاله:

- دي عربيتك الجديدة يا ماو؟ حلوة ومحدقة.

- فين منير يا أكرم؟

- قفل قوي صاحبك ده..

- ماتعرفش راح فين؟

- ماعاكش من الكوك ده تاني؟ أنا عارف إنه أكيد كان واخده منك..

ده عيل مقشف ودماغه اترصفت من شرب البانجو والبرشام.. رانيا أول ما شافته بيضرب أبو صليبة قفلت منه.

أخرج شريف من جيبيه مبلغاً نقدياً وأمسك محموله وقام بإملاء رقم تاجر المخدرات لأكرم الذي ابتسم قائلاً:

- علشان انت صاحبي وبيناً عيش وملح ومخدرات ونسوان هقولك..

السيكيورتي هناك قالوا لي إنه فضل نايم على الطريق السريع لحد ما عدني بوكس وسحبوه على القسم.. زمانه لسه محبوس من ساعتها.. أصل بطاقته معايا... وادي محفظته.. تصدق الاهبل حاطط فيها كوندوم إكسبايرد⁽¹⁾.. سلام يا شريف.

(1) condom expired واتي ذكري منتهي الصلاحية.

قالها وهو يعطي لشريف محفظة منير ويغادر السيارة معه. وبعد أربع مكالمات تليفونية، واحدة منها لوالده، تأكد من وجود منير بقسم الشرطة بالعين السخنة وقبل أن يسافر إلى هناك كان عليه أن يُطمئن أم منير.

- 23 -

عندما قامت أم منير لفتح الباب كانت تتمنى من كل قلبها أن ترى منير أمامها. اعتادت أن يغيب يومين ولكن هذه هي أول مرة يغيب فيها لمدة ثلاثة أيام ودون اتصال. فتحت الباب لتجد أمامها هشام ابنها الأكبر وزوجته التي انقضت على وجنتي أم منير لتقبلها وحذا حذوها زوجها الذي قبل يد والدته. اندهشت من أن ابنها قد أتى لزيارتها لأول مرة منذ عامين وزاد دهشتها أنه قد أحضر معه زوجته هذه المرة فهي على ما تذكر لم تخط داخل هذه الشقة منذ عدة أعوام.

أما ما ضايقها فهو أنها قد قاما بجلب طعام غداء معها من أحد المحال القريبة. دخلت الزوجة إلى إحدى غرف النوم لتخرج منها بملابس البيت وحذا حذوها زوجها ثم قاما بإعداد السفارة ودعا أم منير لأن تأكل.

- إنتو جاين تزوروني وجايين معاكم بيجاما وقميص النوم؟

ضحكت الزوجة ضحكة سمجة مبالغاً فيها وأثنت بصوت أخنف على خفة دم حاتها. أخبرها ابنها وهو يغتصب قطعة من الدجاج أنها قد شعرا بتقصيرهما في زيارتها طوال الفترة الماضية فقررا أن يبيتا عندها كام يوم. قالت المرأة وهي تضع قطعة من الدجاج أمام أم منير:

- كلي يا حماتي.. دي فراخ الحاتي.. والله تنفع مطلع أغنية...هاهاهاهاها.

- هو فين منير يا ماما؟

تركتها الأم دون أن تلمس الطعام واتجهت لغرفتها. لم يكن الأمر يحتاج إلى الكثير من الذكاء لاستنتاج سبب زيارة ابنها الأكبر وزوجته. لقد أخبرهما أحدهم بموضوع التنازل عن الشقة وقد حضر الضمان حقهما وإثبات وجودهما.

توترت العلاقة كثيرًا بين هشام ووالدته بعد زواجه. لم تكن زينب راضية عنها بسبب تسلطها وجشعها ولكن هشام أصر على الزواج بها. لاحظت زينب بعد الزواج أن زوجته تطمع في الشقة وحاولت أكثر من مرة أن تقنع زوجها بالانتقال للعيش مع حماتها.

على عكس هشام كانت زينب ترى أن منير قد ورث عن أبيه الذكاء والشخصية المرحية وكانت تحب أن ترى فيه أحمد عبد العال الذي مازالت تحبه رغم مرور تلك السنوات.

دخل إليها ابنها وجلس على طرف السرير.

- مالك يا ماما؟ إنتي متضايقة إننا جينا نزورك؟

- قاعدين قد إيه؟

- إنتي بتطردينا؟

- وأنا حتى لو طردتكم هتمشوا؟

- فين منير؟

- انزل دور لي عليه.

- تلاقيه صايع في حته يا ماما.

- اخرس.. منير مش صايع... منير مش زيك.

- ما تفوقني بقى يا أم هشام... طول عمرك بينادوكي بأم منير.. مفروض
نبقى أم هشام.. هتفضلى طول عمرك مصغرانى؟

- الصغير ده طول عمره أشطر منك.

نفرت عروقه وضرب الدولاب بقبضته فانبعج جزء منه تحت وطأة
قبضته. أخفت أم منير وجهها بيديها خائفة.

- والله العظيم أنا ابنك... منير شاطر وأنا ما عنديش ذكاوته.. أنا عارف..
بس فاشل.. ما عرفش يعمر في شغلانة أكثر من ثلاث شهور.. أنا بقيت مدير
فرع في البنك اللي شغال فيه. أما منير هيبعك الشقة.. هو فين دلوقتي؟

كادت عروقه أن تنفجر من فرط الانفعال ودخلت الزوجة على صوت
صراخه. لم يحاول هشام حتى إخفاء مطامعه أمام زينب التي قامت واقتربت
من الزوجة التي خشيت أن تسبها الأم لكن السيدة ربتت على كتف الزوجة
ربما لأول مرة في حياتها قائلة لها:

- والنبي يا بنتي هو بيسمع كلامك انتي... خليه ينزل يدور على أخوه..
أنا قلبى واكلمي عليه. مين بس قال لكم إني هيبع الشقة؟

رن جرس الباب في هذه اللحظة فأتجه هشام ليفتح الباب ليجد شريف
واقفاً أمامه وقبل حتى أن يدخل إلى الشقة فلتت من هشام عبارة «يبقى كلام
فاطمة طلع صح».

انطلق شريف إلى العين السخنة بعد أن حضر ليطمئن أم منير بنفسه. وفي الطريق بدأ القلق يتسلل إلى شريف. لقد دخلت فاطمة في اللعبة بالفعل وبانت نيتها في عرقلة مشروعه. لقد اتصلت بهشام لتعقد عملية التنازل. طمأن نفسه بأنها مجرد زوجة البواب حتى لو أشيع عنها أنها مسنودة من أحد أباطرة الحزب الحاكم.

اتصلت به سلمى فبدأ صوتها مختنقاً فسألها عما بها فأخبرته بأنها متعبة قليلاً وتريد أن ترتاح في منزلها يومين. أخبرها شريف في عجلة عن موضوع منير ولم يشأ أن يقول لها عن مفاتحته لأهله في موضوع ارتباطهما مفضلاً أن يكون هذا حين يراها.

وبعد أقل من ساعتين ونصف فتح شريف شبابيك السيارة وشغل التكييف على أقصى سرعة لديه محاولاً طرد رائحة منير الكريمة التي عبقّت السيارة وأزكمت أنفه ولكن دون جدوى. علم من ضباط القسم أنهم طلبوا منه أن يتصل بأي من ذويه إلا أنه رفض وأقسم أنه سينتقم من فتاة تدعى شيري وسيشعل النار في فيلتها. وبمكالمتين من أحد الضباط من معارف والده خرج منير وركب مع شريف السيارة.

لم يشكر منير شريف بل أشار إلى فمه باصبعيه دليلاً على أنه يريد سيجارة فأخرج شريف علبة سجائره فأخذها منير ووضعها في جيبه وأخذ ولاعة شريف وأشعل سيجاراً وبصق من الشباك وهما على طريق العين السخنة الجديد. أشار منير إلى البنزينة التي على أول الطريق وقال لشريف:

- عايز أطفح.

وفي منتصف الطريق إلى القاهرة وبعد ثلاث جوييناتا والتهام ساندوتش لي أقل من ساعة أخبر منير أنه موافق على التنازل عن الشقة. ابتسم شريف إلا أن منير سأله عن سعر فيلا شيري في العين السخنة. لم يفهم شريف المغزى من السؤال إلا أن فكرة شراء فيلا شيري وطردها منها بفضيحة كانت قد استولت على تفكير منير تمامًا. اغتصب شريف ابتسامة وهو يقول:

- لو استنيت عشرين سنة وفيلا شيري سعرها فضل ثابت ممكن ساعتها نشتريها.

- وصاحبك رانيا.. إنت كنت بتنام معاها إزاي دي؟ ده أنا يدوبك خلصت معاها وقلت من فوقها قعدت ادور على كلور علشان اتشطف بيه.

كتم شريف غيظه لم يكن يغار على رانيا كما أنه يعلم أن منير كاذب ولكن الأخير كان يحاول أن يوصل إليه رسالة أنه أفضل منه. الذي أريك شريف حقا أنه لم يكن يعلم الرد المناسب لما يقوله منير دون أن يبدو كقواد وفي نفس الوقت لا يستفز جاره الذي دفعه الحقد والمخدرات وأشياء أخرى إلى حافة الجنون. وبعد دقيقة من الصمت قال شريف:

- طنط زينب قالت لي فاضل لك شهر وتهاجر... مبروك المنحة بتاعة إيطاليا.

- إنت ادبت لمنصور باروكة كام؟

- مية وخمسين ألف.

- لو الشقة تلمك يا شريف.. تدفع تلتمية وخمسين ألف جنيه.

- طب خليهم ميتين.. إنت مسافر كمان شهر وهحتاج الفلوس.. وأنا علشان ادبر لك تلتمية وخمسين هحتاج مش أقل من أربع شهور.

- لا الميتين دول خليهم لك.. أصل انا كمان هخليني معاك.

- مش فاهم.

- الظاهر مصر بتحبني قوي يا شريف.. اركن على جنب عايز أرجع.

توقف شريف على الجانب الأيمن من الطريق. فتح منير الباب وخرج من السيارة ووقف في منتصف الطريق فاردًا ذراعيه للسيارات القادمة وكأنه يريد أن يحتضنها. لم يصدق شريف ما يراه وقد تفادت إحدى السيارات الاصطدام بمنير الذي كان يضحك بحنون. نزل شريف بدوره من السيارة عندما بدأ منير يركض عكس اتجاه السيارات وتفادته سيارة مسرعة وهي تطلق نفيها بصوت عال فامتزج صرير العجلات بصوت ضحكات منير وصراخ شريف وسباب من في السيارة. صرخ شريف الواقف على يمين الطريق في منير الواقف في منتصفه:

- إنت اهل يا منير؟

- البلد دي مش عايزة تسييني ليه؟ ليه؟ ليه؟

كان منير قد وصل إلى حالة هستيريا وتشنجات فنام في منتصف الطريق فتسمر شريف في مكانه وهو لا يعلم ما الذي يفعله فبدأ يشير لإحدى السيارات كي تنتبه لهذا المعتوه النائم في منتصف الطريق السريع وكاد هو شخصياً أن يصطدم فركض ناحية الجزيرة وسط الطريق وقد فضل حياته على إنقاذ هذا المجنون.

قام منير من وسط الطريق وشده ليجبره على الوقوف معه ليواجهها السيارات معاً.

- هنموت يا شريف.. هنموت مع بعض.

رفع شريف لأعلى ورماه على الجانب الأيمن من الطريق ليتفادى سيارة أخرى كادت أن تصدمهما. هدأ منير قليلاً وقال وسط لهائه وبصقه للدماء.

- المعهد الإيطالي طلع قرار إن مافيش راجل من الأوائل هيسافر إيطاليا علشان كل الرجالة اللي سافروا قبل كده مارجعوش... بيطلعوا بنات بس... يعني ياسمين المقشفة اللي فركشت معاه طالعة وأنا لأ. أنا انجست في مصر.. أنا قاعد في عمارتك الوسخة.

- 24 -

- عايز تبيع شقتي يا زبالة من ورانا؟ بتستكرد أمك يا منير الكلب؟

قالها الأخ الأكبر لمنير الذي لم يرد وقام بمنتهى الهدوء واتجه إلى الباب وفتح. لم يفهموا ما الذي يفعله بالضبط هل سيغادر المنزل بهذه البساطة ويتفادى المشاجرة؟

فجأة انقض على الزوجة التي كانت تقف قريبة من الباب وأمسكها من شعرها فصرخت من الألم والمفاجأة ورمأها خارج المنزل وهو يصفعها حتى اصطدمت بالباب الحديدي للمصعد فصرخت ومنير يضحك بتلذذ سادي وهو يركلها في معدتها.

- جاينين تورثوا أمي، بس أنا مش مسافر.. أنا قاعد على قلبكم.. أنا قاعد هنا يا عمارة مافيهاش راجل.

فجأة أمسكته يد أخيه الذي خرج من المنزل مكورًا يديه وموجهًا قبضته إلى أنف أخيه الصغير الذي تفادى اللكمة فأصابت يده الباب الحديدي وسمع صوت تحطم عظامه ليسقط بجوار زوجته، وكال لهما منير الركلات والصفعات ويصق دماءه عليهما وهما ساقطان على الأرض.

خرجت الأم ترجو منير أن يتركهما، وفي نفس الوقت نزل لوتو من الشقة رقم سبعة على إثر سماعه الصراخ وصعدت لبني لترى منير وهو واقف في مشهد مهيب وتحتة أخيه وزوجته على الأرض وأمه تحاول تهدئته.

سب منير لوتو ولبنى بأقذع السباب وأمه ترجوه أن يدخل إلى الباب بدلًا من هذه الفضائح. نظرت أميمة من العين السحرية فأغلقت أنوار الشقة وأمرت الجميع أن يصمتوا تمامًا. ورفضت تمامًا خروج ابنها لمعرفة ما يحدث. عادت لبني فزعة إلى منزلها وأغلقت المزايج وأمسكت بالسكين وهي ترتعش وقد هاجمتها الأزمة الصدرية. أما لوتو فبدأ مستمتعًا بما يرى. سأله منير ما الذي يفعله في الطابق الرابع وما إذا كانت فاطمة قد بدأت في تسريحه هو شخصيًا كعاهراتها.

وقبل أن يرد لوتو كان هشام يقوم من على الأرض ممسكًا بيده المكسورة. لم يساعد زوجته على النهوض أو حتى الاطمئنان عليها. وقف أمام منير وهو يقول للأخير إنه سيأخذ حاجته هو وزوجته ويخرج. وما إن صار بجوار منير حتى دفعه فسقط الأخير على الأرض بجوار المرأة التي كانت ترتجف في صمت، دخل هشام إلى الشقة وأغلق بابها على نفسه بالمزلاج تاركًا الجميع بالخارج.

انتهى العمال من نقل أثاث سلمى من شقة إمبابة. أغلقت الباب من خلفها دون أن تتبادل مع مرزوق أية كلمة وأغلقت الشقة بعد أن رمت مفاتيحها في وجهه. لقد اختار لها مرزوق الطرد من إمبابة التي لن تستطيع أن تحيا فيها بعد هذه الفضيحة.

وما إن غادرت سلمى الشقة حتى احتضن مرزوق المستندات التي وقعتها لضمان انتقال ملكية الشقة إليه.

حين مات والداه حمد الله أنه سيستمع بالحمام وحده.

حين مات والداه بكى وهو يحسدهما على راحتها.

حين مات والداه لم يجد ما يكفنها به ولم يشأ أن ينام على مرتبة دون ملاءة.

الحي أبقى من الميت، أما في المنطقة التي يسكن بها فالميت أفضل حالاً من الحي.

نظر مرزوق حوله للمنزل الخالي من الأثاث بعد أن باعت سلمى الأثاث لتاجر في نفس الشارع واحتفظت فقط بسريرها النحاسي ومرتبة جديدة وجهازها وصورة والديها ونقلتهم معها إلى الجيزة. تأمل مرزوق الحوائط العارية وتوقيع سلمى بالقلم الكحل في كل مكان يذكره بما فعله مع ابنة عمه. هز رأسه وهو غير مصدق أن هذا المنزل قد أصبح ملكه. دخل إلى المطبخ واقترب من البوتجاز ناظرًا له بهيام وأشعل إحدى شعلاته فحمد الله الرزاق الكريم وتحسس الأنبوبة وكأنه يتلمس ذراع فتاة.

مشى في الطريقة فأضاء نورها الباهت وأغلقه وأعاد الكرة ثلاث مرات وهم يضحك في بلاهة. فتح باب الحمام ليجلس على المرحاض ويشد السيفون وقد أظربه صوت انبهار المياه. دخل إلى البانيو بملابسه وحذائه وفتح المياه الساخنة فهب السخان فضحك، وأغلق الصنبور فانطلقت الشعلة وكرر ما يفعله ودخل إلى البانيو دون أن يخلع ملابسه لتغمره المياه وتزيل أوساخ حيه العشوائي.

فتحت سلمى باب المكتبة ومع دخول عواميد النحاس للسرير والمرتبنة أيقنت سلمى أن مخاوفها كانت في محلها وأن أسوأ كوابيسها تراه يتحقق بمنتهى البجاجة. إن أدخلت متاعها إلى المكتبة فعليها أن ترمي البضاعة خارجها.

جلست على الدكة للحظات ثم اتجهت قدماها إلى منزل شريف الذي استقبلها بحرارة وما هي إلا دقائق حتى كان العمال ينقلون كل شيء إلى شقة منصور جاد الله. وبعد أن انتهى العمال جلسا وحدهما في شقة منصور والتي تعوي فيها الرياح بسبب الشباك المكسور. بكت سلمى وهي تحكي له عما حدث. ربت على كتفيها وهو يعدها بأنه سينتقم من مرزوق حالما ينتهي من موضوع العمارة. نظرت إلى الشباك المكسور فقال لها إن نجوى لم تعطه مفتاح شقتها ولكنه سيكسر الباب غداً.

احتضنها وهو يخبرها بأنه قد فاتح أهلها في موضوع ارتباطهما ببعض فضحكت وهي تسأله: لماذا يقبلها أول قبلة في حمام المكتبة ويعترف لها بحبه في المنور ويعرض عليها الزواج في شقة منصور جاد الله الرجل الذي فضحها فيما مضى؟

ضحكاً معاً وبالرغم من اقتراب سلمى من سلق القيل وحشوه إلا أنها وجدت نفسها ترفض عرض الزواج. صدم شريف وقبل أن يتحدث أخبرته بأنها الآن بلا مأوى ولا تدري هل يعرض عليها الزواج شفقة منه أم أنه يجيها حقاً؟
- سلمى.. أنت مجنونة؟

- شريف.. الجواز من غير اختيار حتى لو من واحد بحبه يبقى دعارة
ابتسم شريف وهو يجلس بجوارها على المرتبة لاعناً الكتب والروايات التي أتلفت رأسها وأسند ظهرها برفق على المرتبة وهو يقبلها فلم تقاوم.
تذكر كلام والده وهو ينهره عن الشرب مطرح البواب إلا أن شريف أصر على أن يشرب من مطرح البواب حتى الثمالة وسيمارس الجنس في شقة منصور جاد الله شخصياً كما وعد نفسه من قبل.
وقد كان.

- 26 -

جلس لوتو على القهوة ساعة كاملة يلوك في سيرة سلمى التي أتت بسريرها وباتت مع شريف في شقة منصور جاد الله. حكى وزاد من عنده الكثير للبوابين حول نار الشيثة والسائقون حول أكواب الشاي. استغفروا الله كثيراً وهم يتساءلون عن لون ملابسها الداخلية التي من المؤكد أنها كانت في تلك الكراتين. أخبرهم أحدهم أنه متأكد أن سلمى عندها سعار جنسي

وتمارس الجنس يومياً لأنه بخبرته في النساء يعرف أن الفتيات ذات الشعر المجعد لا يذهبن إلى مصففي الشعر لأنهن يضطرن إلى الاستحمام يومياً.

طلب أحدهم من لوتو أن يسرق أي قطعة من ملابسها الداخلية. قال القهوجي إنه من المفترض أن يغير لوتو اسمه إلى "كلوتو". ضجت القهوه بالضحكات عدا لوتو الذي سب قائل العبارة الأخيرة. اعتاد لوتو فيما مضى أن ينقل إلى الحرافيش ألوان وأشكال كلوات وسوتيانات سيدات العمارة المنشورة على جبال الغسيل. بل إنه كان يوصي الخادما بأن يسرقن الملابس الداخلية التي يراها منشورة على أحبال غسيل العمارة ويعرضها للبيع على رجال على القهوة.

ظل لغز سرقة الملابس الداخلية من على جبال الغسيل يؤرق سيدات العمارة حتى ضبطته سلمى يوماً ما وهو في الحديقة يشم في إحدى قطع الملابس الداخلية وقامت بفضحه واعترف على الخادمة شريكته فتم طردها على الفور من عند أميمة التي نزلت وقامت بضرب لوتو أمام الجميع وسبه بأقذع الألفاظ. لم يكن سبب غضبها السرقة ولكن لأن أميمة ضبطته يسرق إحدى قطع الملابس الداخلية التي تخص حفيدتها التي كانت تبلغ من العمر ست سنوات وقتها.

لم يتدخل أحد لحماية لوتو الذي وصل الأمر إلى البصق عليه من أميمة ثم تم تقييده بحبل غسيل في الفانوس على مدخل العمارة بمعاونة كل من زوج أميمة وابنها وتم حلق شعره بالموسى. ومن يومها قررت فاطمة ألا تترك ابنتها وحدها أبداً مع هذا الرجل.

وبعد أن شرب لوتو الشاي على حساب أحدهم عاد إلى حجره ثم تذكر أنه الآن يقطن في إحدى شقق العمارة فصعد إلى مدخل العمارة ليفاجأ بسلمى وهي تخرج متجهة إلى مكتبتها فما كان إلا أن رفع صوته بالاستغفار.

أسقط في يدي سلمى فهي لن تتحمل أن تفضح في إمبابه والجيزة. نظرت خلفها لتجد شريف وقد سمع ما قاله لوتو فوقف بجوارها أعلى مدخل العمارة ناظرًا بتحدٍ إلى لوتو أمرًا إياه أن يأتي إلى منزله حالاً.

لحظات وكان ابن عزيزة يقف في الصالة يجمع في نظراته ما بين الشماتة في سلمى المذعورة وبين ترقبه وخوفه من شريف الذي وقف هادئ الأعصاب.

نظر شريف إلى سلمى وطلب منها أن تعد كويين من الشاي لم تتحرك سلمى من مكانها فحدجها بنظرة حادة جعلتها تفر من الصالة إلى المطبخ. جلس شريف على الكنبه ولم يدع لوتو للجلوس. لحظات صمت مدروسة جيداً من رجل يجيد التعامل مع أمثال لوتو.

- احنا آخر الشهر يا لوتو... مين هيديكم الشهرية المرة دي؟

تمكنت بعض الخلايا في عقل لوتو المبرشم دائماً من فهم الوضع الجديد أخيراً. فبعد رحيل نجوى وهدى سينقطع دخله الشهرى. فطن أخيراً لوتو إلى أن الجالس أمامه هو المانع المانع هو فرعون مالك مفاتيح الأرض والسماء. ما هي إلا لحظات حتى عادت سلمى بصينية الشاي فهرول لوتو ناحيتها وجلبابه يصدر حفيفاً من اصطدام ساقيه الهزليتين بقماش الجلباب الدائب وأمسك الصينية منها قائلاً: «عنك يا ست سلمى». لم تفهم سلمى

كيف دخلت إلى المطبخ ولوتو يراها فتاة سيئة السمعة وبعد دقائق تحولت إلى الست سلمى.

جلست سلمى وهي ترى لوتو واقفاً مبجلاً محترماً أمام أمير العمارة الجديد. وضع شريف رجليه على كر تونة من كراتينه التي لم يفتحها منذ أن جاء إلى العمارة قائلاً:

- الشهرية اللي كانت بتديها لكم طنط نجوى قبل ما تعزل كانت كام؟

- يا دكتور شريف الست نجوى يعني كانت بتدينا حسنة إنسانيه ربيعيت جنيه كل شهر والست هدى الله يسترها كانت بتدي أمي معاش ابويا ميتين جنيه.

- بس دلوقتي مافيش ست هدى ولا ست نجوى.. مافيش غيري أنا والست سلمى:

- أنا هديك ستميت جنيه بدل ربيعمة... ومعاش دادة عزيزة هيقى تلتمية بدل ميتين وأنا اللي هاوصلهم ليها بنفسي.. أما الشهرية أنت اللي هتاخذها في إيدك مش فاطمة.

أخرج شريف من جيبه مبلغ الستائة جنيه من حافظة نقوده وأعطاها للوتو الذي وقف متسماً لا يصدق أنه يمسك مصيره في يده لأول مرة. وقبل أن يغادر المنزل أعطى له شريف بعضاً من حبوب الترامادول فكادت أحيال لوتو الصوتية تلتهب من شدة الدعاء ويخرج من المنزل وهو يحني رأسه احتراماً لسلمى. سألته الأخيرة: لم فعل هذا؟ فأجابها بأنه يحميها ويحمي سمعتها وإنهما أصبحا الآن في حكم المخطوبين أمام تكنيك خبره شريف

جيدًا مع أمثال لوتو.. تخويفه بأعز ما يملك وهو قوت يومه ثم العدول عن القرار بعد أن يتعب أعصاب الواقف أمامه وإعطائه زيادة، وبذلك يكون قد روض الشخص وملكه تمامًا.

اعترضت سلمى على منطقته هذا وأخبرته بأنه لا يمكنه شراء كل شيء بالنقود. لم يفهم شريف لم الضيق من فعل أثبت نجاحه وحماها بالفعل من تناول لوتو عليها. بيد أن سلمى لم تكن تحمل لأهل البدروم أي معزة عدا عزيزة بسبب العشرة لا أكثر.

أخبرها شريف بأنه ليس من حقها الاعتراض على أسلوب في معاملة الرعاع قد أثبت نجاحه أولاً ووقاها شر لسان لوتو. فهو يرى نفسه أنه قد نجح في حماية من يجب.

بقدر ما أسعدتها كلماته إلا أن القلق بدأ يتأبها من تلك النظرة العنصرية التي يتبناها شريف خاصة أنها الأقرب لسكان البدروم. شكرته وهي تقول أنه قد ورث من عائلته لأمه تلك النظرة المتعالية ويظنون أنهم ما زالوا في عهد الباشوات.

لم يعترض شريف بل زادها من الشعر بيتًا حين قال إنه كان يسمع نجوى وهي تقول: إن الرعاع يعتبرون التباسط ضعفًا وإنهم إن شبعوا لا يعملون وإن لم يهانوا لشعروا أن سيدهم لن يستطيع إدارة شئونهم وحمايتهم وحينها سينقلبون على سيدهم ليبحثوا عن من يعنفهم ويهينهم ساعتها فقط سيشعرون بالأمان ويخلصون له بقدر بطشه.

ابتسمت سلمى وكل كلمة تؤلمها وتبعدها عن الشعور بالأمان وتجعلها تتيقن أن زواج بياعة مكتبة لم تتم تعليمها الجامعي من ذلك الشاب الذي فطم على الطبقية يكاد يكون من رابع المستحيلات. أخبرته بأن هذا الكلام بيده منطقيًا من الذين لا يرون في الفقراء إلا خدمة لهم.

احتفظ شريف بابتسامته واقترب منها وهو يقول إن والده ابن الموظف البسيط الناصري مثلها وابن السيدة الأمية، الدكتور سامي المنيأوي الطيب المكافح كان من رأيه أن صاحب العمل لا بد أن يحرص على إبقاء طائفة الحرفيين والبوابين والخدم من حوله في حالة من اللا شبع واللاجوع. لأنهم أن شبعوا لا يعملون وإن جاعوا يثورون وإن أمنوا بطش ربيهم خانوه وإن أصابهم منه دعر هاجوه لذا فعلى سيدهم أن يقيهم في ذلك البرزخ ما بين الأمان والدعر تلك الحالة التي عودهم عليها المحتلون وسياط العساكر وسرايب سجون الحكام فألقوها.

لم تصدق سلمى ما تسمع وقررت أن تكتفي بهذا القدر من العنصرية والكرامية ولكن شريف رأى أن في تكملة الحديث ضرورة لإرساء بعض القواعد والتعرف على أفكار كل منهما. فأخبرها أن هذه العنصرية متفشية في المصريين أيًا كانت طبقتهم أو درجة تعليمهم.

سألت سلمى لماذا يذكر فقط هذه الكلمات ولم يذكر كلمات مس لبني التي ربه هي أيضًا؟ وكانت رغم عصبيتها تحاول أن تشكل تلاميذها على بعض المثل والأخلاقيات.

اكتفى شريف بهز أكتافه ومط شفتيه وهو يخبرها بأنه حتى مدرستهم الحبية مس لبنى سمعها ذات مرة وهي تشكو لنوال من الشغالة التي تنوي فصلها لأن «هذه الأشكال» لا بد للمرء أن يسبق غدرهم وكسلهم الكامن له جيناتهم بالتخلص منهم بلا رحمة في أقرب فرصة لأنهم إن أمنوا بطش صاحب المال لاستباحوا ماله وعرضه وخاضوا في سمعته ولغسلوا كل ما سبق في وضوء ماء صلاة الجمعة أو عند قسيس الاعتراف.

لم تعلق سلمى وقامت وقد اكتفت فعلاً، ولكن شريف لم يتوقف وأردف فائلاً: إنه حتى أميمة تلك السيدة المتدينة والحريصة على الإشراف على نحر الذبائح في عيد الأضحى سمعها وهو طفل تقول لجدته: إن اللحم لا بد أن تظل بالنسبة للفقراء هدية مساوية في الأعياد الدينية ليرتبط مذاقها عندهم بالمعجزات وتلبية الدعوات. يجب أن تعطى اللحم للفقراء وكأنها منحة وليست حقاً وأن سعادتهم بها من الطبيعي أن تكون مؤقتة فهم إن اعتادوا عليها من فرط كرم القادرين لنهشوا في لحم اليد التي تعطي ولتحول شكرهم إلى حسد وبدلاً من النظر إلى كيس اللحم وهم شاكرون أهل الجود سيتطلعون إلى متاعهم ورزقهم.

- كفاية يا شريف... انت عايز مني إيه؟

- عايز اتجوزك.

- أنا ماقدرش اتجوز واحد طبقي وعنصري بالشكل ده.

- كنتي بتقرفي من مرزوق قريبك ليه؟

ترددت سلمى قليلاً ثم اندفعت قائلة إن سبب اشمئزازها من مرزوق يعود لأنه مدمن مخدرات وعاطل لا بسبب أنه أفقر. سأها لم لم تستطع الحياة في إمبابة فارتبكت وهي تردد كلاماً عن الجهل والحقد. وسأها: ما هو الفارق بين من يرى نفسه أفضل لأنه أغنى وبين من يرى في نفسه الأفضلية نفسها بسبب حظه الأوفر في التعليم أو الإطلاع والثقافة. لم تستمر في الجدل فلقد تسلل إليها شعور مريح حينما شعرت بأن شريف يراها طبقية كأفراد عائلته. شعرت بالغبطة حتى ولو كان شريف يراها مثلهم في أمر سلبي. أن تكون عنصرية ضد الرعاع هو أفضل من أن تكون منهم.

قام شريف وقبلها قبلة سريعة فابتسمت وغادرت منزله وهي تشعر بسعادة لأنها طبقية مثله وزادت سعادتها حين حياها لوتو باحترام وهو جالس على الدكة. اقتربت منه وأخرجت من جيبتها ورقة نقدية وطلبت منه أن يبتاع لها علبة سجائر. دخلت سلمى إلى المكتبة بخطوات ثابتة وهي تراقب لوتو من خلف زجاج الفاترينة فوجدته قد ذهب لتلبية طلبها رغم أنه يعلم أنها لا تدخن. نظرت إلى المرأة البلاستيكية الرخيصة تتأمل شعرها الأشقر وازدادت ثقتها بنفسها وقد باتت متأكدة أنه يليق عليها أكثر من رانيا.

- 27 -

فتحت عزيزة عينيها لتجد ابنها يتسم ببلاهة وهو يضع أمام عينيها الستائة جنيه. أخبرها بكل ما حدث وعن رفع قيمة الشهرية ومعاش والده. ولأول مرة رأى في عين أمه نظرات الفخر. ربما لم ير هذه النظرة منذ اليوم

الذي ذهب فيه إلى اختبارات كرة القدم. قامت من رقدتها ويكاد لوتو أن
بفسم أن ظهرها المنحني قد اعتدل أخيراً. أعطاهما النقود إلا أنها أعادتها إليه
وهي تقول له وهي تربت على كفيه:

- محمد.. ماتضيعش قرشك.. بلاش تصرفه على الحشيش والخمرة والصيغ
اللي على القهوة.. اللي بيحصل فوق هيجيلنا تحت.. حوش لبكرة يا ابني.
- احنا بقينا فوق خلاص يا أما.

- يا أهبل.. فاطمة مش هتبقى زيهم حتى لو بقت رئيسة وزراء... هو
عايز ملكه ودة حقه ولو هيدينا تعويض يبقى إكرامية منه وهو مش ملزوم.
- إزاي يا أما.. لا ملزوم طبعاً... القانون بيقول كده.

- هو أنت فاكر إن فيه باشا هيكتب عقد لبواب؟

- فاطمة عملت عقد بتاع وضع يد ومعها القانون.

- حتى لو معاها القانون.. احنا كدة نبقى بنورث في حاجة مش حقنا...
إلا غضب ربنا يا محمد.... روح اطلع واقعد على دكة ابوك وعرف العمارة
والمنطقة كلها إن فيه بواب رجل موجود.

قبل يدها وغادر الغرفة متوجّها إلى الدكة وفي عينيه نظرة ملك عاد إليه
ملكه. جلس على عرشه بتردد وفرد ظهره كي يبدو أكثر ثقة ولكنه لم يرتح
في جلسته هذه. جرب كل الأوضاع فلم يرتح إلا عندما جلس على طرف
الدكة وهو ماداً جسمه للأمام وكأنه يهم بالوقوف. وبصوت عالٍ نادى على
القهوجي الذي جاء وهو يستغرب من منظر لوتو.

- إيه ده؟ أنت فاكِر نفسك بواب بجد ولا إيه؟

انتصب لوتو واقفاً وصفح القهوجي فأفقدته توازنه وارتقى على الأرض وسط أشلاء الأكواب والمشاريب التي كان يحملها. وقبل أن يقوم القهوجي من على الأرض كان هناك لمة من الناس يحاولون الفصل بين لوتو والقهوجي الذي أقسم بأغلظ الأيمان أنه سيقتله.

أغلقت سلمى باب المكتبة عليها ومن وراء فاترينة الكتب رأت الكثير من الحركات البذيئة وسمعت العديد عن اتهامات لوتو بالقوادة وعن سمعة زوجته فاطمة وسمعة العمارة بأكملها. شاهدت لوتو وهو يرد على القهوجي معيراً إياه بأن أمه كانت غسالة ووالده كان يمسح الأحذية لزبائن نفس القهوة التي يعمل بها.

وأفضت المشاجرة إلى لا شيء وانتهت بالتراضي بين لوتو والقهوجي. أخرج لوتو الستائة جنيه من جيب جلبابه العلوي وهو يحرص على أن يراه الجميع. ودس ورقة من فئة العشرة جنيهات في جيب القهوجي وسط رفض الأخير وتحايل الجمع الغفير في فولكلور شعبي معروف لتدشين مكانة لوتو الاجتماعية الجديدة ليحضر بعدها القهوجي شيشة معسل ليدخنها لوتو على عرشه الخشبي.

الفصل السابع

- 1 -

بعد يومين اتصل شريف بمنير ليخبره بأن المبلغ جاهز، ولكنه يسأل عن موقف أخيه الذي لم يغادر الشقة منذ أسبوع تقريباً. أخبره منير بأن الشقة باسم والدته وطلب منه ألا يشغل باله بموضوع أخيه فهو يملك كل الوقت أما أخوه الموظف فسيضطر للذهاب إلى عمله في وقت ما. الوقت يلعب لصالح العواطفية. قال منير العبارة الأخيرة وهو يضحك. فجأة أخبره منير أنه لن يوقع إلا بشرط أخير أن يحضر له اللعبة الفضية المزينة بشعر ورقة الماريجوانا والتي تركها في فيلا شيري.

لم يفهم شريف كيف يفكر شخص تافه كمنير في لعبة وهو الذي سيعطيه ثلاثمائة وخمسون ألف جنيه. حاول شريف أن يثنيه عن طلبه هذا فأخبره منير أنه يريد أن يرى اللعبة قبل التقود.

أنهى شريف المكالمة وهو حائق فلم يتعلم كيفية البيع لغير المتوازنين نفسياً. أمسك بمحموله واتصل بأكرم.

- أكرم! أنت فين يا مان؟ عايزك في مصلحة.

كان شريف يعلم مفتاح أكرم فقال له الكلمة السحرية «المصلحة». استقبله أكرم في منزله في حى بين السرايات. جلس معه شريف في غرفة ذات جدران ناشعة ملصق عليها العديد من البوسترات لنجوم الروك وفوق السرير الآخر من الغرفة بوستر لمحمد فؤاد وهو حزين للغاية دون سبب مفهوم. ساد الصمت حتى انتهكه أكرم بسؤال ضيفه:

- أعملك شاي؟ استنى.. أدوذك ستاف حلو؟

- اعمل لنا بوب علشان بقالي كتير ما شربتش.

- ليه كدة.. شريف المياوي بطل حشيش؟

أخرج أكرم من علبة منير المعدنية سيجارة الحشيش فظفر إليها شريف ملياً فابتسم أكرم.

- دي صاحبك منير ادهاني هدية.

- طب أنا لازماني.

- عيب يا مان.. بقولك هدية.. منير يزعل.

- طب تبعها؟

- أبيع الهدية يا شريف؟!

كان يتسمم ابتسامة لزجة للغاية فبادل شريف ابتسامته بابتسامة أشد لزوجة وأخرج الأخير من جيبه ورقة من فئة الخمسين جنيهاً. هز أكرم رأسه وهو يتصنع التأثر:

- كدة يا مان.. أنا أسوى عندك خمسين جنيه؟

- تسوى عندي كام؟ طيب.. أنا عايز العلبة يا أكرم.. خلص.

وبعد الفصال أخرج شريف من جيبه المبلغ الذي طلبه أكرم بدون نقاش، ندما عاد إلى العمارة وجد أن لوتو قد وضع كوزًا أسمنتيًا ليحجز به مكانًا يارته فابتسم شريف وهو يسأله عن مفعول المقويات الجنسية التي لاهها إياه بالأمس فأخبره لوتو بأن فاطمة كادت أن تلفظ أنفاسها الأخيرة بب فحولته ليلة أمس. ابتسم شريف فهذا هو المراد بالضبط. أن يدمن وإحساس الرجولة الجديد عليه سواء ماديًا أو جنسيًا ويكون شريف هو حكم فيه، وفي اللحظة المناسبة سيستخدمه ضد فاطمة.

صعد شريف إلى الدور الثالث ودق جرس الشقة رقم خمسة ليفتح له بر مرتديًا خوذة بيسبول ومضربًا خشبيًا يستخدم لنفس اللعبة كان قد عهها عندما كان بالولايات المتحدة الأمريكية.

تعجب شريف من منظره ولكنه فضل ألا يسأل منير عن أي من تصرفاته برًا أنه شخص مجنون ليس عليه حرج. أشار له منير بطرف المضرب أن حل إلى الغرفة. لمح شريف وهو في الطريق أم منير وهي تصلي في الصالون دية عباءة مشجرة. دخلا إلى الغرفة وأغلق منير الباب من خلفها وخلع ردة وهو يسب أخاه وينعت زوجته بالعاهرة.

وفي الغرفة التي أغلق منير بابها بالترباس أخرج شريف من جيبه العلبة دنية ورمها لمنير الذي التقطها في الهواء وفتحها وهو غير مصدق - أكرم ابن الكلب شرب الحشيش بتاعي كله.

- ابقى هات تاني.. ما أنت هيبقى معاك فلوس كثير.
- بص بس.. أخويا في الأوضة اللي جنبينا لو سألك: أنت جاي ليه؟ قول له إنك جاي تطردنا... انزل هات الفلوس دلوقتي في كيس زباله أسود كبير وهات منوم..
- منوم... أنت هتتيم أخوك ومراته؟
- خدمة أخيرة يا شريف... مش أنت صيللي؟
- أيوه.
- عايز شريطين ترامادول ومش هطلب منك حاجة تانية... اسمع... خليههم عشر شرايط علشان استحمل أعيش في المخروبة دي.
- أنت هتتبعش فين؟
- أصيل وهتسأل علياً يعني؟ في الكيت كات.
- وبعد أقل من الساعة كان منير في غرفته يضع الحبوب المنومة والترامادول في جيبه وهو يعد المبلغ، وحين حاول أخوه أن يفتح الباب قام منير وضرب الباب بالمضرب فعاد هشام إلى غرفته مذعوراً
- وقعت أم منير على التنازل عن الشقة ووصل استلام المبلغ. غادر شريف المنزل وسط دعوات أم منير له، وعلى باب الشقة وقف شريف قائلاً:
- مش عايز مشاكل.. مش عايز بكرة آجي الأقي أخوك ولأمراته مغيرين كالون الشقة والحركات دي.. هجيب بلطجية يكسروا الباب على دماغهم.

- ماتقولش كده على أخويا يا شريف..وبعدين ماتخافش..ماحدثش يقدر
بغير الكالون... أنا بعث الباب أصلاً.

- طب اديني نسخة من المفتاح علشان اتظمن.

- يعني أنام أنا وأمي وأخويا ومراته ومفتاح شقتنا في جيب واحد غريب؟

وفي صباح اليوم التالي كانت سلمى واقفة في المكتبة تلعن أحد الزبائن
الذي يعترض على بيعها لكروت شحن المحمول بأعلى من ثمنها بخمسين
فرشاً. في نفس الوقت وفي منزل هدى استعد شريف للصعود لشقة منير
ليأكد من خلو الشقة من أخيه وزوجته، وقبل أن يتحرك سمع صوت
سلمى وهي تودع أم منير في الشارع فخرج إلى الشرفة ليجد أمامه منير
يساعد والدته على ركوب التاكسي.

نزل شريف ليسلم عليه واحتضنته والدته بشوق حقيقي وهي تقول:

- ابقى اسأل علياً يا شريف.

- أكيد يا طنط زينب.

- منير زي أخوك وأنا ماليش غيرك دلوقتي وهو مسافر.

- ولا يهملك يا طنط.

انتبه فجأة شريف إلى كلماتها ولم يفهمها فاستدار ليجد منير مبتسماً وهو
يقول:

- أنت صدقت أني مش مسافر يا أهبل؟

- نعم!!؟ يعني المنحة لإيطاليا بتاعتك ماتلغتش؟

- ما أنت حاولت تصيغ يا عم شريف وتقول مية وخمسين ألف وهجيب لك الباقي بعدين.. قلت لك أنا مش مسافر.. جيت تحط سيف الوقت على رقبتي.. عكسته ولبستهولك.. إوعى تكون زعلت.. بس إيه رأيك في الحركتين بتوع طريق السخنة... مثلت عليك المجنون لمدة خمس دقائق أخذت تلتمية وخمسين ألف جنيه.. ده أنا ولا السقا يا جدع.

لم يصدق شريف نفسه أنه قد خدع.

نفس الموقف حين خدعه أصدقاء مدرسته القديمة يوم كسر عصفور الساعة.

تذكر ضحكاتهم ورأى نفس الضحكة على وجه منير الذي يشير إليه هو والدة من شباك التاكسي الذي اختفى وسط الزحام.

اندفع إلى شقة أم منير ليجد العمال يحملون باب الشقة إلى أسفل. سأل شريف كبيرهم: ما الذي يفعلونه بالباب؟ فأجاب بأن صاحب الشقة قد باع كل العفش بالأمس بما فيه باب الشقة وأمرنا بالآنزعج الرجل والعاهرة التي معه بالداخل لأنها كانا سهرانين.

دخل شريف إلى المنزل ليجد العمال يحملون دولابًا كان حلم حياته وهو مراهق أن يختلس منه مجلة أو فيلماً جنسياً أو يرشف منه زجاجة خمر. دخل إلى غرفة أخي منير القديمة ليجد العمال يفكون جهاز تكييف، بينما زوجة أخيه تغط في نوم عميق بسبب الحبوب المنومة التي جلبها له شريف بالأمس وقد انكشف الغطاء عن ساقها أمام العمال. سمع صرخة في الصلاة

ليخرج فيجد أخاه يتشاجر مع أحد العمال وهو مصمم أن يأخذ طفاية والده الكريستال وهو يسب شريف ومنير ووالدته ووالده.

اندفع هشام أخو منير بعيون زائغة واقترب من شريف وهو ممسك بالطفاية الكريستال. بأعصاب حديدية تماسك شريف ووقف ثابتاً أمام هشام. حاول هشام أن يتحدث أو يسب ولكنه هز رأسه في يأس ودخل إلى الغرفة التي تنام فيها زوجته وطردها منها العمال وهو يحاول أن يوقظها ليخبرها بهزيمتهما وأنها خسرا كل شيء.

وفي نفس الوقت في المنيل وقف التاكسي أمام أحد دور المسنين ونزل منه منير ووالدته. حمل منير حقيبتها وأمر التاكسي بالانتظار كي يقله إلى المطار بعد ذلك. دخلا إلى الفيلا المكونة من ثلاثة أدوار وصعدا السلم الرخامي دون أن ينبس أحدهما ببنت شفة.

دفع منير مبلغ إقامة والدته لمدة سنة مقدماً ودس في يديها مظروفاً به بعض المال ودون أي كلمات وداع اختفى من أمامها مهرولاً تاركاً إياها في صالة الاستقبال حتى قبل أن تستوعب أنه قد غادر حياتها للأبد.

عاونتها إحدى العاملات على حمل حقائبها بحماس وهي تربت على كتفها في حنان ورقة بانكنوت من فئة المائة جنيه قد دفسها منير في جيبها وهو في طريقه إلى خارج الدار للاعتناء بأمه.

دخلت زينب إلى غرفتها بالطابق الأرضي المطل على حديقة صغيرة بها مائدة بلاستيكية وأربعة مقاعد. تحسست الفراش وهي تتأمل العاملة التي

بدأت في فتح الحقيبة لتخرج منها بروازًا بلاستيكيًا رخيصًا يحوي صورة لأم منير وزوجها وأولادها وهم أطفال.

- ده جوز حضرتك؟ مين في الولاد دول اللي جاب حضرتك النهارده؟
لم ترد أم منير على العاملة ولكنها أشاحت بوجهها لتأمل أثاث غرفتها الشبيه بأثاث المصايف. انتبهت لوجود جرس مثبت بجانب السرير كما هو الحال في المستشفيات فأمسكت بالجرس وكأنه طوق نجاة.

- الجرس ده حضرتك لو عايزة مساعدة، ترني يا حاجة وهتلاقيني أنا أو زميلتي جاين ليكي.. دي صورة الأستاذ اللي جاب حضرتك.. هو لابس بالطوليه؟ هو دكتور؟

كانت تراقب العاملة وهي تضع أغراضها في الدولاب فشعرت وكأنهم ينتمون لشخص آخر. هناك فرق بين الاقتناء والانتماء. وملابسا التي نقتنيها تفقد انتمائها إلينا حين توضع في دولاب غريب عنا.

حاولت أن تقنع نفسها أن هذه الغرفة ستصبح منزلًا مؤقتًا لها حتى يعود منير بعد سنة حسب ما وعداها. كانت تعلم أنه يكذب وأنه لن يعود أبدًا وأن ابنها الثاني لن يزورها بالتأكيد بعد أن تنازلت عن الشقة وأعطت لمنير النقود كلها. منير يحتاج إلى النقود، أما هشام فعنده مصدر دخله الخاص علاوة على أنه قد تحول بعد الزواج إلى إنسان كرهه طمعًا.

هل حرمة من إرثه؟ ولكنها لم تمت فلا يمكن تطبيق أحكام الموارث على الأحياء. قررت أن تتصل بأحد الشيوخ لتسأله عن مدى شرعية ما فعلت فيها بعد.

- حطبي سجادة الصلاة هنا يا بنتي لو سمحتي.

- حاضر يا حاجة.. وادي المصحف كمان هاحطه في الكومدينو اللي جنبك.. عايزة الكومدينو إلى اليمين ولا الشمال؟

حملقت أم منير بدهشة في المرضة وتلعثمت وهي لا تعرف كيف ترد. فلقد أعادها هذا السؤال إلى ليلة عرسها عندما سأها والد منير نفس هذا السؤال. لقد اختارت يومها الجانب الأيسر من السرير ولم تغير هذا الجانب حتى بعد انفصالها واستحوادها على السرير وحدها.

- على اليمين يا بنتي.

الفصل الثامن

- 1 -

في صلاة أميمة أيقن شريف أن أميمة صادقة حقاً وأنها لا تماطل أو تتصنع الرفض حتى ترفع سعر التنازل. طلب منها شريف أن يتحدث بنفسه إلى الشيخ فرفضت وقالت إنه قد يغضب وهي لن تتحمل غضبته أبداً.

أثناء الحديث حاول محمود يائساً أن يبدو كرجل البيت وأن له رأياً في هذا الموضوع ولكن شريف وأميمة كانا يتجاهلانه تماماً حتى انتبه شريف ورق لحاله فبدأ يأخذ برأيه من باب العطف لا أكثر، بل واحتفظ برقم هاتف محمود الذي أخبره بصوت حاول ألا يبدو مرتعشاً بأن يتصل به ليوافيه بآخر التطورات.

ودع شريف أميمة وأرسل لمحمود زوج أميمة رسالة يطلب فيها نمره الشيخ نشأت من محمول أميمة. وجلس في الصلاة ينتظر الرد من محمود وهو يتساءل: هل تسرع بإرسال هذه الرسالة؟

هنا طرقت سلمى الباب ففتح شريف، ودخلت وهي تعتذر عن انفعالها عليه واتهامه هو وعائلته بالعنصرية، وأنه لا يصح أن تهاجم عائلة مستصحب جزءاً منها.

سألها شريف الذي كان قد نسي الأمر تمامًا إذا ما كانت قد أغلقت المكتبة فأجابت بالإيجاب وأشارت إلى أن الساعة قد تجاوزت العاشرة مساءً. أخبرها شريف بما دار بينه وبين أميمة. قالت له إن أونكل محمود زوج أميمة لا يجرب على أن يرسل له نمره من محمولها خاصة لو كانت تخص الشيخ نشأت.

شعر شريف بالندم بالفعل وهو في حيرة من أمره وقبل أن يدرك ما حدث كان قد سحب سلمى إلى غرفة النوم وهي تحاول الاعتراض بلا فائدة. وبعد أن خارت كل قوة المقاومة لديها ونامت على السرير انتفض شريف من فوقها بعد أن سمع صوت رسالة قد أتت إلى محموله. ثوانٍ وعاد إلى الغرفة وهو يخبرها بأن محمود أرسل له النمره.

وفي اليوم التالي قامت سلمى من النوم وضميرها يؤنبها بشدة على ما فعلته مع شريف في الليلة السابقة. صحيح أنها لم تكن أول مرة ولكنها قالت لنفسها بأنها كانت تحت تأثير الصدمة مما فعله مرزوق والطرده من منزلها وأنها لم تسع إلى أن تنام مع شريف في شقة منصور وعلى مرتبتها. أما بالأمس فهي من جاءت ورضخت ووافقت.

نظرت إليه وهو نائم بجوارها فعبثت بشعره وقررت أن تعد له الإفطار. وعلى مائدة الإفطار أكثر ما تعجب منه شريف وسلمى أن الوضع كله يبدو

طبيعياً وكأنها ينامان معاً ويصحيان لتناول الإفطار سوياً منذ سنوات. لقد بدا كل شيء غير مفتعل وطبيعياً وسلساً.

ودعته سلمى بقبلة على وجنتيه وهي تقول إنها ستفتح المكتبة وأخبرها شريف أن وراءه العديد من المكالمات وبعض المشاوير لتسجيل الأوراق ولقاء مقال الهدد ومهندسي الحي لمعرفة كم ستبلغ رشوة رخصة الهدم. لقد تصرفا يومها وكأنهما زوجان. لم يكن حبهما لاذعاً أو عنيفاً بل كان هادئاً ومنطقياً.

اتصل شريف بالشيخ نشأت الذي اندهش من حصول شريف على نمرته الخاصة، وشعر شريف بأن الغضب بدأ يتسلل إلى صوته التليفزيوني الشهر البشوش وكرر رفضه لبيع أميمة للشقة. سأله شريف عن السبب فأخبره نشأت أنها حرة في ملكها، وهنا أخطأ شريف عندما ثار وأخبر الرجل أن هذا ملكه وملك والدته وجدته وأنه إذا كان رجل دين على حق فعليه أن يعرف أنه يساعد أميمة على أكل مال اليتامى والمشاركة في إرث ليس من حقهما.

ندم شريف بعدها بثوان على ما قاله وعلم أنه لازال أمامه الكثير كي يتعلم التحكم في أعصابه. أنهى نشأت المكالمة بهدوء ودون أن يرد على شريف الذي ما إن أنهى المكالمة حتى لكم الباب بيديه من شدة الغيظ.

صعد إلى مس لبنى التي فتحت له الباب فأخبرها وهو على الباب بكل ما حدث. كادت لبنى أن تلطم خديها من شدة الصدمة وهي تسأله لم فعل ما فعله؟ ضغطت على كلمتها وهي تقول بغضب مكتوم:

- غلط... كلمت نشأت من ورا أميمة غلط.. ودلوقتى هي عرفت أن محمود اداك النمرة.. حد يقول لنشأت أنت عايز تاكل مال يتامى؟
 - ما هو غازني لما قال لي هي حرة في ملكها. أعمل إيه طيب يا مس لبنى.
 وبعد المشاورات كانا قد وصلا إلى فكرة ما. شكرها شريف وغادر منزلها وهو يسمع أصوات المزايج تغلق من خلفه. نزل إلى الشارع ودخل إلى المكتبة وانتظر حتى انتهت سلمى من تصوير بعض الأوراق لثلاث طالبات جيالات. نظرن إلى شريف وتسمرت عيونهن عليه فبدأت سلمى في إغلاق الماكينة على الأوراق بعنف وهي تبتسم لهن ابتسامة صفراء.

ببساطة وثقة متناهية في النفس مد شريف يده إلى الأوراق في يدي أجهلن وهو يسألها عن الكلية التي يدرسن بها. وكأنه قد ضغط زرًا ما فبدأ الفتيات الثلاث في الحديث وهن يعرفن أنفسهن إلى شريف ويخبرنه بأنهن طالبات في إحدى الجامعات الخاصة وكن في درس. وفي وسط كلامهن طبعت سلمى على وجتتي شريف قبلة سريعة وهي تقول له إنها ستتهي من العمل وسيذهبان سوياً إلى حماتها.

ضحك شريف وغادرت الفتيات المكان بسرعة قبل أن تنشب سلمى مخالبتها في أوردة أعناقهن. أما شريف فبدأ مستمتعًا بنظرات الغيرة في عيون سلمى، وقبل أن تتحدث وضع يده على فمها وهو يسألها برقة لماذا كانت تبيع الأناجيل.

في زحام الصوان الانتخابي شعرت فاطمة بالوحدة تقاتلها. هوى قرار الباشا بالاستقالة من جميع مناصبه عليها كالصاعقة. فجأة أصبحت في العراء دون أي سند لها. اللعنة على الجيل الجديد الذي أفقدها نجوى والباشا السدين المنيعين اللذين استقر جدول أيامها بسببها أما بعد زوالها فعليها أن تقاسي تغيرات الفصول وتقلبات الأيام. فكرت في الانسحاب ولكنها تعلم أن هذه هي فرصتها الأخيرة للنجاة من أن تعود زوجة محمد لوتو بواب فاشل لعمارة في طريقها للهدم.

بدون الحصانة أقصى ما تستطيع أن تحصل عليه من شريف مبلغ سبعين ألف جنيه، أما بعد أن تكون سيادة النائبة فستحصل على شقة لها في البرج الجديد.

لن يكون الموضوع سهلاً فمناستها يبدو أنها مسنودة للغاية من الشلة الجديدة. تدير حملتها الانتخابية شانتيل جميلة الجميلات وبطريقة أمريكية للغاية فالكلام محسوب، ويتم استخدام شباب متعلم يرتدي تي شيرتات عليها صورة أخت زوج شانتيل التي تتحدث ثلاث لغات ببراعة ولها كتاب في السوق عن الاقتصاد.

أما فاطمة فهي تعتمد على الدعاية المباشرة وزيارة الكباريات من أهل الدائرة الانتخابية في بيوتهم وكذلك التفاوض مع سماسرة الأصوات وإرهاب المنافسين.

قبل أن تصعد إلى الصوان سألت مدير حملتها ما إذا كان الحزب سيأتي بالعجول أم لا لذبحها وتفريقها على أهل الدائرة، فأخبرها الرجل أن المعارضة قد ترى ذلك وكأنه رشوى انتخابية وأن المنافسة لا بد وأن تكون شريفة في هذه الانتخابات.

فهمت فاطمة الرسالة. الحزب الآن بعد غياب الباشا يدعمها بشكل صوري وغير متحمس لفوزها. هي الآن وحدها في مواجهة آلة انتخابية لا ترحم تعرفها جيداً لأنها كانت جزءاً منها؛ لذا عليها أن تتصرف وحدها. اتصلت بزوجها وطلبت منه أن يحضر فوراً ومعه الأطفال. حاول أن يعترض ولكنها أغرته بأن السراق ممتلئ عن آخره بالحشيش.

فجأة ولأول مرة منذ مئات السنين يخفي هذا المخدر معشوق المصيرين من كل مكان. أسبوع كامل وهي تبحث عن أي كمية من الحشيش بلا جدوى. يبدو أن كلام تاجر المخدرات الشاب كان صحيحاً وهناك أوامر عليها بمنعه. بدون حشيش أو نقود أو عجول لن تكون لها فرصة في هذه الانتخابات.

وما إن امتلأت القاعة حتى طلب منها مدير حملتها أن تصعد إلى المنصة. خطت بخطى ثقيلة مرتعشة وسط التصفيق والتهليل من محترفي الانتخابات فحذا حذوهم الموجودون. جلست على المقعد وهي ترى زميلاتها في المهنة من رداحات وسامسة أصوات ومهللين ومهللات ومزورين ومزورات. ابتسمت وهي تحمي كل رجل وامرأة من زميلاتها بالاسم فضجت القاعة بالتصفيق والتهليل. سمعت كلام الباشا بتجنب الدعاية السلبية وقالت

والميكروفون يردد صوتها بصدى صوت مبالغ فيه كما يحبه ساكنو المناطق الشعبية والعشوائية.

- المنافسة على نفس المقعد ست دكتورة ومحترمة.. وأنا ست فلاحه بس علمت نفسي.. هي طول عمرها بنت ناس.. أنا بقى بفتخر أني مرات بواب. ضجعت القاعة بالتصفيق وقامت زميلاتها بعمل ما هو أكثر من اللازم وما إن دخل لوتو بالأطفال. حتى طلبت منهم أن يصعدوا إلى أعلى المنصة. صعد لوتو والأطفال وهم مرتبكون فقامت فاطمة وهي تشير إليهم.

- دول عيلتي.. أكيد انتم ظرو فكم أحسن منا.. دي بنتي.. مدخلاها أحسن مدرسة علشان ما عندناش مدارس حكومة للي زيا.. بس فضلت وراها علشان أعلمها.. دخلتها لغات... البنت دي بتقرا وتكتب عربي وإنجليزي مع أن أنا وأبوها بصمجية.

زغردت بعض النساء وقبلت فاطمة ابنتها؛ فابتسمت البنت ولوحت بيديها للجميع وطلبت منهم فاطمة مغادرة المنصة. رأت بعض الدموع تترقق في العيون. فقالت بصوت متهدج.

- أنا مسحت السلم واستحملت الإهانات، اشتغلت في الحزب وكبرت جواه.. أنا عملت كل ده وعارفة ظرو فكم وبوعدكم اللي عملته لولادي هعملوا لولادكم.

اشتعل الحضور حماسًا وطرب قلب فاطمة كثيرًا. إلا أنه لا يمكنها بعد الليلة أن تنكر حتى بينها وبين نفسها أنها لم تستغل ابنتها في الشحاذة. تسولت الرقة والعطف من الباشا وتسولت موافقة نجوى على تأجير الشقة والليلة

تتسول الأصوات من الناخبين. لم يكن الأمر يخلو بالطبع من مشاعر أمومة حقيقية وذعر مبرر على مستقبلها إلا أن فاطمة كانت تحسن استغلال ظروفها بطريقة مثلى.

مر فأر صغير أمام مدير حملة فاطمة الواقف خلف الصوان فركل الرجل حصة أفزعت القارض الذي اختبأ تحت المنصة. اتصل بمدير حملة منافستها يحذره من أن فاطمة أشعلت الحماس في الحضور. وأنهى المكالمة بالتوصية على أن يوصل سلامه إلى شانتيل وزوجها وأخته.

- 3 -

قطع جرس غرفة الممرضات بدار المسنين الهدوء المخيم على المكان في تلك الليلة لتمشي إحداهن الهوينى إلى غرفة أم منير وهي مستاءة لأنها لن تعرف ما يريد بطل المسلسل التركي البوح به لحبيته. دخلت الممرضة من الباب الذي كان دون قفل بناءً على تعليمات الدار حيث يمنع وجود الأقفال حتى على أبواب الحمامات. وجدت الممرضة أم منير على السرير وحوها بقعة من الدماء وزجاج مكسور. صرخت الممرضة واندفعت خارج الغرفة لتبلغ الطبيب المقيم وهي تدعو ألا يكون قد زوغ من النبشسية لزيارة منزلية كما هي عادته.

تم إنقاذ أم منير وتخييط راسها. غادر الطبيب الغرفة وهو يلعن الممرضات اللاتي يصرن على إنقاذ امرأة عجوز قررت أن تعجل بقضاء الله بدلاً من أن تركها لاختيارها. قال لنفسه إنه لو لا تلك الممرضة الحمقاء لاقتصر دوره

على كتابة شهادة وفاة بدلاً من ضياع وقته فيما لا يفيد. خرج الطبيب مسرعاً كي يلحق بتلك الزيارة المنزلية لمریضة شابة وثرية.

استعادت أم منیر هدوءها بصعوبة وهي تشكر المریضة وتعتذر للجميع. طرق الباب برفق لیدخل المسئول عن وردية الليل وحيا المریضة وأم منیر وأمر رجلاً كان يرافقه بتأمين الغرفة.

لم تفهم أم منیر جملة «تأمين الغرفة» فرفعت عينها إلى المریضة التي ربت على يدها مطمئنة. قام الرجل بفتح الثلاجة الصغيرة وإخراج زجاجة عصير مصنوعة من الزجاج. أمسك مدير الوردية بسكين للفاكهة وأعطاه للرجل ثم قاموا بفتح أدرجها وسط اعتراض أم منیر إلا أن الرجلين لم يعيراها أي اهتمام وكأنها غير موجودة بالغرفة. وما هي إلا دقائق حتى كان الرجلان قد أخليا الغرفة من أي أداة قد تستخدم في الانتحار، حتى إنهما خلعا المرايا وتحفظا حتى على بنس الشعر الخاصة بها.

شعرت أم منیر بالإهانة وهي تقسم أن الكوب قد انكسر منها رغماً عنها فانجرحت وهي تحاول لم بقاياه من على الأرض. اخبرتها أنها مؤمنة بالله ولا تفكر بالانتحار والمریضة تهدئها. سألتها لم قامت بضرب الجرس إذا كانت مصرة على الانتحار؟ خرج الرجلان دون أن ينطقا بكلمة، تاركين أم منیر مع المریضة. قالت أم منیر:

- يا بنتي أنتحريه بس؟

- دي إجراءات زي روتين كدة يا حجة، عارفة إنك ست عاقلة، بس هو النظام كده.

- هم فاكريني مجنونة؟

- ده انتي ست العاقلين يا أم منير، يومين كده وهيرجعوا لك كل حاجة.

- دول أخذوا بروايز الصور والمرايات، يعني لا اشوف نفسي ولا اشوف

ابني؟

- بكرة ابنك يرجع لك وتشبعي منه.

- منير مش راجع، يرجع ليه؟ ده ما صدق عرف يطلع من البلد، إنتي

فاكرة إني زعلانة إنه سابني هنا؟ ده اللي اتحايلت عليه يمشي علشان يشوف

مستقبله، فاكرة إنه نسيني علشان ماكلمنيش ولا مرة؟

- تلاقى ماعاهوش فلوس يا أم منير.

- أو تلاقيه نسي نمرتي، ما هي صعبة.. قلت له يجيب لي نمره سهله..

تلاقيه نسي.

- أنا متأكدة إنه هيكلمك بكرة.

- هو فيه شبكة هنا يا بنتي؟

ربتت الممرضة وقالت لزينب بكذب رحيم:

- بتروح وتيجي يا أم منير.

- أنا برضه قلت كدة، أكيد لما بيكلمني بيدي له مرفوع من الخدمة، تلاقيه

قلقان عليا زي ما أنا قلقانة عليه، منير ما ينساش أمه.

كتمت الممرضة مشاعرها باحترافية من اعتادت على مثل هذه الأحاديث.
ابتسمت أم منير فجأة وهي تقول:

- إنما ازاى الأغبيا دول فاكرين إني ممكن انتحر بينسة!؟

انفجرت الممرضة في الضحك وتساقطت دموعها رغماً عنها واحتضنت
أم منير وظلت معها حتى غابت الأخيرة في النوم.

استيقظت أم منير وهي لا تدري ولا يفرق معها ما إذا كان اليوم هو
الأحد أو الخميس. الأيام هنا كالتوائم المتماثلة. روتين دار المسنين أكثر رتابة
من رواده. توقعت أن يتوفى كل يوم نزيل أو تحدث لأحدهم حادثة تنسي
النزلاء حادتها ولكن رتابة الأيام وندرة الأحداث جعلت مما حدث لأم
منير مادة للنميمة وتسلية أوقات النزلاء في الدار.

أسبوع كامل وهي لا تفتح فمها إلا لكي تأكل. ولا تأكل إلا لكي تنفي
عن نفسها فكرة أنها تريد الانتحار.

بدأت في صلاتها تتحدث إلى الله دون ترديد الأدعية التي تحفظها. لقد
بدأت في المناجاة المباشرة. كانت موقنة أنه لا يجب أن يكون هناك حجاً بينها
وبين ربها. بدأت تسأله لماذا لا يتحدث إليها ابنها. ترجمته أن يرسل لها الرد أو
على الأقل يطمئنها عليه. سألته في وسط صلاتها ما إذا كانت ستره قبل أن
تموت. مر يومان دون أن تحضرها رؤية أو يتصل بها منير.

وفي اليوم التالي تحققت المعجزة. لم يتصل بها منير أو تحضرها رؤية
تطمئنها عليه. لقد رأته واقفاً أمامها في غرفتها وبجواره الممرضة. استيقظت

وهي لا تصدق وشكرت ربها على الرؤية وتساءلت عما تفعل المريضة في حلمها. فتحت الأخيرة فمها قائلة:

- يا حاجة ابنك جه.. منير رجع يا أم منير.

لم تفهم أم منير ما يحدث حتى احتضنها منير وقبل يديها. فقالت وهي مازالت في حالة من الصدمة.

- أنت هنا يا ابني؟ أنت ماسافرتش؟

- الظاهر يا ماما.. لا مصر عايزة تسييني ولا أنا عارف اسبيك.. تعالي معايا وانا افهمك كل حاجة.

وقبل أن تستوعب أم منير ما حدث كانت حقايبها موضوعة في تاكسي والمريضة تودعها ومنير يسترجع باقي نقوده من الإدارة. وبعد نصف ساعة كانت تقف مع ابنها في منطقة الكيت كات وقد أنزل ابنها الحقايب ونقد السائق أجره.

- يا ابني أنا مش فاهمة حاجة.

- ماقدرتش اسبيك يا ست الكل.. كلمت واحد صاحبي كان عايزني اشاركه في محل سمك زمان.. وأخذت لنا شقة في نفس العمارة في الدور الأول علشان ماتتعبيش من السلم.

- إنت بتكلم جد؟

- أيوه يا ماما! مش هاسبيك ولا هسيب المخروبة دي.. وبعدين السمك مجلى برضه من أيام زمان.

- يا ابني أنت عالم بحار مش سهاك.

- علشان كدة سميت المحل «كاريديان»⁽¹⁾.

- يعني إيه؟

- ده يا ماما الاسم العلمي للقريدس، يعني الجمبري يا زينب.

- 4 -

قامت أميمة قبيل الفجر كعادتها وأيقظت محمود كي يؤمها لصلاة الفجر كعادته. قام محمود من النوم وجر قدميه جراً إلى الحمام كي يتوضأ وبعد أن أنهى صلاته قام منتفضاً ولم يسلم على زوجته عائداً إلى الفراش وصوت التكييف الرتيب الذي يساعدها على النوم.

فجأة سمع صراخ زوجته من الصلاة فقام من الفراش مفزوعاً ليجد ابنه وزوجته وحفيدته قد سبقوه إلى هناك ليجد أميمة ترتجف وهي تشير إلى كتاب ما موضوع على المائدة بجوار المصحف الذي اعتادت القراءة منه بعد صلاة الفجر.

اقترب من الباب ليجد أن الكتاب ما هو إلا إنجيل ملوث بالدماء. هدا الجميع من روعها وأخبرتهم أن شريف هو من وراء كل هذا واشترك مع الخادمة لدس الإنجيل ليخفيها ويجبرها على ترك الشقة.

.caridea (1)

جلست في مكانها وقد رفضت أن تحاول النوم، وجلست على الكنبه تتابع عقارب الساعة حتى تشير إلى التاسعة موعد وصول نشأت إلى مكتبه بشركة السياحة. إلا أنها شعرت برغبة جامحة أن تذهب لتلقيه بنفسها. وبالفعل ذهبت إلى شركتها القديمة قبل أن تخرج نفسها على المعاش بسبب مشاكلها الصحية وتفرغها لتربية حفيدتها.

جلست أمام نشأت وأخبرته بكل شيء. سأها إذا كانت تريد أن يتحدث إلى شريف كي يكف عن مضايقتها؛ ولكنه فوجئ أنها تطلب منه الموافقة على البيع كي يرتاح الجميع.

كرر نشأت رفضه وقال لها إن صح كلامها إن شريف هو من دبر هذا المقلب فهذا معناه أنه يريد الشقة بشدة وإنما عليها التريث فيأتيها خير كثير. غادرت أميمة الشركة وهي تفكر وربما لأول مرة في حياتها أن تخالف رأي نشأت. ولكن ما أثار فضولها حقاً هو دلالة الإنجيل والدماء. تذكرت قتيل الشقة رقم ثمانية المسيحي فسرت القشعريرة في بدنها. ماذا لو لم يكن شريف والخادمة هما أي دخل فيما حدث!

عادت إلى منزلها وطردت الخادمة فوراً وأجزلت لها العطاء ودون أن تفسر أي شيء.

استيقظ شريف على مكالمة هاتفية من البنك يرجوه فيها أحدهم بأدب حازم أن يسدد المبلغ المستحق عليه في بطاقته الائتمانية. اندفعت الدماء إلى رأس شريف الذي لم يعتد على مثل هذه المكالمات. شعر وكأن من يحدثه إنما يوجه له إهانة شخصية فصرخ في وجهه وسب البنك الذي لا يحترم عملاءه القدامى وأخبر المتصل بأن هذه أول مرة يتأخر فيها عن السداد وطالب بأن يكون البنك أكثر لياقة.

لم يهتم المتصل المدرب على ردود الأفعال هذه وهو يسأله متى سيتمكن من التسديد فأخبره شريف بأنه لن يسدد وليخبطوا رأسهم في الحائط. لم يفعل المتصل وهو يخبره بأنه إن لم يسدد فسيقوم البنك تلقائياً بإيقاف البطاقة وسيرسل بياناته للشئون القانونية والتي ستبلغ عنه البنك المركزي فلا يستطيع شريف أن يتعامل مع أي بنك في مصر أو خارجها. شكره المتصل وأنهى المكالمة فرمى شريف محموله من شدة الغضب وهو يصرخ.

لعن شريف فكرة اصطحاب سلمى إلى سيتي ستارز مرة أخرى كي يتابع لها ملابس جديدة والتي قضت على مصروفه الشهري من والده تحت حساب مشروع العمارة قبل نهاية الشهر بأسبوع. كما قضى الحشيش والكوكايين الذي ابتاعه لمنير وبعض الخراجات على المبلغ الذي كان متبقياً في حسابه.

بدأ والده على الناحية الأخرى من المكالمة بلومه على تبذيره وأنه قد مضى شهر منذ مغادرة أم منير منزلها وهو لم يحرز أي تقدم. كتم شريف غيظه

وسخطه وهو يعتذر لوالده الذي أخبره بأن يأتي إليه في الفيلا ليأخذ مصروفه الشهري. فهم شريف أن والده يعامله كما يعامل هو لوتو.

عاد شريف من عند والده وقد سدّد قسط البطاقة الائتمانية فروى حسابه البنكي الذي بورته النساء والمخدرات. أقسم شريف أنه سيكون أكثر حرصاً وأسرع وأشدّ حزمًا وسيعمل على الإفلات مجددًا من أي قبضة تحاول التحكم فيه.

عندما عاد أخبر سلمى بأنه ينوي أن يبلغ عن فاطمة بأنها تؤجر الشقة رقم سبعة لأغراض الدعارة إلا أن الفتاة حذرتَه أن الوضع القانوني الآن سيزج بنوال وهدى صاحبتَي الشقة إلى مباحث الآداب وستدعي فاطمة أنها لا تعلم شيئًا.

«فلما ضاقت حلقاتها، ضاقت أكثر».

خرج من المكتبة فرأى لوتو يجلس على الدكة فأشار إليه أن يأتيه فأطاع اللوتو سيده حائياً؛ فأخبره شريف أنه يريد منه طلباً عجيباً بعض الشيء. قال له لوتو بأن كل ما يطلبه مجاب.

لم يحاول لوتو فهم طلب شريف العجيب ولكنه أثار أن ينفذه؛ فهو لن يكلفه شيء وشريف قد أجزل له العطاء. ذهب إلى سور حديقة الحيوان ووقف تحت إحدى الأشجار وبدأ يقذفها بالطوب والحجارة.

ربما كانت هذه هي أول مرة في حياته يرى شريف لبني بعيدًا عن المدرسة والعمارة. ركبت معه السيارة بعد أن اتفقا على أن يلف معها شريف بحثًا عن شقة جديدة لها لتنتقل إليها بعد أن تنازل عن شقتها. وفي السيارة أخبرت شريف أنها لا تعرف لها بيتًا آخر سوى هذا الشقة ولا تعلم كيف ستعيش بعيدًا عنها وعن الجيران. إلا أن شريف أخبرها بأنه قريبًا لن يكون هناك أي من أصدقائها أو جيرانها وهذه سنة الحياة.

قابلا السمسار واتجها إلى أول شقة بالزمالك وصعدا إلى الدور الثالث ليفتح لهم السمسار ومعه بواب العمارة الشقة؛ ليجد شريف نفسه في صالة مهيبة سقفها عال وأرضيتها باركيه خشبها أرو. سأل شريف السمسار ما إذا كانت هذه الشقة (إيجار قديم) أم (تمليك) أم (إيجار قانون جديد) فأجابه البواب بأن الشقق المتاحة كلها بنظام التمليك. هرش شريف رأسه وهو يرى لبني تمشي بثقة بجوار السمسار وتهز رأسها بهدوء من لا تريد أن تبدو مبهورة. سأل شريف البواب عن السعر الذي يريده صاحب العمارة فأجابه البواب «سته وممكن تنزل لخمسة ونص» أي ستة ملايين من الجنيهات ومن الممكن الفصال مع صاحب العمارة كي يخفض السعر إلى خمسة ملايين ونصف. في الواقع لم يكن السعر مبالغًا فيه فالشقة ترى النيل وحديقة الأسماك في نفس الوقت ومساحتها تقرب من الثلاثمائة متر مربع والأرضية بالكامل خشب

أرو وتشطبيها فاخر ولا ينقصها سوى أن تفرش فقط. ولكن من أين للبنى
بهذه الملايين!؟

بصوتها العالي الحاد الأخنف نادى عليه من داخل إحدى الغرف؛ فاتجه
هو والبواب ليجداها مع السمسار في الشرفة تتأمل المنظر البديع للنيل.
وقف الأربعة ثواني احترامًا لمهابة المشهد حتى قالت لبنى لشريف إن هذه
الغرفة واسعة وملحق بها حمام. وثبت إلى داخل الغرفة والثلاثة الرجال
يوسعون لها الطريق.

سألت شريف عن رأيه في أن تكون هذه هي غرفة النوم الرئيسية. تبادل
شريف النظرات مع السمسار والبواب ووافق لبنى على رأيها. فحصت لبنى
كل ستيمر في الشقة وهي تسأل شريف عن الأثاث وألوان الستائر والفرش
المودرن وتفضيلها للاستايل وشريف يجارها حتى بدأت في الحديث عن
غرفة الأطفال. هنا لمح في عيون السمسار والبواب نظرات ساخرة وأدياها
باحتراف وبدأ يشك في أن لبنى تعاني من حالة نفسية ما.

لم يكن استنتاج شريف بعيدًا عن الحقيقة على كل حال. فلبنى التي تعدت
الستين من عمرها ولم تتزوج من قبل لم تتح لها فرصة أن تبحث مع رجل عن
شقة من قبل. واليوم قررت أن تعوض هذا الشعور فلفت مع شريف على
أكثر من أربع شقق في الزمالك وحين عادا إلى العمارة صرحت لشريف أنها
صدمت من أسعار الشقق بالزمالك وطلبت من شريف أن يبدأ غدًا البحث
في المهندسين.

ليلتها صعدت لبنى إلى شقتها وأغلقت المزاليج خلفها كعادتها ودخلت إلى الشقة وهي خجلة منها وكأنها برؤيتها لشقق أخرى تكون قد خانت تلك الشقة التي قضت فيها كل حياتها. اتجهت إلى الطرقة الطويلة المظلمة دائماً والتي تفضي إلى غرفة نومها وهي تشعر بأن الجدران ترمقها بنظرات غاضبة. التفتت فجأة خلفها بعد أن سمعت همس الجدران لبعضها البعض عن نيتها لترك العمارة.

دخلت لبنى إلى غرفة نومها سريعاً لتغلق بابها وهي تلهث من فرط الانفعال. نظرت من خلال ثقب المفتاح لتتأكد أنه لا يوجد أحد بالخارج.

أخيراً تماسكت وفتحت الدولاب لتسمع نفس الأصوات الهامسة مرة أخرى. تشجعت ومدت يدها لملابسها داخل الدولاب مصدر الصوت ورمت كل ملابسها على الفراش فلم تجد شيئاً.

ارتدت قميص نوم وفتحت الباب، ومشيت بحذر داخل الطرقة فصفق باب من خلفها بفعل تيار هواء؛ فانتفضت وهرعت إلى المطبخ فاتحة الثلاجة ويداها ترتعشان، وهي تغني بصوت عال أغنية لوردة الجزائرية لتغطي على تلك الأصوات. أخرجت من الثلاجة بيضتين وبعض الدقيق وشرعت في إعداد «كيك».

«وأنا بعمل الكيك، كل الأصوات اللي جوة دماغى بتسكت»

وقد كان.

باتت سلمى ليلتها بجوار شريف في غرفة خاله. جلست تحديق في هذا الرجل الذي صادفته طفلاً وأحبته مراهقاً ورغبت فيه رجلاً. لم يلب طلبها

النوم فقامت من مكانها وتجولت في الغرفة. نظرت إلى بنطاله الجينز ودفعتها الفضول إلى أن تفتش جيوبه. أخرجت حافظة نقوده فلم تجد شيئاً سوى كارنيه نادي الجزيرة وأوراق ثبوتية وكروت كثيرة لأشخاص وشركات: مديري شركات دواء وسفاسرة وأطباء ورجل يدعى عوني يعمل كمقاول وكارت لضابط شرطة وضع رقم تليفونه والفاكس الخاص به. تساءلت من الذي مازال يستخدم الفاكس. فتشت جيوبه لتجد علبة صغيرة للغاية فتحتها لتجد بداخلها صليياً فضياً. اندهشت سلمى وهي تمسك صليياً لأول مرة وأعدت كل شيء إلى مكانه.

أصرت سلمى في اليوم الثاني على إغلاق المكتبة ومشاركتها رحلة البحث عن الشقة لمس «لبنى عادل جرجس». ابتسم شريف وهو لا يحاول تفسير أو فهم مجيء سلمى معها وكالعادة أفضى البحث عن الشقق إلى لا شيء.

وعندما عادوا إلى العمارة سألته لبنى عن وجهتهم في اليوم الثالث فتحجج شريف بأن وراءه ارتباطات هامة أما سلمى فقالت بأنها لا تستطيع أن تغلق المكتبة لمدة يومين وأنها فعلت هذا خصيصاً من أجل مس لبنى. إلا أن الأخيرة لم تهتم لما قالته سلمى ووجهت حديثها لشريف وهي ترجوه أن يتحملها يوماً واحداً آخر وأنه سيكون اليوم الأخير.

وافق شريف على مضمض متجاهلاً نظرات سلمى الغاضبة وهو يقترح أن ميزانية لبنى لن تتحمل شقق المهندسين والزمالك ومن الممكن البحث في مدينة ستة أكتوبر. رفعت لبنى حاجبها وهي تستنكر أن يطلب منها شريف أن تسكن في الصحراء. ابتسم شريف وهو يخبرها بأنها كانت

صحراء منذ خمسة عشر عامًا أما الآن فهي مدينة مزدهمة. لم تتحمل سلمى ضغط الأعصاب عليها وقد بدأت تشك بالفعل أن لبنى تعاني من خرف الشيخوخة وقد تعجب بشريف ولكنها نفضت هذه الأفكار وهي تركهما متجهة إلى المكتبة.

وفي المساء صارحت سلمى شريف بأنها تشك في لبنى فأخبرها شريف بأنها لا تعاني من خرف الشيخوخة؛ بل هي مريضة نفسياً بالفعل ولكنها غير مؤذية. صارحها شريف بأنها صاحبة فكرة دس الإنجيل الملوث بالدماء لأميمة بعد أن أخبرته أنها مريضة بالقلب ولا تتحمل الصدمات. أخفت أميمة خبر مرضها عن كل الجيران عدا صديقة عمرها لبنى.

انتفضت سلمى ووقفت في وسط الصالة وسحبت من شريف الجوينت الذي يدخنه وبدأت تدخنه وكأنها تحاول تخدير ضميرها. ساد الصمت لثوان قبل أن تهتف سلمى.

- أنت مجنون يا شريف!؟ أنت هتموت أميمة علشان تاخذ الشقة!؟

- مش هتموت.. وهي عايزة تمشي.. أنا بحررها من نشأت.. أنا بعمل فيها خير.

- ممكن الشغالة تعترف انك أنت اللي قلت لها تحط الإنجيل لأميمة.

عاد شريف برأسه إلى الوراء وسحب نفسين ثم قام وقبل سلمى ناقثاً الدخان برفق داخل فمها فسعلت وابتعدت قليلاً وجلست على الكنبه فاحتضنها وهو يقول.

- الشغالة مش ممكن تعترف علياً.

- مش لبنى قالت لك الشغالات لازم تتغدى بيهم قبل ما يتعشوا بيك وكلام كدة مش فاكراه.

- مش الشغالة اللي حطت الإنجيل.. ده محمود جوزها.

سألته سلمى كيف أفنع محمود بدس الإنجيل؟ مط شريف شفته قائلاً إنه لم يبذل أي مجهود في إقناع محمود بهذا الأمر بل على العكس تمامًا لقد بدا الرجل متحمسًا بشدة للأمر ربما أكثر من شريف نفسه. صارحها الأخير بأنه لا يعلم هل حماس محمود كان بسبب رغبته في التخلص من تحكم نسات في زوجته أم أنه متعجل للتخلص من المرأة نفسها.

أيقنت سلمى أن شريف قد تغير كثيرًا. لم يعد ذلك الشاب المدلل الوسيم بل أصبح رجلًا قاسيًا حازمًا صلبًا مهابًا على استعداد لأن يزيح أي عقبة تقف أمامه مهما كانت. وهي تحب هذا النوع من الرجال حتى لو ادعت أنها تفضلهم من المثقفين ذوي الأخلاق والمثل العليا.

الحق أنه لا يمكن التأكد في هذه اللحظة هل كانت سلمى طوال عمرها ميكافيلية تدعي المثالية بسبب ضعفها أم أنها بسبب ضعفها الآن قررت مسaire شريف في وصوليته وقسوته.

من ناحية أخرى كانت سلمى ترى أن قوانين الإيجار القديم قد وضعها جمال عبد الناصر لحماية أمثالها من جشع الملاك؛ ولكنها بعد أن صارت على الناحية الأخرى ترى أنه لا يمكن لزوجها المستقبلي أن يقف مكتوف الأيدي وهو يرى أرث عائلته الشرعي يحتكره هؤلاء السكان الطامعون.

«العدل نسبي والحق وجهة نظر».

وبعد قليل طرق لوتو باب المنزل ففتحت له سلمى الباب بعد أن قامت بإحكام أزرار قميصها التي فتحها شريف وتناست أن تغلقها. حياها لوتو بمنتهى الأدب ومد يده بكيس أسود فأخذته منه ثم غادر. قام شريف من مكانه وأخذ الكيس من سلمى ووضعها على المائدة ودخل إلى المطبخ ليعيد ملء كأسه بالويسكي ليسمع صراخ سلمى في الصالة فيعود أدراجه مسرعاً ليجدها تحرق فزعاً فيما داخل الكيس.

- 7 -

توقف طيار الدليفري أمام باب العمارة وهو ممسك بإحدى الفطائر ليتأكد من ورقة العنوان مرة أخرى. دخل إلى العمارة ليجد باب المصعد مغلقاً بالمفتاح فنظر إلى الورقة مرة أخرى، عاد إلى المدخل لبحث عن بواب فلم يجده بالطبع؛ فقرر أن يصعد إلى الدور الثاني وهو يدعو الله أن يقدر السكان تعبهم ويعطوه بقشيشاً سخياً.

فتح محمود زوج أميمة الباب فأعطاه الرجل فطيرة كبيرة وفاتورة. نادى الأب ابنه سائلاً إياه ما إذا كان قد طلب فطيرة فنفى. نادى محمود زوجته. أتت أميمة مدفوعة بفضولها فترك لها الزوج مسرح الأحداث كله وعاد إلى الشرفة ليتحدث مع صديق له في التلفون. على الباب قال لها طيار الدليفري:

- مش دي حضرتك واحد شارع عز الدين وده الدور التاني شقة رقم
اتنين؟

- أيوه.. طب باسم مين الطلب.

- صمويل جرجس.

- مافيش مسيحين في العمارة غير لبنى.

- هو قايل في المحل إنه قاعد في البلكونة المقفولة.. وشدد على موضوع
البلكونة المقفولة.

خفق قلب أميمة لما سمعته عندما تذكرت أن هذا هو اسم الطالب الذي
لقي مصرعه في الشقة رقم ثمانية. هل هذا مقلب؟ ولكن من يدبره؟ ولماذا؟!
دخلت إلى الشرفة المغلقة لتجد غرابًا نافقًا يرتدي الصليب، ولم تتمكن حتى
من الصراخ قبل أن تفقد الوعي.

- 8 -

كان وصول الشيخ نشأت إلى العمارة حدثًا جليلاً؛ فالرجل مشهور إلى حد
كبير بفضل برنامجه التلفزيوني، ومعروف أنه شيخ قريب من الله والسلطة.
استقبله لوتو استقبال الفاتحين أما فاطمة فلقد انتحت به جانبًا لتخبره أنها
تريد أن يشرفها في صوانها الانتخابي غدًا. لم يرد عليها نشأت بالقبول أو
بالرفض وإنما اكتفى بتقديم المشيئة.

أما لو تو فلم يكن يعرف أنه هو السبب في زيارة نشأت اليوم لأميمة. لقد طلب منه شريف أن يأتي إليه بغراب نافق فذهب إلى الأشجار بجوار حديقة الحيوان وظل يقذفها بالطوب حتى تمكن من إصابة غراب. وضع الغراب في كيس أسود وعاد به إلى شريف الذي علق الصليب الفضي في رقبة الجيفة وأعطاهها لمحمود الذي اتصل بمحل الفطير بعد أن فتح الشرفة المغلقة ووضع الغراب هناك.

فتح الباب محمود مستقبلاً نشأت بحفاوة مبالغ فيها ليداري توتره من أن يكون نشأت رجلاً واصلاً بالفعل ويكتشف أنه كاد يصيب زوجته بأزمة قلبية مقابل مكافأة وعده بها شريف حين توقع أميمة على التنازل عن الشقة. جلس نشأت في الصلاة وأتته أميمة وهي ذابلة وحكت له عما حدث وأنها كادت تصاب بأزمة قلبية لولا أن زوجها لحقها بالدواء وجعلها تمضغ بعض حبيبات من الأسبرين فتجاوزت الأزمة بحمد الله. قال لها نشأت:

- يا أميمة.. إنني ست متعلمة.. الأرواح بتروح عند بارئها.. ما فيش حاجة اسمها عفاريت.

- بس فيه جن يا شيخ.

- الجن ما يبطلش فطير يا حاجة أميمة.

- أمال إيه الغراب ده؟

- مقلب سخيف.

- لا مش مقلب يا شيخ.

- طب اطلعي معايا الشقة اللي بتقولي عليها مسكونة.

- أبداً ولا عمري اخطيها.

- طب ناديلي صاحب العمارة وأنا اطلع معاه ونشوف موضوع العقاريت

الجعانة اللي بتطلب فطير؟

وبعد ربيع ساعة كان شريف يدخل مع نشأت إلى الشقة رقم ثمانية وثالثهما شمعدان مثبت به ثلاث شمعات أعطتها إياه أميمة وهي تشدد عليها أن يعيدها.

تأمل نشأت المكان المقبض والذي تفوح منه رائحة الموت ويغلفه الظلام. نادى الصنبور اليانس من المطبخ عليهما فاستجاب نشأت لطلبه أخيراً ودخل وحده بشجاعة وأغلقه. تردد شريف قليلاً وهو يرى جسد نشأت يتلعه الظلام فدخل وراءه المطبخ ليجد نشأت فجأة أمامه في دائرة النور وكان الرجل يسري ولا يمشي على أقدام فأجفل شريف قليلاً ولكنه تماسك. قال له نشأت وهو يضع يده عليه:

- إنت لما كلمتني وقلت انك صاحب العمارة كنت فاكر إني هقابل رجل

عجوز زي حالاتي... بس انت يا شريف ما شاء الله شاب ووسيم ومتعلم

- شكراً يا مولانا.

تجول نشأت في الشقة ومن خلفه شريف الممسك بالشمعدان والأول يتمتم بأدعية ولا يدخل غرفة حتى يقول «السلام عليكم». سرت القشعريرة في جسد شريف رغم أنه هو من دبر الأمر كله بعد أن هاجم ثقته خاطر

مزعج أن تكون الشقة مسكونة بالفعل وأن أدعية نشأت ستقلق الأشباح في مضاجعها.

وصلا إلى الحمام وتذكر شريف أفلام الرعب التي كان يعشقها وهو مراهق. لقد انقلب السحر على الساحر وبدأت خطواته تثقل ونبضات قلبه تتسارع.

سأله نشأت عن الغرفة التي قتل فيها الشاب فدخلوا معاً إلى الغرفة ذات السقف المهدوم والتي تلمع في سقفيها سماء القاهرة الملوثة التي حنت عليهما ببعض من أنوار مدينتها العجوز.

جلس نشأت على الفراش الملوث ببقع الدماء بأعصاب ثابتة، حسده عليها رفيقه ونظر إلى الفجوة بالسقف والتي تسللت منها هالة من ضوء القمر أحاطت بنشأت مما أضفى عليه المزيد من الرهبة.

- إنت مؤمن بالعفاريت يا شريف؟

- مش عارف يا مولانا.

- إنت عارف أنا رفضت ان أميمة تبيع ليه؟

- مش موضوع بيع يا مولانا خالص.. أنا صرفت نظر عن الموضوع ده.

- طب مادام صرفت نظر بقى يبقى امشي.

وقام بالفعل إلا أن شريف أمسك يده برفق وهو يدعو أن يجلس. ابتسم نشأت وهو يقول:

- أنا مش معترض على إنها تبيع أو تتنازل.. أصل ده حقك ومقدرش والعياذ بالله إني أنصحها إنها تاكل سحت على اليتامى حتى لو كانوا في سن والدتك.. برضه هم قدام ربنا يتامى وده حقهم.

انفجرت أسارير شريف لما سمع، وهو يشكر الشيخ نشأت الذي رآه مختلفاً عما كان يتخيله.

- أنا بس كنت عايزها تتأني لأن لهوجتها دي ممكن تخسرنا فلوس. قلت لما صاحب العمارة يعرف اني رفضت ممكن ساعتها يعلي السعر.. أو يبجي لي ويكلمني وتفاهم.. بس انت لما كلمتني كنت صعب شوية يا شريف.. وأقسمت اني مش عايز اتفاهم معاك.. لكن انا كده عرفت انك شاب طموح وممكن تموت أميمة بأزمة قلبية وانا ماقدرش اشيل وزرها.

- إنت بتتهمني يا مولانا اني انا اللي رميت عليها الغراب الميت ابو صليب؟

- لا يا دكتور شريف مش بتهمك ولا حاجة.. قولي بقى عرفت منين موضوع الغراب والصليب.. أنا ماقلتش... ولا أميمة قالت... ولا جايز العفاريه قالت لك!

تسمر شريف وحمد الله على نعمة الظلام كي لا يرى نشأت احمرار وجهه. اقترب نشأت من وجه شريف وتلاقت نظراتهما لثوان. وجه نشأت عليه ظلال دافئة من ضوء الشموع أما شريف الذي ابتعد قليلاً فلا ينير وجهه سوى ضوء القمر البارد.

اقترب نشأت من شريف قائلاً:

- أنا هقول لأميمة تتنازل لك عن الشقة بأربعمائة ألف جنيه يعني انت هتدفع لك مية مية وخمسين ألف جنيه زيادة عن اللي هي كانت عايزاه.. استنى قبل ما ترد.. أنا ماكلش سحت أبداً... إنت هتديها المبلغ ده وأنا همضي معاك عقد ثلاث شقق في العمارة الجديدة وهديك العرايين.. يعني انت هتطلع كسبان... طبعاً هتديني الشقق بسعر خاص.. أنا بشتري سمك في مية.. والمبلغ ده هينفعك.. ومنظري قدام أميمة اني نفعتها... كده كلنا كسبانين.. هاه؟ نقرأ الفاتحة؟

- 9 -

مر أسبوع واقترب موعد الانتخابات وشريف لا يفكر سوى في عقبته الأخيرة «فاطمة» التي على وشك أن تصبح نائبة بمجلس الشورى ذات حصانة. دعا شريف لوتو إلى منزله وفي الصالة أخبره بأنه يتحدث إليه كرجل البيت وأنه يكن كل الاحترام لوالدته دادة عزيزة التي ربه هو وأخته ووالدته وخاله رحمه الله. طلب منه شريف أن يخلوا الشقة رقم سبعة التي يسكنون فيها بلا أي حق، كما طلب منه أن يسأل عزيزة ما إذا كان هناك عقد لغرفة البدروم أم لا.

هرش لوتو في رأسه وهو يعده بأنه سيسأل والدته عن البدروم وسيستشير فاطمة في موضوع إخلاء الشقة رقم سبعة. ابتسم شريف هازئاً وهو يسأل عمّن فيهما رجل البيت.

في نفس الوقت كانت فاطمة تمشي في إحدى حارات دائرتها الانتخابية وبجوارها مدير حملتها الجديد بعد أن فصلت القديم الذي كان يخبر منافستها بكل تحركاتها.

وصلت مع المدير الجديد إلى بناية شبه مبنية، علق على مدخلها لافتة كُتب عليها بالدهان الأحمر عبارة «ممنوع بيع وتعاطي المخدرات في الشارع». دخلت إلى البناية في شقة بابها مفتوح في الطابق الأرضي واستقبلها رجل ملتصق يرتدي الجلباب وبجواره رجل نحيل قصير القامة لحيته نابثة. طلبت فاطمة من الأخير الذي لم يكن إلا سمسار أصوات أن يقلل سعر الصوت قليلاً. أغلظ الرجل الأيمان وهو يشهد الرجل الملتحي أن شانتيل عرضت ضعف المبلغ عليه وأنه لم يرد أن يعلي السعر عليها لأنه رجل محترم. أخبرها الملتحي بأن سمسارة الأصوات في هذه الدائرة الانتخابية رجال تعرف الله وأنهم يوصلون المبالغ إلى مستحقيها.

تدخل مدير الحملة واقترح على الرجلين أن يؤجلا الدفع حتى بعد الانتخابات. ابتسم الرجل النحيل وهو يقول مثل شعبي أن بعد العيد لا يصنع الكعك.

تعهدت لهم فاطمة بأنها حال فوزها ستغدق عليهم من العطايا والأموال أضعاف ما يطلبونه الآن. إلا أن الرجلين رفضا بشدة إلا أن يكون الدفع مقدماً. قال لها الملتحي: إن شيوخ بعض الزوايا القريبة من هذه المكان قد أسروا إليه بأنهم يفكرون أن تكون خطبة الجمعة القادمة عنها وعن الشكوك حول سمعتها وأنها قوادة. صدمت فاطمة مما سمعت إلا أن الملتحي رفع

سبأته إلى السماء قائلاً بأن الله يشهد بأنه قد نهرهم عن الخوض في أعراض المسلمين المحصنات.

فهمت فاطمة ما يرمي إليه الرجل. قررت فاطمة أن تكتب على نفسها وصولات أمانة ففوزها في الانتخابات أصبح بالنسبة لها مسألة حياة أو موت. فإن نجحت فسيصبح لها شأن آخر حتى بعيداً عن الحزب. وإن لم تخط داخل البرلمان فستطرد شر طردة هي وعائلتها خارج العمارة وحينها لن يفرق معها دخولها السجن.

وافق الرجلان على الاقتراح واعترض مدير حملتها بشدة ولكن نظرة واحدة منها جعلته يعيد لسانه إلى فمه نادماً. قالت فاطمة إلى الشيخ الملتحي إن الشيخ لا بد أن يوعوا المصلين في خطبة الجمعة عن شائيل وفضائنها وأنها تدعم منافستها التي هي في نفس الوقت «سلفتها». وقعت فاطمة على وصولات الأمانة والرجلان يعدانها بأن كل شيء سيكون على ما يرام.

وفي يوم الجمعة ارتدى لوتو جلباباً أبيض واندس وسط المصلين ليتأكد من أن الشيخ وفي بوعدده. تنقل لوتو من زاوية إلى أخرى ليتأكد أن خطب الجمعة في الزوايا موضوعها عن شائيل كما اتفقت زوجته مع الشيخ.

أما عندما قابلت أحد رجال جماعة الإخوان المسلمين فلم تسر الرياح كما تشتهي سفنها. لأسباب رفض الرجل إفصاحها أخبرها بأن أصوات الجماعة ستذهب إلى منافستها حسب توجيهات أولى الأمر بالتنظيم. اندهش مدير حملة فاطمة وهو يستنكر أن تتعاون جماعة مسلمة حافظت على الإسلام من الإندثار حسب قولهم أن تتعاون مع مرشحة للحزب الوطني. ضحك

الرجل وهو يشير إلى أن فاطمة هي أيضًا ممثلة لهذا الحزب الفاجر. أفهمته فاطمة أنها تعتبر الآن مستقلة وأن الحزب تركها وحدها وفضل مساندة أخت زوج شانتيل المومس المسيحية. لم يطرف جفناً للرجل ونظر لها مدير حملتها بلوم على الهجوم على شانتيل بهذه الفجاجة. أخبرهما الرجل بأن الثقة في اختيار مكتب الإرشاد لا تناقش وأنهم على علم بما يفعلونه. قال الرجل إن هناك تريبطات سياسية معقدة أقسم بأنه لا يعلم عنها شيئاً.

غادرت فاطمة المكان غاضبة وهي تسب في الإخوان. قالت لنفسها: إن الباشا كان على حق حين قال: إن الشلة الجديدة بالحزب لا يفقهون شيئاً في السياسة وإنهم سيدفعون مصر إلى الهاوية بتصرفاتهم الحمقاء.

وعندما عادت فاطمة إلى بيتها الجديد واطمأنت على نوم أولادها وقبل حتى أن تفكر في منح نفسها زوجها هذه الليلة من عدمه سمعت طرق على الباب. فتحت الباب لتجد شريف أمامها مغتصباً لابتسامه صفراء. دعت فاطمة للدخول ولم تكلف نفسها حتى مشقة إيقاظ لوتو زوجها فهي تعلم أن اللعب على المكشوف منذ أن أخبرت هشام أخا منير بنية الأخير بالتنازل عن الشقة.

في الصالون الذي تحتل حائطه رسمة مشوهة للعدراء وابنها جلس شريف أمام فاطمة ودخل الأول في الموضوع دون مقدمات وطلب منها إخلاء هذه الشقة فوراً لأن مقال الهدد يريد استلامها لبدأ عمله.

ابتسمت قائلة:

- سبعين ألف جنيه بس.

ابتسم شريف وقد ارتاح لأنه قد بالغ في الأمر وأن الموضوع سينتهي بهذا المبلغ البسيط. فكرت فاطمة للمرة الألف هل ترضى بهذا المبلغ وتسدد ديون حملتها الانتخابية وألا تبدأ حرباً هي لا تعلم مداها؟ تستطيع أن تبدأ من الصفر وهي نائبة بمجلس الشعب ولكن أين ستسكن حينها؟ هز شريف رأسه وهو يمد يده لفاطمة موافقاً إلا أن أحلامه تبخرت حين أردفت فاطمة قائلة:

- سبعين ألف للبدرين وتلتمة ألف للشقة دي.

- نعم؟!!!! وهي دي شقتك يا فاطمة؟

- أيوه شقتي ونجوى ماضية عقد.

- اسمها ست نجوى أو نجوى هانم.. العمارة باسم أمي وجدتي مش باسم طنط نجوى.

- خلاص.. روح اطعن في العقد ودخلها السجن.

- أنا هوديكي انتي في داهية.. هبلغ انك مدوراها دعارة.

- ساعتها ست نجوى وست نوال هما اللي هيتشدوا.. مش بتقول إن العمارة بالي فيها باسمهم؟

- يا فاطمة انتي مش قدي.

- دكتور شريف.. أنت اللي مش قدي.

خرج لوتو والأطفال على صوت المشادة بين شريف وفاطمة. نظر شريف للوتو وهو يخبره بأن يتصرف كرجل البيت ويجبر امرأته على إخلاء الشقة.

لم يرد لوتو ويكت الطفلة من فرط الانفعال عندما صفق شريف باب الشقة خلفه.

لم يغمض لشريف جفن ليلتها من شدة الغضب. فاطمة التي كانت تقوم بتنظيف منزله وتطبخ الحلاوة لنساء العائلة تهدده الآن وتستولي على حلمه. وما إن أشرقت الشمس حتى كان في سيارته وقد اتخذ قرارًا صعبًا.
- نجوى عز الدين فيلا 14 ب.

هكذا هتف شريف لرجل الأمن الرابض بملل أمام بوابة القرية السياحية بالساحل الشمالي. فتح له البوابة بكسل لتستقبله نجوى في حديقة فيلتها. لم يكن اللقاء غريبًا أو متوترًا كما توقع شريف. استقبلته نجوى بالأحضان والقبلات ودعته ليشرب معها كأسًا من النبيذ الفاخر.

قبل أن يدخل شريف في الموضوع الأساسي الذي سافر من أجله حوالي ثلاثمائة كيلومتر أخبرها عن نيته الزواج من سلمى. اندهشت نجوى في بادئ الأمر إلا أنها على عكس المتوقع شجعتة وأخبرته بأنها فتاة مطيعة وقد ذاقت طعم الشقاء؛ لذا فهي ستقدر النعمة عكس الفتيات الثريات المدللات اللاتي لا يشعرن بالرضا أبدًا. اندهش شريف مما قالته وأخبرها أنه بصراحة توقع أن يكون رد فعلها مماثل لما فعلته حين تقدم والده لخطبة والدته.

هزت نجوى ساقها ونظرت مليًا إلى كأس النبيذ وكأنها تقرأ الإجابة على سطحه وقالت بصوت هادئ:

- إنت فاكرا في كنت رفضت ابوك علشان أقل من مستوى عيلتنا؟ أبوك ماشقيش.. جدك أبو أبوك هو اللي شقي علشان يعلم ولاده... صحيح أبوك ماكانش معاه فلوس بس مادا قش الحرمان.

- لا يا طنط.. بابا حكالي إنه كان بيمشي تمانية كيلو لمدرسته كل يوم الصبح.

- إنت رحت بيت جدك اللي في الزيتون؟

- أيوه.

- مش فيه قدامه مدرسة؟ هي دي مدرسة ابوك... يادوبك كان بيعدي الشارع... أبوك اتجوز امك علشان يحسن وضعه الاجتماعي وكان بيتقرب مني علشان اشوف له واسطة يحسن بيها وضعه الوظيفي والمالي طبعًا.

- أنا مش حابب اتكلم يا طنط في الموضوع ده.. أنا مبسوط إنك مشجعة جوازي من سلمى.

- سلمى هتتجوز واحد أغنى منها وده عادي... أبوك وامك كان الوضع معكوس... وتعالى بالمرّة نفتح موضوع البيت علشان نصفني النفوس... عارف يعني إيه يا شريف تبقى كبير العيلة؟... لو كنت قلت لجدتك بعد أخويا ما مات إن البيت ده بتاعها هي وولادها، كانت جابت لامك وخالك الله يرحمه جوز ام يطمع فيهم زي ابوك ما كان طمعان في امك.. أنا مشكلتي مع ابوك مش فقره لكن جشعه.

- ما تطلعي بابا من الموضوع يا طنط.

- اسمع بس.. إنت كبرت وموضوع العبارة ده خلاك تشوف حاجات كثير.. باباك الدكتور المحترم فضل يجرم على موضوع الورث وزق خالك الله يرحمه علياً، مش علشان هو عايز مصلحة سعيد الله يرحمه، لكن علشان طمعان في ورث نوال كمان.. لو كنت طاواعت سعيد كان زمانه شافط ورث امك وفتح المستشفى اللي كان هيموت عليها وطلقها.

- يعني بابا اللي غلطان؟

- لأ.. أمك وخالك هم اللي ما طلغوش ناشفين... تربية جدتك.. تربية ستاتي.. طلغوا طرامي ممكن يتضحك عليهم. إنت كمان شريك يا شريف.. لو ما كنتش جبت له الوظيفة وما كانش طلغ منها قرشين ما كنتش إنت كمان أخذت المرتب ده من الشركة اللي انت كنت شغال فيها، كان زمانك زي سلمى أو منير بتاع شقة خمسة.. مش كدة ولا إيه يا دكتور؟

- مافيش حاجة اتعملت مش قانوني يا طنط.

- إنك تشتغل بعشرين ألف جنيه وانت ما بتروحش الشغل أصلاً، ده قانوني؟ بلاش دي.. لما ابوك يرسي على شركتك عطا توريدات وانت تاخذ عمولة ده قانوني؟... لما الدكتور سامي يبقى مرتبه من الدولة أربع تلاف جنيه ويوجب فيلا في التجمع بعشرة مليون... ده قانوني؟.. سييك من كل ده... لما انت يا شريف ترضي تاخذ وظيفة أنا جايها لك بخمستاشر ألف جنيه في الشهر في هيئة الاستشار من غير ما تعرف هي إيه، ده يبقى اسمه إيه؟ اجترع شريف كأسه مرة واحدة، وقام ليصب لنفسه ثمالة الزجاجة، وجلس بجوار عمته على مسند مقعدها وكأنه طفل. كان في كلامها الوقح

بعض من شفاء النفس وسقوط الأقنعة فما أصعب من أن يمثل الإنسان على نفسه. كل ما قالته حقيقي مائة بالمائة ولكنها نست أو تناست أنها أيضًا تعتبر سارقة لإرث أخيها مهما حاولت من تقديم أعذار.

قرر شريف أن يدخل في الموضوع الأساسي الذي أتى من أجله وحكى لها ما حدث مع فاطمة في الليلة السابقة. غمغمت نجوى بالكثير من الكلمات الفرنسية ومن طريقة نطقها تؤكد شريف أنها تطلق سبأًا ما ولكنه لم يعرف ما إذا كانت الشتائم موجهة له أم لفاطمة.

- فاطمة اتوحشت وماحدث هيعرف يلماها.

- بس هي بتقول إن معاها عقد منك.

- كتبت عقد إيجار قانون جديد بيني وبينها علشان كنت قلقانة من الأشكال الوسخة اللي بتأجرها.. قلت بدل ما اشيل مسئولية.. أعمل عقد يحميني.

- وليه رضيتي انها تأجر شقة وانتي عارفة انها ولية شمال؟

- يعني إيه شمال؟

- يعني بتأجرها في الدعارة.

- علشان بنتها يا شريف.. المهم انت لازم تلحق تطردهم قبل ما تنجح في الانتخابات. أنا هبعثك لواحد معرفة هو هيتصرف. اللواء مجدي.. المرحوم جوزي له أفضل عليه كثير.

شكرها شريف وقبل أن يغادر طلب منها طلبًا أخيرًا. اقترب منها وهو يقول بصوت تشوبه نبرة رجاء لم تعهدا فيه من قبل.

- جوز سها.

- مالها أختك؟

- إنتي لسة ليكي معارف في الخارجية... خليه يطلقها وسيبها ترجع تعيش في مصر.. واللي حضرتك تؤمري بيه هيكون.

ابتسمت نجوى وهي تومع برأسها موافقة قائلة:

- وهتديني إيه بقى يا شريف بيه؟

- شقة تمليك في نفس الدور والمساحة، في البرج الجديد وبسعر التكلفة.. نجوى عز الدين لازم تعيش في بيت ابوها.

قامت نجوى واحتضنته قائلة:

- والله وبقيت كبير العيلة يا شريف.

- 10 -

في إحدى شقق العجوزة دخل شريف إلى مكتب اللواء مجدي سالم حسب الموعد المتفق عليه. المكتب رسمياً نشاطه خدمات رجال الأعمال أما نشاطه الفعلي فهو تسهيل الإجراءات الجمركية وتحصيل الديون المدومة والتي يثس أصحابها من استردادها مقابل نسبة.

طريقة الاسترداد تشمل كل الوسائل المتاحة بداية من التفاوض الودي حتى التهديد الجسدي والمضايقات القانونية عن طريق مجموعة من المحامين.

أما اللواء مجدي نفسه فهو شخص يجمع ما بين المرح والمهابة في خليط نادر أن يتكرر في إنسان.

حكى له شريف ما حدث فطمأنه اللواء مجدي وأخبره بأن أهم شيء هو منع وجود فاطمة وعائلتها داخل الشقة قبل فوزها بالانتخابات وإلا فستعقد الأمور كثيرًا. اعترض شريف على كلامه وأخبره بأنه قانونًا لا حق لفاطمة في الشقة وأن عقد إيجار القانون الجديد المبرم بينها وبين نجوى يعتبر باطلًا لأن نجوى ليست لها أي صفة قانونية لتوقيعه.

هدأه مجدي وهو يبتسم ويخبره بأن كلامه صحيح نظرًا لكن في مصر لا تسير الأمور بهذه الطريقة حتى لو كان الحق معه، والباطل معه الحصانة. قال له مجدي:

- حتى لو رفعنا قضية ممكن نجوى تتأخذ في الرجلين لأنها تبقى زورت وادعت صفة مش ليها.. وماغتقدش انك عايز ترمي عمه مامتك في السجن.. ده بعد ما تكسب القضية بعد مدة طويلة.

- يعني ماينفعش ارفع قضية؟

- رفع القضية عملية خسرانة.. خسرانة.

رشف شريف من فنجانه على سبيل المجاملة وكتم اشمئزازه من طعم القهوة وهو يقول:

- والحل؟ نجيب بلطجية يرموها هي وعيلتها برة.

- بلطجية؟!!

تجههم وجه مجدي وتكثفت على وجهه سحابة من الغضب جعلت شريف يندم على ما قاله وأكثر من عبارات الاعتذار وأنهى وصلة الأسف مؤكداً أنه قال ما قال بسبب غضبه لا أكثر وأنه على يقين بأن عمه والدته لن تطلب مساعدة إلا من رجل محترم ولواء شرطة سابق يشهد له الجميع بالكفاءة والإنصاف. تبخرت سحابة الغضب إلا قليلاً عن وجه الرجل الذي قال بغضب خفيض:

- أنا مش مكتب تأجير بلطجية يا أستاذ شريف.. أنا هنا بعالج القصور في منظومة العدل علشان نقص الإمكانيات وظروف البلد المهمة... أنا بجيب للناس حقوقها مش بابلطج.

- والله يا سيادة اللواء أنا عارف.. يعني حضرتك هتعرف تجيب لي حقي وحق والدتي وجدتي؟

عاد اللواء وجدتي بظهره إلى الوراء وأشار إلى لمبة نيون كالحلقة الضوء أعلى باب المكتب وهو يقول:

- شايف النور ده.. أنا واضح زيه... حقك هيجي لك يا شريف.. بس ماتباتش الليلة دي في العمارة.. نتكلم بقى في الأتعاب.

- 11 -

وقفت أمام العمارة سيارة نصف نقل محملة بباب شقة مصفح ومن خلفها سيارة دفع رباعي خرج منها أربعة رجال ضخام الجثة حليقي الرأس

تمامًا. قام ثلاثة رجال آخرين بحمل الباب الثقيل ونزل من السيارة رجل عجوز نحيل. دخل الجميع إلى العمارة وصعدوا السلم وما إن وصلوا إلى الطابق الثالث حتى وقفوا أمام باب شقة رقم سبعة وطرق أحدهم الباب طرقات خفيفة. بعد لحظات فتح الابن الأكبر الباب فترجع للوراء. ابتسم أحد الرجال حليقي الرأس وهو يسأل عن فاطمة.

نادى الابن على أمه فحضر لوتو الذي تسمر في مكانه وهو يرى السبعة رجال أمامه ومعهم باب. فاطمة هي الوحيدة التي احتفظت بهدونها وهي تسألهم ما الذي يريدونه؟ بهدوء قال لها الرجل:

- آسفين على الإزعاج يا أستاذة فاطمة بس اللواء مجدي سالم أجر الشقة دي من الدكتور شريف.. معانا الأسطى صبحي علشان يركب الباب الجديد.. قدامكم قد إيه وتجهزوا؟

كاد لوتو يرد لكنه صمت بإشارة من يد فاطمة التي كانت تزن الأمور جيدًا قبل أن تتحدث. خرجت ابنتها من الباب ونظرت للرجال بفضول. ابتسم عملاق آخر غير الذي كان يتحدث إلى فاطمة وبدأ يلعب الطفلة. لم ترد فاطمة سوى بكلمة واحدة:

- ربع ساعة.

وعندما عادت فاطمة إلى البدروم وهي تجر وراءها أطفالها وزوجها وبعض متعلقاتهم قامت عزيزة من النوم لترى الجمع واقفًا ينظرون بحسرة إلى المكان الذي سيبيتون فيه بعد أن اعتادوا النوم في الشقة. عبر الأطفال عن استيائهم من عودتهم إلى هنا بينما وعد لوتو وتوعد وأقسم بأنه سيكسر

الباب الجديد وسيعود إلى الشقة. احتضنت عزيزة الطفلة التي تأفتت من رائحة جدتها فنظرت الجدة بلوم إلى فاطمة بلا سبب وهي تلوم تربيته. لم ترد فاطمة وأمرت الجميع بأن يناموا فوراً وقامت وأطفأت النور بعصبية. وفي اليوم التالي عاد لوتو إلى حجره ولم يجلس على الدكة.

صمت صخب الأطفال. لم يعودوا يدوسون الأرض الترابية التي كانوا ينامون عليها منذ شهور قليلة مضت. انحنت قامة لوتو ولم يعد يفكر إلا في الانتقام من شريف ولكنه خشي من رد فعله وغضب فاطمة التي كانت أوامرها صارمة بعدم التعرض لشريف بأي شكل من الأشكال.

قامت عزيزة من مكانها وقد أصرت أن تتحدى مرضها وتستحم حتى لا تضايق رائحتها حفيدتها.

الابن الأكبر والذي أدمن الأكل السريع اتصل بالمطعم وأخبرهم بالعنوان وطلب من العامل بصوت مكسور أن يأتيه بالطلبات على البدروم لأنهم تركوا الشقة رقم ثمانية.

وبعد ثلاثة أيام على طرد فاطمة من الشقة رن جرس باب منزل شريف في الصباح ليجد أمامه فاطمة وقد عادت لارتداء عبايتها السوداء. قالت له إن البدروم مسجل باسم جد محمد زوجها وإنه قانوناً يمكنه طرد الجميع. أخبرته بأنه يمكنه اعتبار السبعين ألف جنيه إكراماً للعشرة بين عائلته وعائلة لوتو ودادة عزيزة كما اعتاد أن يناديها سعيد ونوال وهو شخصياً.

وافق شريف على الفور وقد رأى في عينيه الانكسار واندھش حين شعر بالإشفاق عليها. سأها بصدق إن كانوا قد وجدوا سكناً مناسباً لهم ولدادة

عزيزة فأخبرته بأن الله لا ينسى أحدًا وأنها قد اتفقت مع أحد السماسرة في دائرتها الانتخابية على شراء شقة بمبلغ ثمانين ألف جنيه. ابتسم شريف وهو يخبرها بأنه موافق على هذا المبلغ. شكرته وخرجت من عنده بخطوات بطيئة ثقيلة.

صعد شريف إلى مس لبني ليبشرها بأن فاطمة آخر العقبات قد وافقت على مغادرة العمارة. فتحت له لبني الباب واحتضنته بحرارة وجلست بجواره على الكنبة بعد أن أمدته بالكيك. ابتسمت وهي تفرص شريف في أنفه كما كانت تفعل معه وهو طفل قائلة:

- طول عمر شروفتي ما بيضيعش وقته.. أميمة مشيت.. بعدها بأسبوع كنت طارد فاطمة.. أيوه.. هو ده شروفتي اللي أنا ربيته.. راجل.

- أنا قلت اجيلك بدري علشان مقال الهدد عايز يستلم العمارة.. لقيتي شقة؟

- هتهد العمارة وأنا فيها يا شروفتي؟

- ما أنا كنت فاكر انهم بيهدوا العمارات زي أفلام الكارتون.. بيحبوا كورة حديد ويخطبوا بيها العمارة.. طلع بيحب ناس اسمهم نحاتين وبيقعدوا يفكوا السيراميك والصحي والأبواب والحلوق.. حتى أسياخ المسلح بيبيعوها مستعمل.. يعني على ما حضرتك تعزلي يكونوا خلصوا الدور الثالث.

نظرت لبني إلى الشيك الذي وقعه شريف وأعطاه إياها وبدا على وجهها علامات عدم الرضا وهي تقول:

- دول كام يا حبيبي؟

- ربع مليون جنيه.

- والباقي الأسبوع الجاي؟

وقفت قطعة من الكيك في حلق شريف ولم يستطع بلعها فشرَب كوبًا من الماء ليقول مرتبكًا.

- باقي إيه؟

- باقي النص مليون.

- نص مليون إيه؟!

- إيه يا شريف فيه إيه؟ أمال انا كنت بساعدك ليه؟. كل ده ببلاش؟

ماتزعلش مس لبنى منك أمال

- بس يا مس لبنى... ده تمن الشقة فعلاً بحق ربنا وكل واحد أخذ ربع

مليون.

- مش انا اللي قلت لك ان أميمة عندها القلب.. مش انا اللي كنت

بساعدك من تحت لتحت؟ وبعدين لو مش عايز بلاش.. بس خسارة كل

الفلوس اللي اتدفعت دي تروح.

لم يصدَم شريف هذه المرة من انكشاف مخطط لبنى التي كانت تساعده

حتى تكون شقتها الأخيرة فتممكن من لي ذراعه بعد أن يكون قد أنهك ودفع

الكثير. تذكر أن هذا تقريبًا ما قاله هو شخصيًا لوالده حين هدده الأخير بأنه

سيتوقف عن دعمه بالمال.

هو نتاج هذه العمارة وهم من ربوه.

فقط تمنى ألا تكون مثلهم حتى لا يحتقر كل ذكرياته.

- مش دافع نص مليون.

- فاكرا لما قلت لك التفاحة البايظة اللي بتبوظ كل التفاح؟... والشقة

الأخيرة ممكن تبوظ لك كل اللي عملته وكل اللي اتصرف.

بهدهء أكمل شريف أكل الكيك ودون أن ينطق بينت شفة ملح ارتعاشة

خفيفة على شفاه كان يخشى من كلمة لوم تخرج منها فيما مضى. إذا هي ليست

بالتماسك الذي تتظاهر به. وبعد دقائق من الصمت سألته لبنى إذا ما كان

يريد «كيك» آخر فلم يرد بل غادر الشقة متجهًا إلى المنور ليقوم بفصل موتور

المياه الخاص بها وعلى الباغي تدور الدوائر.

- 12 -

حاولت سلمى التخفيف عنه بلا جدوى. لم يفلح الحشيش أو الخمر أو

الجنس في تهدئته ونام بجوار سلمى حتى انتبها قبيل الفجر على صرير سيارة

نصف نقل تقف أمام العمارة. قامت سلمى من الفراش ونظرت من خلال

فتحة الشيش لتشهق فقام شريف فاتحًا الشيش ليرى سيارة نصف نقل تقف

أمام العمارة وقد نزل منها ثلاثة ملتحون يرتدون الجلابيب البيضاء ويقومون

بتحميل مكبر للصوت وميكروفون وبعض الحصر الخضراء وساعة وبعض

المراوح وكرتونة بها كتب. وضعوا كل ما سبق على الرصيف. وأتى أحدهم

بسلم طويل من السيارة ونصبه بالقرب من المكتبة. صرخ فيهم شريف سائلاً إياهم ماذا يفعلون. هنا جاءت ثلاث سيارات أخرى محملة بالرجال ووقفوا أمام المكتبة.

انقبض قلب سلمى وتوتر شريف وسألته الأولى بعصبية عما يجري. نظر إليها شريف وقد رأى تلك النظرة التي يكرهها. نظرة الفتاة التي تستنجد به وهو عاجز.

في هذه اللحظة قام أحدهم بكسر قفل باب المكتبة ليدخل بعض الرجال بها يحملونه إلى الداخل ويرمون الكتب والبضاعة في الشارع وسط صرخات سلمى في شرفة منزل هدى. نزل شريف إلى الشارع محاولاً صد هذا العدوان ولكن دون جدوى. توقف بعض المارة وسائقي الميكروباص. استنجدت بهم سلمى ولكنهم تجاهلوا صيحاتها وبدءوا يفتشون في البضاعة ليقبضوا منها ما ينفعهم ودون أن يفكروا فيما يحدث. لم تتحمل سلمى ما تراه رغم صراخ شريف ألا تنزل إلى الشارع مهما حدث. تجاهلته وهاجمت أحد الرجال الذي كان يحمل ماكينة التصوير الصغيرة ونسبت أظافرها في وجهه فتجمع المزيد من المارة.

تم التحكم في شريف بواسطة أربعة رجال في الوقت الذي بدأ فريق آخر في تركيب مكبرات الصوت وفرش الحصر على أرضية المكتبة.

سأل أحدهم عما يحدث فأخبره أحدهم بأن هذا الفاسق والعاهرة التي معه يحاولان منع الرجال من إقامة صلاة الفجر في هذا المكان.

صعق شريف لما سمع وبدأ بعض المارة من سبه وندت سلمى بالعاهرة. سفعها الرجل الذي يسرق ماكينة التصوير فارتمت أرضاً وجرى مبتعداً بصيده.

بدأ بعض الرجال في تحطيم اللافتة تمامًا وسط صراخ سلمى وشريف الذي شعر بالعجز يكتسحه. تم وضع لافتة خشبية صغيرة كتب عليها مسجد الهدى وتم تركيب مكبر الصوت تحت شرفة شريف. وما هي إلا لحظات حتى تقدم أحد الشباب الملتحي برفع أذان الفجر وبدأ الرجال يدخلون إلى المكتبة ليصلوا بعد أن تحولت إلى زاوية وبعضهم بدأ يتجمع حول سلمى والتحرش بها.

تمكن شريف بصعوبة من الوصول لسلمى التي كانت تصرخ في هستيريا بسبب الأيدي التي تمتد للعبث بجسدها والأيدي الأخرى التي تسرقها. احتضنها شريف ونجح في إبعادها عن الجمع الذي فقد السيطرة على مشاعره وبدءوا يهملون وكأنهم جماهير في مباراة لكرة القدم.

حاولت سلمى دخول المكتبة وطردها منها ولكنها قوبلت بعاصفة من الشتائم وبصق أحد الرجال في وجهها لأنها تتهجم على أحد بيوت الله. أمسكها شريف ودفعها رغماً عنها إلى العمارة وهو يلكم ويضرب أيًا من يقف في طريقه. ونجح في إغلاق باب العمارة الحديدي من الداخل. بدأت الجموع في دفع الباب وهم يحاولون لمس جسد سلمى. واختلط سبابهم بالإمام الشاب وهو يطلب من الناس في الميكروفون الهدوء حتى تقام أول صلاة فجر في مسجد الهدى الجديد وسط تهليل وتكبير الناس.

دخل شريف إلى منزل جدته واتصل بالشرطة فلم يرد عليه أحد. حاول الاتصال مرارًا وتكرارًا حتى رد عليه رجل ذو لكتة صعيدية لم يفهم ما يقوله له شريف فسبه الأخير وهو ينهي المكالمة منفعلًا.

حاول شريف أن يربت على سلمى إلا أنها أبعدت يده بعنف وبدا واضحاً أنها في حالة صدمة شديدة. اقترب منها وهو يعدها بأن كل شيء سيكون على ما يرام وطلب منها أن تثق به. لم ترد سلمى وبدت شاردة وفي حالة ذهول. تركته ودخلت إلى الحمام لتتقيأ انفعالها واشمئزازها.

لم ينتظر شريف حتى الصباح فاتصل بميشيل المحامي الذي ساعده في العثور على أوراق البيت الأصلية. أخبره ميشيل بأنه نظرياً يستطيع رفع قضية إخلاء للزاوية خاصة أنه وسلمى لم يوافقا على هذا ولكنه عملياً سيضطر أن يواجه عقبات كثيرة ونصحه بضرورة التحرك سريعاً قبل أن يتم حصر الزاوية من قبل وزارة الأوقاف.

اتصل شريف على الفور باللواء مجدي سالم وهو يعتذر عن التحدث في مثل هذا الوقت المتأخر إلا أن اللواء مجدي طمأنه بأنه يستيقظ يومياً في مثل هذا الموعد ليصلي الفجر. أخبره شريف بما حدث ومن تحويل مكتبة سلمى إلى زاوية للصلاة واعتداء الناس عليها.

طلب شريف منه أن يطرد إمام الجامع والرجال الذين يرافقونه داخل لمسجد كما طرد فاطمة وعائلتها من الشقة. إلا أن مجدي أخبره بأن الأمر هنا مختلف تماماً وأنه لا يجزؤ على طرد مصلين من جامع وأن التفاوض مع فاطمة سيكون هو أسلم الحلول.

اتصل شريف بنجوى ليوقظها من النوم ليخبرها بما حدث سريعاً. تصدق نجوى ما سمعته وسألت شريف عما ينوي فعله. طلب منها أن بحث له عن نمره منافستها في مجلس الشعب. فهتمت نجوى ما يرمي إليه

وبعد عدة مكالمات اتصلت بشريف وأخبرته بأن شانتييل هي مديرة حملتها وأعطته نمرتها. قرر أن ينتظر حتى الصباح ليتصل بها. أعد لنفسه قدحًا من القهوة واسترق النظر من خلال الشرفة ليجد أن الوضع في الشارع قد هُدمًا تمامًا وإن كان هناك ما لا يقل عن خمسة رجال يبيتون داخل المكتبة التي تحولت إلى زاوية.

دخل شريف لغرفة خاله ليجد أن سلمى تجلس على الفراش وهي لا تتحرك. وقف أمامها فلم يبد عليها أنها لاحظت وجوده. خرج من الغرفة وهو يقسم أنه سيجعل فاطمة تندم أشد الندم على ما اقترفته اليوم.

أما عن سلمى فلم تكن حتى تفكر فيها حدث. سمعت من قبل عن حادث تحرش جماعي في منطقة وسط البلد لكنها لم تكن تتخيل يومًا أنها ستكون إحدى ضحاياه.

تلك الأيدي القذرة التي كانت تسرق مالها وبضاعتها وتحسس جسدها. لم تر في عيون الرجال الشهوة بل الانتقام والتشفي. لم تحاول أن تفسر تلك النظرات أو تفكر في خطواتها التالية بعد أن فقدت كل شيء. عليها الآن أن تحاول نسيان ما جرى.

دخلت إلى الحمام ونظرت إلى نفسها في المرآة وقد قررت أن تفر إلى حضن أمها وأبيها المكان الوحيد الذي تستمد منه الأمان. بينها وبين أحضانها قطع في رسغها من أمواس شريف. أخرجت ماكينة الحلاقة لتكتشف أن شريف يستخدم شفرات حديثة وليست تلك الأمواس المربعة التي كان يستخدمها والدها.

نظرت إلى ماكينة الحلاقة الحديثة ذات الثلاث شفرات وقربتها من رسغها وأيقنت أنها لن تصلح للانتحار أو أن التجربة ستكون مؤلمة للغاية. نظرت إلى البانيو القديم والسخان الذي يعمل بالغاز والمبيدات الحشرية وهي لا تراها سوى جسور لأمانها.

لم تجسر على عبور الجسر واكتفت بالاستحمام لعل الماء يغسل ما سيعلق بذكرتها إلى الأبد. لم تدر كم من الوقت مر ولكنها سمعت طرقاً خفيفاً على الباب من شريف وهو يخبرها بأنه سيذهب لمقابلة شانتيل.

أغلقت الصنبور لتجد أن الحمام يسبح في بخار الماء. خرجت من الحمام ارتدت بيجامتها الجديدة التي ابتاعها لها شريف وألقت بنفسها على الفراش وحدثت في السقف وفجأة خطرت لها فكرة ما. بدأ النوم يداعب جفونها حتى سمعت ما بدا لها في أول الأمر كهمس سرعان ما تحول إلى صراخ يطالبها بأن تنزل إلى البدروم وتقتل فاطمة. دون أن تشعر وجدت نفسها تندفع خارج الشقة حافية ومعها سكين من المطبخ.

- 13 -

في نفس الوقت كان شريف يدخل إلى مقر الحملة الانتخابية لمنافسة فاطمة لذي من الواضح أنه تم فرشه على عجل. أرشده شاب في أوائل العشرينيات ل مكتب شانتيل المطل على النيل. جلس شريف أمام آلهة الجمال وقد عقد سانه في بادئ الأمر. دائماً كان هناك شيء لا يريجه في النساء ذات الشخصية

القوية والحضور الطاغي. أخبرها بما حدث وأنه على استعداد للتعاون معها في التخلص من فاطمة.

أشعلت شانتييل سيجارتها الرقيقة وهي تسأل شريف عما يفكر به بالضبط. أخبرها شريف بكلام متناثر غير مرتب واستمعت هي إليه بهدوء. عصبيته كانت واضحة وارتباكها كان جلياً وما يطلبه منها غامض للغاية. اقتربت منه شانتييل وهي تربت عليه وكأنه ابنها، ضايقه أنها تعامله كطفل مرتبك بدلاً من رجل قد يغويها.. قالت له:

- إنني عايز تخلص من فاطمة.. وعايزني أنا اخلصك منها.. إنني فاكرنى إيه؟ أنا ما عانديش مانع نتعاون مع بعض، بس انت هتديني إيه؟ أكيد مش فلوس.. رجل زيك أكيد عارف انا متجوزة مين... إنني هتديني إيه؟
- إنني عايزة إيه؟

- شوف انت ممكن تساعدني إزاي.. بس انسى موضوع الجامع ده... بصراحة فاطمة طلعت ذكية. حتى لو القانون معاك... العرف والمجتمع والتقاليد أقوى.. ما حدش هيسيبك تشيل الجامع.

ودون أن تدري ألهمت شانتييل شريف بالحل. قام من مكانه ولثم يدها شاكرًا إياها وهي تحاول أن تفهم. وقبل أن يغادر مكتبها مال عليها وقد استعاد ثقته بنفسه وقال:

- أنا هتصرف.. أنا عارف انني متجوزة مين.. وعارف هو عنده قد إيه؟
- ما تصدقش كلام الجرايد.. دايمًا بيبالغوا في تقدير ثروته.

- مش بتكلم على الفلوس.. عارف عنده قد إيه.. يعني عارف عنده كام سنة.
- إنت قليل الأدب وما عندكش دم.
- هنتقابل.

- 14 -

نزلت سلمى والشرر يتطاير من عينيها. انقبض قلبها برؤية مكتبتها على حالها هذا والكتب على الأرض قد انتهكتها الأقدام. أيقنت أنه لم يعد هناك من مفر. إما هي وإما فاطمة في هذه الدنيا. دخلت إلى الحديقة الترابية فلم تجد فاطمة بل وجدت ابنتها تلعب وحدها في المراحض الملقاة في كل مكان. لمحت باب غرفة البدروم مفتوحًا فدخلت إلى الداخل وهي ممسكة بالسكين وما إن اعتادت عيناها الظلام حتى وجدت عزيزة وقد خرجت من الحمام بعد أن استحمت وهي تسأل من الذي دخل إلى الغرفة. تصاعدت أنفاس سلمى وفتحت باب غرفة أخرى لعلها تجد فاطمة أو لوتو.

كانت عزيزة قد بدأت تتوتر وتنادي على حفيدتها كي تحضر لها نظارتها الطبية بسرعة فجاءت الأخيرة وتبادلت النظرات مع سلمى التي ألقت بالسكين. هنا هتفت عزيزة التي استطاعت تبين وجه سلمى:

- إنتي سلمى؟ هو كان فيه خناقة برة يا بنتي؟

غادرت سلمى البدروم واستقلت ميكروباص وهي مرتدية البيجاما حافية الأقدام ولم تبال بنظرات الدهشة حتى وصلت إلى «ترب» الغفير.

وهناك بكت عند قبر والدتها وارتمت على الأرض الترابية وهي تتمنى أن يضمها هذا القبر لعله يضمها لأمها.

لعله يحن.

لعلها تتطمئن.

- 15 -

صعد السباك ومعه مساعده ورجل آخر يحمل معدات لحام إلى الدور الثاني لتفتح لهم لبني الباب. سرعان ما بدءوا في عمل خزان مياه صغير في الحمام يتم توصيله من المدخل العمومي للمياه في شقتها. بعد أن قطع شريف المياه عن العمارة لإجبار لبني على التنازل بالمبلغ الذي حدده هو، وهي لا تستطيع الاستحمام أو التنظيف إلا في الفجر حين يرتفع ضغط المياه نظرًا لقلّة الاستخدام فتصعد المياه لشقة لبني دون الحاجة إلى موتور.

عقدت لبني العزم على المضي قدمًا في خطتها. لن تبرح شقتها إلا حين تحصل على مبلغ نصف مليون جنيه ثمناً لتلك الشقة التي أعجبتها في مدينة السادس من أكتوبر. الشقة صغيرة الحجم وملحق بها حديقة صغيرة ستمكنها من اقتناء كلب يجرسها ويؤنس وحدتها.

عندما عاد شريف إلى العمارة وجد لوتو جالسًا على الدكة وقد ارتدى جلبابًا أبيض والمؤذن يقيم الصلاة في مسجد الهدى - مكتبة المصري سابقًا. اقترب شريف من البواب النحيل الذي لم ينجح في إخفاء توتره فانتصب واقفًا.

أخرج شريف من جيبه مفتاح الشقة رقم سبعة وأعطاه له. وطلب منه أن ينتقل هو وعائلته من الليلة إذا أحب. لم يصدق لوتو نفسه وهو يمسك مفاتيح كرامته وراحته بين يديه. لم يكن يدري أن ذلك المفتاح قد كلفه الكثير. سأله شريف عن المبلغ الذي يطلبه مقابل الرحيل عن العمارة وإخلاء المسجد فلم يرد لوتو فطلب منه أن ينادي على فاطمة كي يتفاهم معها. جاءت فاطمة من البدروم وقد عادت لارتداء الجيبة والبلوزة. مشت الهوينى كملكة منتصرة وجلست بجوار شريف على الدكة هادئة ثابتة ولوتو يقف أمامها. طلبت منه فاطمة أن يلحق الصلاة مع الرجال. هز لوتو رأسه المرشم دائماً واختفى داخل المسجد. سأل شريف فاطمة:

- عايزة كام يا فاطمة؟

- 600 ألف جنيه.

- خمسمية أخرى.. تمشي من البدروم ومن الشقة اللي لسة مديهة بمزاجي لجوزك.

- خمسمية بس؟! ماشي علشان خاطر العشرة.

- وياريت تمشي الناس بتوعك اللي في الجامع النهاردة.

- ماقدرش.. دول صدقة وحسنة علشان ربنا يكرمني وانجح.. بس أوعدك أول ما انجح في الانتخابات واشوف الفلوس.. المكتبة دي ترجع للست سلمى.. حقها.. وربنا كله إلا مال اليتيم وهي تستاهل كل خير.

- الفلوس هتبقى عندك بكرة.

- خلاص.. وبكرة كمان النتيجة.. والفرحة تبقى فرحتين.

ومع ظهور النتيجة في اليوم التالي تحولت فاطمة هوندا إلى النائبة فاطمة عبد السلام خضر. لم تصدق فاطمة نفسها. لقد وقفت وحدها تقريباً ضد آلة التزوير والبروبجاندرا للحزب الحاكم. ربما لأنها كانت أحد التروس في ماكينته الانتخابية لذا علمت كل الخبايا.

انتصرت فاطمة على ظروفها وقهر الحياة لها وتحكم الباشوات والبهوات فيها. تفوقت على شانتييل وشريف وعزيزة وجهلها وظلم الحياة لها. من اليوم لن تعود حياتها كما كانت.

وفي المساء وبينما فاطمة ولوتو والأطفال يغطون في نوم عميق في الشقة التي أعطاها لهم شريف بمحض إرادته تسلل الأخير إلى البدروم. لقد ألهمته شانتييل الحل حين قالت إن الأعراف والتقاليد أقوى من القانون. قرر أن يلجأ إلى التقاليد المصرية والتي دأب على السخرية منها. طرق الباب بخفة فسمع صوت المرأة العجوز الواهن يسبه ظناً منها أنه أحد أحفادها أو ابنها وقد عاد إلى البدروم. دخل شريف من الباب الذي يترك مفتوحاً دائماً وقال بصوت هامس:

- دادة عزيزة.. أنا شريف.

- افتح النور.. أنت مين.

فتح شريف النور الواهن للبدروم فلم تصدق عزيزة نفسها حتى عندما ارتدت نظارتها الطيبة. هي لا تذكر متى كانت آخر مرة دخل فيها أحد أحفاد

عز الدين باشا إلى البدروم. حكى لها شريف ما حدث في المكتبة وانهش لعدم علمها بما حدث رغم أن المسافة بين البدروم والمكتبة أمتار قليلة. قالت له عزيزة:

- أنا آسفة، أنا كان لازم كان لازم اربي الموكوس ابني.

أعطى لها شريف محموله وأخبرها بأن الوقت لم يفت كي تكمل عملية تربيته. هزت عزيزة رأسها في هدوء وأخرجت من تحت الوسادة كيسًا من النايلون به أدوية وورقة من الكارتون مكتوب عليها رقم أخي لوتو الكبير. اتصلت به عزيزة وأخبرته بكل ما أخفته عنه طوال السنوات الماضية.

ترددت عزيزة للحظات وأخبرت شريف أنها كانت تتمنى ألا تخبر ابنها الأكبر خوفًا من بطشه. بكت وهي تقول إنها عليها أن تعترف بفشلها في تربية ابنها.

اتصلت عزيزة بأخي لوتو الكبير في مكالمة تأخرت عشرين عامًا. أخبرته بتجارة فاطمية في المخدرات فيما مضى وتأجير إحدى الشقق لأغراض الدعارة وتعديها على شريف واستيلائها على شقة من شقق العمارة ومكتبة سلمى.

طلب الابن الأكبر أن تعطي عزيزة المحمول لشريف. قال له الأخير إنه مستعد لأن يدفع مبلغ التعويض المناسب فقاطعه الرجل على الناحية الأخرى قائلاً إنه لا يريد منه شيئاً وإنه سيتصرف فوراً. لم يصدق شريف نفسه فأخبره بأن المبلغ هو بمثابة مكافأة نهاية الخدمة لدادة عزيزة التي ربت جيلين من أحفاد عز الدين باشا فشكره الرجل ورفض قائلاً:

- يا دكتور.. أفضل عيلتكم علينا ما تنسيش.. واحنا مش عايزين فلوس في امنا.. وكفاية قوي اللي جرالكم من عندنا.. بكرة بليل مش هتلاقي لهم أثر.. أما عن العقود وورق الحكومة فهنشوف يخلصوا إزاي.

وفي اليوم التالي لم يعرف أحد ما حدث على وجه التحديد. يقال إن سيارة نصف نقل محملة بالرجال من كوم حمادة قد وقفت أمام العمارة ونزل منها رجال ليختطفوا فاطمة ولوتو والعائلة كلها ولم يعرف أحد السبب.

قالت إحدى جرائد المعارضة إن الجهة التي خطفت الصحفي هي نفس الجهة التي خطفت نائبة مجلس الشورى فاطمة عبد السلام خضر لأنها كانت تنوي أن تستقيل من الحزب الوطني. أحد الصحفيين قال إن اختطاف فاطمة له علاقة بنيتها فضح الباشا المقصول من الحزب والذي كانت تعلم عنه أدق أسراره. ظهرت منافستها في التلفاز وهي تدعو المسؤولين لسرعة إيجاد فاطمة وما إن خرجت من الاستوديو حتى احتضنت شانتيل ظناً منها أنها هي التي أزاحت فاطمة عن طريقها فلم تنكر الأخيرة بالطبع ولكنها من داخلها اعترفت أنها معجبة بشريف هذا الشاب الجريء والوقح.

كل ما يهم أن المنطقة ستتناول سيرة فاطمة كثيراً منذ أن جاءت من الأرياف وصدرها صغير كجرس الباب ورأت المصاييح الكهربائية لأول مرة حتى أصبحت أشهر وأقوى شخصية في المنطقة ونجحت في انتخابات مجلس الشورى.

سيثار بعدها بشهور كلام عن تلك الفتاة المباركة التي تتحدث الإنجليزية بطلاقة. سيعايرها أهل القرية وسيطلقون عليها الخواجاية. سيسخرون منها

وسترد عليهم بالإنجليزية. ستبكي في حزن أمها كثيراً كل يوم بعد أن تطفأ الأنوار.

بعد اختفاء فاطمة بأسبوع وبينما كان الإمام يقوم ليتوضأ في الحمام الصغير سمع تلملم أحد الرجال المرابضين دائماً في المسجد لحمايته. قال الرجل إن فاطمة قد اختفت وإن لم تظهر وتعطيه شهرته فسيترك المسجد. ابتسم الإمام الشاب ذو الوجه البشوش وهو يخبره بأن هذا المكان تحول من مكان تباع فيه كتب الشر والفسق إلى بيت من بيوت الله. ونشر كلمة الله تتطلب بعض التضحيات. نظر له الرجل هازئاً وهو يخبره أنه لا يريد أن يضحى بل يريد أن يأكل.

حاول الإمام أن يثنيه عن رأيه لكنه سمع فجأة أصوات نباح ستة من الكلاب الروت فيلر الشرسة وهي تقتحم المسجد. انتفض الرجلان وهما يحاولان الهرب. لم يحاول أحد من الناس مساعدتهما بل لقد اكتفوا بالفرجة على ما يحدث. وقبل أن يغرز أحد الكلاب أنيابه في الإمام سمعوا صفارة من بعيد فتوقفوا وربضوا مكانهم. سمعوا صوت صفارة أخرى فخرجت الكلاب من المسجد واتجهت إلى مدخل العمارة ومنه إلى منزل شريف ليستقبلها مدرب الكلاب الذي استعان به شريف. وفجأة صفق الناس وهللوا لما رأوه وكان ما حدث هو جزء من عرض مسرحي ما.

نزل شريف بعدها إلى المسجد وخلع نعليه ودخل ليجد الرجلين في حالة يرثى لها. جلس شريف على الحصير وفرد رجليه في وجه الرجلين قائلاً:

- أنا باعتذر.. أصلي نويت افتح سنتر تدريب كلاب.. موضة جديدة بقي..
فاطمة مشيت.. بس الكلاب قاعدة.. لكن صاحبها اللي بيعرف يتحكم فيها
هيسيبها على صلاة العشا... قلتم إيه:

فهم الرجلان مقصد شريف وبالفعل قبل صلاة المغرب لم يكن هناك أي
أثر للمسجد..

وفي اليوم التالي بدأ مقال الهدد العمل وبدأ من الدور الأخير. طلب منه
شريف أن يعمل على مدار الساعة حتى تقلق لبنى. لم يكن لشريف أن يحصل
على ترخيص هدم بسبب وجود شقة لبنى لكنه كان يستطيع أن يكلف مقال
الهدد بهدم كل شيء على أن يترك الأبواب والشبابيك كما هي.

وعندما حضر إليه أحد مهندسي الحي ليتحقق من شكوى لبنى أنه يقوم
بهدم عمارة دون الحصول على تصريح. أخبره شريف بأن هذه ليست أعمال
هدم بل ديكور. اقتنع المهندس بكلام شريف وذاك المبلغ الذي دسه له
الأخير في جيبه.

بعد أسبوع ذهب شريف مع سلمى لاستقبال سهى في المطار. لقد التأم
شمل الثلاثة أصدقاء مرة ثانية ولكن بعد أن غيرتهم الحياة. قد يرى البعض
أنها قد غيرتهم للأفضل والبعض قد يرى أنها حولتهم إلى نسخ أسوأ.

تناولت سلمى الغداء مع العائلة في فيلا سامي الذي بدأ يؤقلم نفسه
على وجود سلمى كحقيقة مؤقتة في حياته. وبعد الغداء جلس ثلاثتهم
يجترون الذكريات ويرسمون الأحلام للمستقبل. جلس شريف بين الفتاتين
واحتضنها. مالت سهى عليه وهي تقول:

- شكراً يا اخويا الكبير.

وفي اليوم التالي قررت الفتاتان الذهاب وحدهما إلى مس لبنى. كان رأي سهى أنها ربما إن رأتهما هم غيرت رأيها وأن الموضوع ربما يكون عناداً شخصياً مع شريف. أخبرهما الأخير بأنهما تحرثان في ماء البحر. وما هي إلا دقائق حتى نزلت الفتاتان من عند لبنى بخفي حنين وفتح لهما شريف الباب وهو يضحك وأخبرهما بأنه لديه بعض الألاعب كي تفر لبنى من العمارة كما يُفر من المجدوم.

حاولت سهى أن تثنيه وهي تذكره بأنها مس لبنى رغم كل شيء. لم ترد سلمى وفضلت الصمت. بعد ساعة حضر إليه مقالو الهدد وعرفه على الغفير الجديد الذي طلبه شريف وأخبره بأنه لديه كل المواصفات التي طلبها. أثنى شريف على المقالو وسلم على الغفير الجديد وقال له إنه يستطيع تسلم أمور العمارة من الليلة. هز الغفير رأسه موافقاً وانصرف.

باتت سهى في فيلا والدها بينما باتت سلمى مع شريف. وفي الليل أيقظت سلمى شريف فزعة وهي تقول له إن هناك أصواتاً كثيرة بالخارج فطمأنها شريف بأنه الغفير وقد أتى بأصدقائه. سألته سلمى:

- صحابه إيه. دول هيقبلوها غرزة.

- بالضبط.. هو ده المطلوب..خلي مس لبنى تتونس بيهم.

- إنت هتحول عمارة عز الدين باشا لغرزة!؟

- باشا مين؟ هو فيه باشا بياخد في عمارة كاملة ثلاثين جنيه؟

أسبوع آخر والهدم يسير على قدم وساق من الداخل أما من الخارج فالعمارة تبدو متماسكة وكأن شيئاً لا يحدث. في خلال هذا الأسبوع حاولت لبني أن تخرج لابتياح حاجاتها من السوبر ماركت فرأت ما لا يقل عن خمسة رجال يقومون بتعاطي المخدرات أمام باب شقتها وما إن رأوها حتى بدأوا يتحرشون بها لفظياً. سمعت ألقاظاً بذئمة وهم يصفونها بمرضعة قلاوون والمومياء. عادت إلى منزلها وقلبها يخفق من الانفعال والخوف. أغلقت المزاليج وطلبت حاجاتها من السوبر ماركت وبعد ساعة اتصلت بالمحل فأخبرها صاحب المحل بأنه قد أرسل ما طلبته إلا أن غفير العمارة الجديد منع أي أحد من دخول المبنى.

أصابها شعور أنها محاصرة بالاختناق فاتصلت بأختها التي أتت ووضعت لها ما تريد في سبت معلق بحبل وسحبته إلى الداخل وهي تهنيئ نفسها بانتصارها على شريف في هذه الجولة.

وصل إلى شريف أن لبني تستعين الآن بأختها في ابتياح حاجاتها دون الحاجة إلى مغادرة الشقة. فطلب من الغفير أن يصطاد بعض القطط والكلاب ويلقي بجيفتهم أمام باب شقتها كي تزعجها الرائحة. ابتسم الغفير وهو يثني على ذكاء شريف ونفذ ما طلبه منه.

وتمر الأيام ولبني لا تريد الاستسلام ومقاوم الهدد يخبره بأنه عليه أن يعطيه شقة لبني في غضون أيام وإلا فسيضطر إلى ترك العمل والبدء في عمارة أخرى.

وفي محاولة أخيرة منه صعد شريف ومعه سهى وسلمى إلى شقة لبنى
لآخر مرة. قاومت سهى القياء أكثر من مرة بسبب رائحة جيفة القلط
وأشاحت سلمى بنظرها بعيداً عن منظر الكلب المذبوح.

لم تفتح لبنى حين رنوا الجرس بل اكتفت بفتح الشراع. استلت سكيناً
وهي تنظر إليهم وقد التمعت عيناها ببريق جعل سهى تتراجع حتى إنها
كادت تسقط في بير السلم بعد أن تم هدم السور. لم ترد عليهم وأغلقت باب
الشراع دون أن يتحدث أحدهم بأي كلمة.

قرر شريف الاستسلام ودفع نصف المليون جنيه وكاد بالفعل يجبرها
بهذا حتى قال له مقاول الهدد:

- عندي فكرة يا دكتور شريف تخلي المرة دي تجري من الشقة وتقول
حقي برقبتي.

- قول.

- نحط لها الفار في الصاعد.

- يعني إيه؟

- إحنا هنقطع كابل صاعد الكهرباء.. يبقى لا مية ولا نور وكلاب ميتة.

- بس كده هي ممكن تعمل محضر وتقول اني أنا اللي قاطعه.

- هنصطاد فار من المنور ونحطه على الحتة المقطوعة من الكابل.. تقرير

النيابة هيتكتب فيه فار قرض كابل الصاعد فقطع التيار الكهربائي.. ولو
عايزة تصلحه تعمل مقايسة وتجييب كابل جديد على حسابها.

كانت الفكرة جهنمية وأعجبتة كثيرًا. هزت الفتاتان رأسيهما اعتراضًا وقالت سلمى إن هذا قد يكون كفيلاً بدفعها للانتحار. أما سهى الرقيقة فلم تتحمل وبدأت تبكي في صمت. طلب شريف من مقاول الهدد أن ينتظر ولا يفعل شيئًا حتى يخبره.

دخل شريف ومعه الفتاتان إلى شقة هدى لآخر مرة. وقبل أن يرحل أخذ معه صندوق كنزه الصغير المكون من ألعاب لـ «بات مان» طلبت منه والدته أن يحافظ عليها فأخفاها عن سهى في هذا الصندوق حتى الآن. ضحكت الأخيرة وهي ترى ما أخفاه عنه شريف. تلك الألعاب التي تبدو بلا أهمية الآن كانت هي الدنيا يومًا ما. أخرج أيضًا من الصندوق بعض الرسائل كان قد كتبها خاله لعدة فتيات من هواة المراسلة من عدة دول مختلفة وتوفي دون أن يتمكن من إرسالها فتعهد شريف بأن يرسلها ووضعها في الصندوق ثم نسي أمرهما تمامًا.

وفي نفس الصندوق أخرج الرسائل التي كانت ترسلها أخته إلى منير عن طريق سلمى التي أوصلتها بدورها إلى شريف الذي أخفاها في الصندوق دون أن يواجه أخته أو يخبر والديه خوفًا عليها من العقاب.

نظرت سلمى وسهى وشريف بعضهم إلى بعض والمشاعر المتضاربة تغالبهم.

نظر إلى طوق الكلب روميل الذي أخذه من السطوح وشريط فيديو مسجل عليه عيد ميلاد أخته واحتفظ به بعيدًا عن متناول والده الذي كان

دائم تسجيل مباريات كرة القدم على شرائط المناسبات فأنقذ آخر ما تبقى من فيلم يظهر فيه خاله وكل العائلة.

وقبل أن يتحرك بسيارته ومعه الفتاتان في طريقهم إلى فيلا سامي. نظر إلى العمارة نظرة أخيرة. تذكر طفولته ومراهقته والعصفور داخل الساعة والطريقة التي كان يلعب فيها مع خاله. تذكر دراجة سهى وقراءة المجلات والكتب في المكتبة خاصة مجلة ميكي التي كانت ملصقة صفحتها من الأعلى. نظر إلى زجاج منصور جاد الله «الفاميه» المحطم. تذكر خاله وأخيراً تذكر مس لبنى وهي تضع له نجمة ذهبية على كراسه ويوم أنقذته عندما حبس نفسه في المنور وكاد يموت هلعاً من الفئران. تذكر طعم الكيك ورائحة حضنها المشبع بالتبغ ليلتفت بعدها لمقاول الهدد قائلاً:

- ابقى حط لمس لبنى الفار في الصاعد.

وانطلق ثلاثتهم إلى دنياهم الجديدة.

-تمت-

تم هدم العمارة بالكامل في أوائل يناير 2011

-تمت في 8 إبريل 2014

البنيت اللي كانت معاك دي جاييها منين؟

- دي صاحبتني.

استعد شريف للمواجهة واتخذ القرار؛ سيصرخ في وجه الأستاذ منصور أسطورة التزمت في العمارة بأنه حر، وربما يلحقها بـ «اعمل اللي تعمله يا أنكل وهات اخرك».. سينتقم من إهانتته فيما مضى وهو مراهق، سينتقم لسلمى وأخته وكل أطفال وشباب العمارة الذين قمعهم باسم الأخلاق.

- والله كبرت يا شريف ويقيت بتجيب نسوان العمارة.. ما عندهاش أخت

دي ليا؟ أنا ما عجزتش يا ولد... العصب لسه بيدي فولت.. هاهاهاهاهاها.

لم ينتظر الرجل ردًا من شريف المذهول، وأخبره بأنه رجل يعشق الحق،

وأن كلماته هذه لن تعجب باقي السكان في عمارة جد شريف المؤجرة

بنظام الإيجار القديم.

- يا شريف يا ابني أرض زي دي تسوى لها أربع خمس أرناب، ويتطلع لكم

تمن أربع خمس علب سجائر كل شهر.

نزل شريف من عند الأستاذ منصور وقد رأى في بيع العمارة كل حلول

كونه.